

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

المؤلف

ولد (وليم ويلكى كولنز) ــ مؤلف هذه الرواية ــ فى يناير سنة ١٨٢٤ فى مدينة لندن ، وكان أبوه (وليم كولنز) رسامًا ذائع الصيت فى إنجلترا فى النصف الأول من القرن التاسع عشر .. وحين بلغ الصبى عامه الثانى عشر انتقل به أبوه إلى إيطاليا ، حيث قضت الأسرة ثلاثة أعوام ، عادت بعدها إلى إنجلترا ، حيث ألحق الغلام بمؤسسة تجارية قضى فيها اربع سنوات ، ثم تركها ليدرس القانون .

لكن هذه الدراسة لم ترض نزعة الفتى الأدبية ، فلما مات والده سنة ١٨٤٧ هجر الجامعة وتفرغ للأدب .. فنشر بعد ثلاثة أعوام قصته الأولى « سقوط روما » ، ثم أتبعها فى السنوات التالية بأربعة كتب هى : « بازيل » ، « اختبئ وفتش » ، « بعد المغيب » ، « السر الرهيب » .. وفى سنة ١٨٦٠ نشر قصته هذه المشهورة « ذات الثوب الأبيض » ، التى رفعته توًا إلى قمة المجد الأدبى وكانت السبب فى تهافت الناشرين على شراء حقوق نشر قصصه التالية قبل أن يشرع فى كتابتها !.. وكان أبرز هذه القصص : « بلا اسم » ، و « أرمادال » ، و « مونستون » ثم « المجدلية الجديدة » .. أما ما عداها من القصص التى كتبها بعد ذلك ، فقد بدت فيها نذر نضوب القريحة و « الإفلاس الذهنى » !

وفى سبتمبر سنة ١٨٨٩ مات (ويلكى كولنز) ، بعد أن قضى السنوات الأخيرة من حياته معتل الصحة .. وقد عاش النصف الثانى من حياته صديقًا حميمًا لزميله الأديب (تشارلس ديكنز) ، حتى لقد قام (ديكنز) بتمثيل الدور الرئيسى فى إحدى روايات (كولنز) حين مثلت على خشبة المسرح !

١ ــ لقاء غريب !

فى إحدى ليالى أغسطس سنة ١٨٤٩ ، ودع (وولتر هارترايت) صديقه البروفيسور (بيسكا) ، وكان قد تعرف إلى الإيطالى الضئيل الجسم حين التقى به فى بعض قصور لندن ، حيث كان الأول يعطى دروسًا فى الرسم ، والثانى يعطى دروسًا فى لغته الإيطالية ، فسرعان ما توطدت صداقتهما ..

وبتوصية من (بيسكا) عين (هارترايت) لدى المستر (فردريك فيرلى) رب بيت (ليمريدج) بمقاطعة (كمبرلاند) ، فوكل إليه تعليم ابنتى أخيه فن الرسم بالألوان المائية ، على أن يغادر لندن إلى مقر عمله الجديد بعد ظهر اليوم التالى ..

وكانت تلك الليلة شديدة الحر ، فلم يشأ (هارترايت) أن يعود فورًا إلى مسكنه ، بل آثر أن يسير بضعة أميال خارج لندن ، نحو الحقول التى كانت يومئذ ــ منذ مائة عام ــ أقرب إلى المدينة مما هى اليوم ..

وأشرفت الساعة على الواحدة ــ بعد منتصف الليل ــ قبل أن يولى الشاب وجهه عائدًا .. وسار متمهلاً فى الطريق المقفر الموحش . يفكر فيما ستكون عليه حياته المقبلة فى (كمبرلاند) .. وإذا به يجفل مذعورًا . وفى لحظة جمدت كل قطرة من الدم فى عروقه ، إذ حطت يد على كتفه من الخلف فى خفة ومفاجأة !.. والتفت لفوره وقد اشتدت أصابعه على مقبض عصاه ، فإذا به يرى فى منتصف الطريق امرأة وحيدة ، كأنما قد شق عنها جوف الأرض أو هبطت من السماء ! وقد ارتدت من رأسها

إلى قدمها ثيابًا بيضاء .. وأشارت بيدها ــ إذ واجهها ــ إلى السحابة القاتمة التى انعقدت فوق لندن ، وقالت :

ــ هل هذا هو الطريق إلى لندن ؟

وتأملها (وولتر هارترايت) متمعنًا ، فإذا كل ما استطاع أن يتبينه منها على ضوء القمر : وجه شاب شاحب ، وعينان واسعتان حزينتان ، وشفتان تختلجان فى عصبية ، وشعر اختلط فيه اللون البنى الباهت باللون الأصفر .. ولم تكن هيئتها هيئة سيدة رفيعة الشأن ، كما أنها لم تكن ــ فى الوقت ذاته ــ هيئة امرأة من الطبقة الوضيعة .. أما قوامها فكان نحيلاً ، وفى الطول فوق المتوسط بقليل ..

وقالت فى هدوء يشوبه شىء من العجلة : « هل تسمعنى ؟.. لقد سألتك عما إذا كان هذا الطريق يؤدى إلى لندن ؟ » .

فأجاب : « نعم ، إنه يؤدى إليها .. أرجو المعذرة لإبطائى فى الإجابة ، فقد أذهلنى ظهورك فجأة فى الطريق ، وما زلت عاجزًا عن تعليله ! » .

ــ ما أحسبك ترتاب فى أننى أتيت أمرًا منكرًا ؟.. إنى لم أرتكب ذنبًا ، وإنما تعرضت لحادث ، وكان من سوء حظى أن بقيت هنا وحدى إلى هذه الساعة المتأخرة من الليل .. ولكن ما الذى يجعلك ترتاب فى أمرى ؟

ــ أرجوك أن لا تفترضى أننى قد خالجنى أدنى ارتياب فيك ، أو خطرت لى فكرة سوى الرغبة فى مساعدتك إن استطعت .. وإنما عجبت لظهورك المفاجئ فى الطريق ، لأنه كان يبدو لى خاليًا قبل أن أراك بلحظة !

والتفتت ، وأشارت إلى فجوة فى جانب الطريق ، ثم قالت :

ــ سمعتك قادمًا فاختبأت حتى أرى أى نوع من الرجال أنت ، قبل أن أجازف بالتحدث إليك .. ولقد ارتبت وتوجست حتى مررت بى فرأيتك .. وعندئذ سمحت لنفسى بأن أتسلل خلفك وألمسك .. فهل أستطيع أن أركن إليك ؟

فقال : « لك أن تركنى إلى لأى غرض غير ضار .. وإذا شق عليك أن تشرحى لى موقفك الغريب ، فلا تفكرى فى أن تعودى إلى هذا الموضوع ثانية ، بل انبئينى كيف يمكننى أن أساعدك ، وسأفعل إن استطعت » .

ولأول مرة سمع (هارترايت) صوتها يختلج برقة الأنوثة وهى تقول : « لكم أنت كريم .. وأنى لشاكرة للأقدار كل الشكر أننى قابلتك ، فأنا لم أزر لندن من قبل إلا مرة واحدة . هل ترانى أستطيع العثور على عربة من أى نوع ، أم أن الوقت متأخر ؟.. إنك لو استطعت أن تدلنى على مكان احصل فيه على عربة ، ولو وعدتنى أن لا تعترضنى ، وأن تدعنى أتركك متى وكيفما راق لى ، فسوف أجد فى لندن صديقًا سيسره أن يستقبلنى .. ولست أرغب فى شىء آخر ، فهل تعدنى ؟ »

وأرسلت بصرها إلى الطريق ، ثم ردته فى لهفة وهى تكرر كلماتها : « هل تعدنى ؟ » .. وحدقت فى محدثها فى خوف وتوسل أشفق من رؤيتهما .. وماذا كان فى وسع (هارترايت) أن يفعل ؟.. كانت أمامه امرأة غريبة ، حائرة ، لا حول لها ولا قوة .. وكانت تحت رحمته تمامًا . فقال :

ــ هل أنت واثقة من أن صديقك الذى فى لندن سوف يستقبلك فى هذه الساعة المتأخرة ؟

ــ كل الثقة .. ما عليك إلا أن تقول لى : إنك ستدعنى أتركك متى وكيفما راق لى .. فهل تعدنى ؟

وفيما هى تكرر الكلمات للمرة الثالثة ، اقتربت منه ، ووضعت على صدره يدها .. يدًا نحيلة ، باردة .. ثم قالت :

ــ هل تعدنى ؟

ــ أجل ..

ويمما وجهيهما شطر لندن فى تلك الساعة الهادئة .. الساعة الأولى من النهار الجديد .. وسارا معًا : (ولتر هارترايت) مدرس الرسم الشاب ، وهذه المرأة التى كان اسمها ، وشخصيتها ، وقصتها ، وأهدافها فى الحياة ، بل ونفس وجودها فى تلك اللحظة بجانبه ، ألغازًا عميت عليه !

وسألته فجأة : « أريد أن أسألك عن شىء : هل تعرف أناسًا كثيرين فى لندن ؟ » .

فقال : « نعم ، أعرف كثيرين جدًّا ! » .

فسألته : « كثيرين من ذوى المكانة والألقاب ؟ » .

وكانت فى لهجة سؤالها الغريب نبرة لا تخفى من الشك . فأجابها بعد أن لاذ بالصمت لحظة :

ــ بعضهم من هؤلاء ..

وهنا توقفت عن السير ، وتفرست فى وجهه ثم قالت :

ــ هل بينهم من يحملون لقب (سير) ؟

وعجز عن الرد لفرط دهشته ، فسألها بدوره : « ولم تسألين ؟ »

فقالت : « لأنى أرجو لمصلحتى ألا تكون قد عرفت واحدًا معينًا ممن يحملون هذا اللقب ! » .

فسألها : « هل لك أن تذكرى لى اسمه ؟ » .

ــ لا أستطيع .. لا أجرؤ .. إنى أنسى نفسى حين أذكره ..

وكانت تتكلم بصوت مرتفع ولهجة تكاد تكون عنيفة ، وقد رفعت قبضتها ولوحت بها فى الهواء فى انفعال .. ثم أضافت فى صوت انخفض حتى اقترب من الهمس :

ــ اذكر لى أسماء من تعرف منهم ..

وذكر أسماء ثلاثة من النبلاء الذين كان يعطى دروسًا لبناتهم ، فتنفست الصعداء وقالت :

ــ حسنًا !.. أنت لا تعرفه .. وهل أنت نفسك ذو مكانة ولقب ؟

ــ بل أنا أبعد الناس عن ذلك .. ما أنا إلا (معلم رسم) .

فاردفت كمن تحدث نفسها :

ــ إنه ليس من ذوى الألقاب والمكانة .. الحمد لله ! إذن فبوسعى أن أوليه ثقتى !

فقال (هارترايت) : « أخشى أن يكون لديك مبرر قوى للشكوى



من رجل ذى جاه ولقب ... وأخشى أن يكون النبيل الذى لا تريدين الإفضاء لى باسمه قد أساء إليك ؟! » .

فأجابت : « لا تسألنى .. لا تدعنى أتحدث عما فعل ؟.. لقد استغللت ، وأسىء إلى فى قسوة .. ولسوف تكون أكرم من ذى قبل لو أسرعت فى السير ولم تكلمنى ! » .

وعادا يسعيان قدمًا بخطى حثيثة ، دون أن ينبس أحدهما بكلمة ، لنصف ساعة تقريبًا .. حتى إذا اقتربا من أول بيوت العاصمة . عادت تكلمه متسائلة :

ــ هل تعيش فى لندن ؟

ــ نعم ، لكنى سأرحل عنها غدًا لبعض الوقت .. سأذهب إلى الريف .

فسألته : « إلى أين ؟.. إلى الشمال ؟.. أو الجنوب ؟ » .

فقال : « إلى الشمال .. إلى (كمبرلاند) ! » .

فرددت الاسم فى لطف : « (كمبرلاند)؟!.. آه !.. ليتنى كنت ذاهبة مثلك إلى هناك .. لقد سعدت فيها يومًا ما ! » .

ــ لعلك ولدت هناك ؟

ــ كلا .. بل ولدت فى (هامبشاير) ، ولكنى ذهبت فترة من الزمن إلى مدرسة فى (كمبرلاند) .. كم أود أن أرى قرية (ليمريدج) . ودار (ليمريدج) . مرة أخرى !

وكان (هارترايت) هو الذى وقف فى هذه المرة مبهوتًا لورود ذكر

دار مستر (فيرلى) ــ مخدومه الجديد ــ على شفتى رفيقته الغريبة !.. وردد متجاهلاً : « دار (ليمريدج) ؟.. سمعت بعض أهالى (كمبرلاند) يذكرونها من بضعة أيام » .

فاستدركت قائلة : « آه ، ما أظنهم كانوا أهلى ، فقد ماتت السيدة (فيرلى) ومات زوجها .. ولعل ابنتهما الصغيرة قد تزوجت فى هذه الأثناء وورحلت .. لست أدرى من يعيش فى (ليمريدج) الآن .. ولئن بقى من يحملون هذا الاسم فلسوف أحبهم من أجل السيدة (فيرلى) » .

وكانا قد بلغا المدينة ، فحاول (هارترايت) أن يستأنف الحديث فى الموضوع ، ولكن همّ المرأة انصرف إلى البحث عن عربة مغلقة تمضى بها إلى حيث شاءت . فاستدعى (هارترايت) أول عربة رآها وساعد زميلته على الركوب ، ثم ناشدها أن تسمح له بأن يطمئن إلى وصولها سالمة إلى مقصدها ، ولكنها قالت : « لا .. لا .. لا .. إننى فى أمان تام وسعادة بالغة الآن ، فإذا كنت شهمًا فاذكر وعدك .. دع الحوذى يمضى بى إلى أن أستوقفه .. شكرًا لك !.. شكرًا لك !.. شكرًا ! » .

وكانت يده على باب العربة ، فتناولتها فى يدها وقبلتها ثم دفعتها عنها !.. وفى اللحظة ذاتها انطلقت العربة ، وأخذ صوت عجلاتها يتضاءل تدريجيًا ، حتى ذاب فى الظلال السوداء المخيمة على الطريق ..

وذهبت المرأة .. ذات الثوب الأبيض !



* * *

وانقضت عشر دقائق ، أو تزيد ، و (هارترايت) لا يبرح ذلك الجانب من الطريق .. فهو يسير بضع خطوات ، ثم يتوقف شاردًا .. وأحيانا كان يجد نفسه فى ريب من حقيقة ما حدث .. كان كل ما يدركه هو اضطراب أفكاره .. ثم أفاق إلى نفسه على صوت عجلات تقترب مسرعة ، فوقف فى مكانه .. وكان لحظتئذ فى الجانب المعتم من الطريق ، تحيط به ظلال بعض الأشجار الكثيفة . وفى الجانب المقابل — وكان أكثر نورًا — راح أحد الشرطة يسير ذهابًا وجيئة .. ومرت العربة ، وكانت مكشوفة تضم رجلين ، صاح أحدهما بزميله :

— قف ، هذا شرطى .. فلنسأله :

وسرعان ما جذب الحوذى أعنة الجواد ، فوقفت العربة على قيد خطوات من البقعة المظلمة التى وقف (هارترايت) فيها .. وصاح الراكب الأول بالشرطى يسأله :

— أيها الشرطى .. هل رأيت امرأة تمر فى هذا الطريق ؟

فقال الشرطى متعجبًا : « ما شكلها يا سيدى ؟ » .

فقال الرجل : « امرأة ترتدى البياض أيها الشرطى .. ترتدى ثوبًا أبيض ! » .

— لم أرها يا سيدى .

— إذا التقيت — أو أحد زملائك — بالمرأة فاستوقفها وأرسلها فى حراسة دقيقة إلى هذا العنوان .. وسأدفع جميع النفقات ، مضافًا إليها مكافأة طيبة !

فتأمل الشرطى البطاقة التى قدمت إليه ، وتساءل :

— ولماذا نستوقفها يا سيدى ؟.. ماذا فعلت ؟

— ماذا فعلت ؟.. لقد فرت من مستشفاى ... مستشفى الأمراض العقلية !.. لا تنس أنها فى ثوب أبيض !.. امض أيها الحوذى .

٢ — فى دار « ليمريدج »

لم يستطع (وولتر هارترايت) طيلة تلك الليلة واليوم الذى تلاها — خلال رحلته إلى (كمبرلاند) — أن يقصى عن ذهنه ذكرى لقائه الغريب مع ذات الثوب الأبيض !.. صحيح أن بعض الأسئلة التى ألقتها عليه كانت توحى بأن صدمة قد أصابتها حديثًا فزعزعت اتزان عقلها .. لكن فكرة الجنون المطلق الذى يرتبط فى أذهاننا جميعًا بلفظ (مستشفى الأمراض العقلية) لم تخطر له قط على بال !

وراح يفكر : « ماذا ترانى فعلت ؟.. أترانى مددت يد المساعدة إلى ضحية من ضحايا أفظع أنواع المعتقلات ، أم أكون قد أطلقت على لندن الفسيحة مخلوقة تعسة كان من واجبى — وواجب كل إنسان — أن نكبح جماحها رحمة بسواها ؟ » .

وعند وصوله إلى دار (ليمريدج) استقبله خادم مهيب الطلعة ، أنبأه بأن أفراد الأسرة قد أووا إلى مضاجعهم .. وكان (هارترايت) متعبًا وفى حالة نفسية لا تشجعه على أن يأكل أو يشرب ، فلم ينقض ربع الساعة حتى كان متأهبًا للذهاب إلى غرفة نومه ، فقاده الخادم إلى غرفة أنيقة الأثاث ، وقال له : « الإفطار موعده الساعة التاسعة يا سيدى » .. ثم انسحب فى هدوء .

وإذ نهض (هارترايت) فى الصباح وفتح النافذة ، رأى البحر يمتد أمامه بهيجًا تحت أشعة شمس أغسطس الساطعة .. وكان المنظر مفاجأة له ،

إذ كان يختلف عن منظر لندن الكئيب إلى درجة جعلته يشعر بأنه قد انغمس فى حياة جديدة .. ومع أن المرأة ذات الرداء الأبيض كانت لا تزال فى ذهنه ، إلا أن صورتها أخذت تخبو وتبهت شيئًا فشيئًا ..

وهبط إلى الطابق الأرضى ، فقاده خادم إلى حجرة الطعام .. وكشفت له أولى نظراته عن شابة واقفة إلى جوار النافذة وظهرها نحوه ، فبهره جمال قوامها وجلال وقفتها .. وحرك أحد المقاعد ليستلفت انتباهها ، فاستدارت نحوه على الفور .. وشد ما كانت دهشته إذ رأى وجهها دميمًا لا يتفق فى شىء مع قوامها الجميل !.. كانت بشرتها سمراء قاتمة ، وشكل فمها وفكها الأسفل يقربها من شكل الرجال ، وقد علا شفتها العليا ما يشبه الشارب !.. كما كانت ذات عينين بنيتين ثاقبتين وشعر غزير فاحم السواد انحدر فى نموه إلى مدى غير عادى فوق جبهتها .. ولكن محياها كان مشرقًا يوحى بالذكاء والأمانة .

وابتدرت الضيف وقد أضاء وجهها بالابتسام وفاض محياها نعومة وأنوثة :

— مستر (هارترايت) ؟.. لقد فقدنا كل أمل فى وصولك فى الليلة الماضية وأوينا إلى مخادعنا فى موعدنا المعتاد ، فتقبل اعتذارى عن غفلتنا الظاهرة ، واسمح لى بأن أقدم لك نفسى كإحدى تلميذتيك ..

وتصافحا .. أنس إلى بساطة طبعها ، فجلسا إلى مائدة الفطور وكان كل قد عرف الآخر منذ سنوات !.. ولم تلبث أن استطردت قائلة :

— إن أختى لن تهبط لتناول الإفطار معنا ، فهى ملازمة غرفتها بسبب صداع شديد .. أما عمى — مستر (فردريك فيرلى) — فإنه مقعد ولا يشاركنا أية وجبة من وجبات الطعام ، ولكن لا تدعنى أربكك ، فالواقع أن الآنسة (فيرلى لورا) ليست شقيقتى حقيقة . كما أن مستر (فيرلى) ليس عمى ! فأنا أدعى (ماريان هالكومب) .. وقد تزوجت أمى مرتين ، الأولى من أبى ، مستر (هالكومب) .. والثانية من مستر (فيليب فيرلى) والد أختى غير الشقيقة .. وفيما عدا أن كلتينا يتيمة فإن كلا منا تختلف عن الأخرى إلى أقصى حد ، وفى كل شىء !.. إن أبى كان رجلاً فقيرًا ، بينما كان والد الآنسة (فيرلى) غنيًّا !.. وأنا لا أملك شيئًا ، فى حين أنها تملك ثروة !.. وأنا سمراء دميمة ، وهى بيضاء فاتنة !.. ومع ذلك فإن كلا منا تحب الأخرى حبًّا خالصًا ، وإن بدا هذا عجيبًا لك .. فأنا لا أعيش بدونها ، وهى لا تقوى على العيش بدونى ، وهذا سر وجودى فى دار (ليمريدج) !

وصمتت لتقدم إلى (هارترايت) قدحًا من الشاى .. ثم استأنفت الحديث قائلة :

— وماذا عساى أن أقول لك عن مستر (فردريك فيرلى) ؟.. إنه — أولاً — الشقيق الأصغر للمرحوم المستر (فيرلى) والد (لورا) .. وهو — ثانيًا — أعزب .. وثالثًا ، هو الوصى على الآنسة (فيرلى) ، ثم هو — رابعًا — مريض عاجز إلى درجة لا يجب معها إزعاجه بأى شىء ،

أو أى شخص .. ولست أدرى كنه حالته ، ولا الأطباء يعرفون ما به ، ولا هو نفسه يعرف !.. والآن نبئنى يا مستر (هارترايت) : هل تظن أنك سوف تستمتع بحياتنا الريفية الهادئة ، أو أنك لن تلبث أن تتعطش سريعًا إلى التبديل والمغامرة ؟

فأجابها (هارترايت) : « لن أكون معرضًا لخطر الاشتياق للمغامرة لفترة من الزمن ، فقد صادفتنى مغامرة فى ذات الليلة السابقة لوصولى إلى هذا البيت ! » .

— حقًّا يا مستر (هارترايت) ؟ هل لى أن أسمع قصتها ؟

— من حقك أن تسمعيها .. فقد ذكرت بطلتها اسم المرحومة السيدة (فيرلى) بلهجة الاحترام والعرفان بالجميل !

— ذكرت اسم أمى ؟.. أنك تثير اهتمامى ، فهل لك أن تمضى فى سرد قصتك ؟

وقص عليها (هارترايت) ظروف لقائه بذات الثوب الأبيض . وسرد ما قالته له عن السيدة (فيرلى) ودار (ليمريدج) ، حرفًا حرفًا .. وكانت عينا الآنسة (هالكومب) البراقتان الرصينتان تتطلعان إلى عينيه بلهفة وقد بدا أنها تماثله حيرة أمام ذلك اللغز !.. وما عتمت أن سألته :

— أواثق أنت من نص هذه الكلمات التى أشارت بها إلى أمى ؟

— كل الثقة !.. وأيًّا كانت تلك المرأة فقد فهمت منها أنها كانت يومًا فى مدرسة بقرية (ليمريدج) ، وأنها قد عوملت بعطف كبير من السيدة

(فيرلى) .. وهى تعلم أن السيدة (فيرلى) وزوجها قد ماتا ، فضلاً عن أنها تحدثت عن الآنسة (فيرلى) كما لو كانت كل منهما قد عرفت الأخرى منذ الطفولة ..

ـــ هذا عجيب جدًّا !.. يجب أن نجلو غوامض هذه المسألة فعلاً بأية وسيلة !.. ويحسن بك أن لا تذكر شيئًا عنها الآن سواء لمستر (فيرلى) أو لأختى !.. إنها ولا شك يجهلان هذه المرأة ، لكنهما مرهفا الأعصاب ولن يزيدهما النبأ إلا انزعاجًا .. أما أنا فكلى فضول متقد .. لقد أسست أمى فعلًا مدرسة القرية حين جاءت إلى هنا عقب زواجها الثانى ، واهتمت بها اهتمامًا كبيرًا . وعندى مجموعة ضخمة من خطاباتها المرسلة إلى زوجها مستر (فيرلى) أثناء فترات غيابه المتكرر فى لندن .. وقد أستبين خلالها شيئًا .

وهنا قطع عليهما حديثهما دخول خادم يحمل رسالة من المستر (فيرلى) بأنه يسر برؤية مستر (هارترايت) بمجرد انتهائه من تناول الإفطار .. فنهض الشاب وتبع الخادم صاعدين سلمًا أفضى بهما إلى ممر سارا فيه حتى وقفا أمام باب مغطى بكساء من الصوف القاتم الخشن .. ففتح الخادم الباب وقاد (هارترايت) بضع خطوات نحو باب آخر ، ثم فتح هذا الباب الثانى فكشف عن ستارتين من الحرير الأخضر مسدلتين أمامهما ، رفع إحداهما ، ثم نطق فى خفوت ناعم هاتين الكلمتين : « مستر (هارترايت) » .. وتركه ومضى !

وجد (هارترايت) نفسه فى غرفة فسيحة عالية السقف ، تحجب نوافذها مصاريع خشبية فى نفس خضرة ستائر الباب ، ولهذا كان الضوء بداخلها ناعمًا ، مريحًا ، يغمر كل ما فى الحجرة بدرجة متساوية ويحيط برب البيت المضطجع فى مقعده الكبير ذى المسندين .

وبدا من هيئة مستر (فيرلى) أن سنه فوق الخمسين ، وإن نقصت عن الستين .. وكان وجهه الحليق نحيلاً ، شاحبًا ، مرهقًا ، وقدماه صغيرتين كأقدام النساء ، ويداه الرقيقتان البيضاوان يزينهما خاتمان ثمينان ..

وكان لقاء (هارترايت) مع الآنسة (هالكومب) قد هيأه لأن يسر بلقاء كل فرد فى البيت . لكن عطفه انحسر فى قوة عند أول نظرة إلى مستر (فيرلى) .. وابتدره رب الدار بصوت أجش ، واهن :

ـــ لكم يسرنا أن نستقبلك فى (ليمريدج) يا مستر (هارترايت) .. تفضل بالجلوس ، وأرجو ألا تحرك المقعد ، من فضلك .. ففى الحالة التعسة التى عليها أعصابى ، تسبب لى كل حركة من أى نوع أشد الألم ..

وشرع (هارترايت) يقول : « إننى آسف .. »

ولكن الرجل واصل كلامه قائلاً : « معذرة .. هل فى استطاعتك أن تتكلم بمزيد من الرقة ، ففى الحالة التعسة التى عليها أعصابى ، يسبب لى كل صوت مرتفع من أى نوع عذابًا .. احسبك تعذر مريضًا مثلى ؟.. والآن ما رأيك فى المرتب ، هل تجده مرضيًا ؟ »

ــ أعظم الإرضاء يا مستر (فيرلى) ..

ــ يسرنى ذلك .. وماذا بعد ؟

ــ أود أن أعرف يا مستر (فيرلى) أى نوع من تعليم الرسم أتبعه مع الآنستين ؟

ــ آه ، هذا صحيح .. لكنى أسمع ضجيج أطفال أشقياء فى الحديقة ؟

ــ لا أظن يا مستر (فيرلى) .. إننى لا أسمع شيئًا !

ــ أرجو أن نزيح جانبًا من الستارة وتطل على الحديقة .. لا تدع الشمس تقع علىّ يا مستر (هارترايت) فإن الضوء أقوى من أن تحتمله عيناى الكليلتان ..

وأطل (هارترايت) ثم قال : إنه لم ير كائنًا ما ، كبيرًا أو صغيرًا .. فقال مستر (فيرلى) .

ــ ألف شكر !.. أحسب الوهم قد صور لى ذلك .. ليس فى الدار أطفال والحمد لله ، ولكن الخدم يشجعون أطفال القرية على الحضور .. كم أتمنى لو تغير تكوين الأطفال يا مستر (هارترايت) ، فإن غرض الطبيعة الأوحد ــ على ما يبدو لى ــ هو أن تجعلهم أدوات لإنتاج الضجيج الذى لا ينقطع .. ولكن ، أين بلغنا فى حديثنا ؟

ــ كنا نتحدث عن تعليم الآنستين يا مستر (فيرلى) ..

ــ آه ، نعم .. ليتنى كنت من القوة بحيث أشرف على الأمر بنفسى ، ولكنى لا أستطيع .. على الآنستين أن تبتّا وتقررا بنفسيهما كل شىء ..

هذا جل ما فى الأمر .. ما أمتع أن يفرغ المرء من تدبير أعماله !.. إننى من المرض بحيث أخشى ألا أستمتع كثيرًا بصحبتك فى أثناء مقامك فى (ليمريدج) .. هل لك أن تتكرم فتحرص على أن لا تدع الأبواب تصطفق ، وأن تسدل الستار برفق ؟.. أرجوك ، فإن أضأل ضجيج ينساب فى كيانى كالسكين .. شكرًا لك .. وسعدت صباحًا !

وما أن أسدل الستاران ، وأغلق البابان خلف (هارترايت) ، حتى أرسل هذا زفرة ارتياح طويلة أحس لها بمتعة ، كسباح عاد إلى سطح الماء بعد أن غاص إلى عمق بعيد !.. وقرر أن لا يتجه بخطاه مرة أخرى صوب الحجرات التى يشغلها رب الدار ، ما لم يدع إليها ثانية .. وهو أمر خاله بعيد الاحتمال !

* * *

٣ ــ خطاب امرأة ميتة

هبطت (لورا فيرلى) من حجرتها ساعة تناول الغداء ، وأن (هارترايت) ليستطيع ــ إلى آخر حياته ــ أن يذكر دون عناء صورتها إذ تبدّت له للمرة الأولى فى ذلك الصباح من شهر سبتمبر : فتاة ناصعة البياض ، رقيقة ، فى ثوب أنيق خفيف ، ولها شعر بنى فاتح ، وعينان زرقاوان لطيفتان .. عينان جميلتان فى اللون ، جميلتان فى الشكل ، وجميلتان ــ قبل كل شىء ــ فى الصدق الصافى الذى كان يكمن فى أعمق أغوارهما .. وذهل (هارترايت) وهو ينظر إليها ، وانتابه شعور غريب بأنه قد رآها من قبل !.. وإذ ذاك قالت الآنسة (هالكومب) مشيرة إلى دفتر الرسم الذى فى يد (لورا) :

ــ انظر يا مستر (هارترايت) ، لا شك أنك ستعترف بأن التلميذة المثالية لك قد وجدت أخيرًا .. ففى اللحظة التى سمعت فيها بوجودك فى البيت حملت دفترها الخاص بالرسم ، وتاقت إلى البدء فى الدرس !

فقالت الآنسة (فيرلى) ضاحكة : « إلا ينبغى لى أن أدعى لنفسى غير الحقيقة ، إننى وإن كنت مشغوفة بالرسم إلا أننى أدرك مبلغ جهلى فيه ، حتى إننى لخائفة ، أكثر منى مشوقة إلى البدء فى الدراسة ..

فقالت الآنسة (هالكومب) معلقة : « سواء أكنت مجيدة أم مسيئة ، أم غير مكترثة ، فإن ماترسمه التلميذة ينبغى أن يتعرض لفحص الأستاذ وحكمه ..

وخرجت التلميذتان وأستاذهما بعد الظهر فى العربة ، فاختير منظر لترسمه الفتاتان ، وكان (هارترايت) يلقى عليهما نصائحه بصدد استخدام القلم ومزج الألوان .. لكن أبسط تغيير فى تعبير عينى الآنسة (فيرلى) كان يستأثر من اهتمامه بأكثر مما ينال عمله !

وعند عودتهم إلى الدار افترقوا ، ليرتدوا ثياب العشاء .. فلما التقى (هارترايت) بالفتاتين مرة ثانية ذهل ، إذ كانت الآنسة (هالكومب) فى ثياب باذخة ، بينما كان ثوب الآنسة (فيرلى) الأبيض بسيطًا ، يكاد ينم عن الفقر ! وحين عرف الشاب المزيد عن خلق الآنسة (فيرلى) تبين أن هذا الفارق كان يرجع إلى كرهها لأن تعرض ثراءها إلى جانب فقر أختها غير الشقيقة !.. وبعد العشاء جلست الآنسة (فيرلى) إلى البيانو ، فتبعها (هارترايت) إلى مقعد مجاور للمعزف .. بينما انزوت (هالكومب) فى ركن قصى تنبش خطابات أمها على أضواء الغروب الهادئة ..

واستمرت الموسيقى نصف ساعة ، حتى خبا نور النهار وأضيئت الشموع .. وعندئذ اجتذب جمال ضوء القمر فى الشرفة الآنسة (فيرلى) إلى الخارج .. ولم يلبث أن قطع حبل الصمت صوت الآنسة (هالكومب) ، خفيضًا مغايرًا لنبرته الطبيعية الممتلئة حيوية : « مستر (هارترايت) .. هل لك أن تأتى إلى هنا لحظة ؟ » .

وكانت قد انتقت من الخطابات المبعثرة فى حجرها واحدًا قربته من ضوء الشمعة ، فاتخذ (هارترايت) مقعدًا إلى جانبها يستطيع منه أن يرى

خلال النافذة المطلة على الشرفة ــ الآنسة (فيرلى) وهى تذرع الشرفة جيئة وذهابًا ..

وقالت الآنسة (هالكومب) : « أريد أن تصغى إلى كى أقرأ لك الفقرات الختامية فى هذا الخطاب ، إذ يبدو أنها تلقى بعض الضوء على مغامرتك فى ذلك الطريق إلى لندن .. والخطاب موجه من أمى إلى زوجها الثانى مستر (فيرلى) ، وقد كتب منذ أحد عشر عامًا . فى ذلك الوقت كان مستر (فيرلى) وزوجته وأختى (لورا) قد قضوا عدة سنوات يقطنون فى هذا البيت ، بينما كنت أنا بعيدة عنهم أتم دراستى فى باريس .. »

وشرعت الفتاة تتلو فقرات الخطاب : « سوف تمل يا عزيزى (فيليب) حديثى الذى لا ينقطع عن مدرستى وتلامذتى .. لكن عندى فى هذه المرة نبأ ظريفًا حقًا يستحق أن أخبرك به . عن تلميذة جديدة . أنت تعرف طبعًا السيدة (كيمب) العجوز صاحبة حانوت القرية .. إنها تموت الآن موتًا بطيئًا بعد أن قضت سنوات مريضة ، وفى الأسبوع الماضى وصلت أختها ــ وهى القريبة الوحيدة الباقية لها على قيد الحياة ــ كى تعنى بها ، وقد جاءت هذه الأخت ــ وتدعى مسز (كاثريك) ــ من هامبشاير .. وهى امرأة وقور حسنة المسلك ، أهل للاحترام ، لكنها تتحفظ فى أمورها الخاصة إلى حد الكتمان ، ويلوح من سيمائها أنها تخفى سرًا ما . وقد أحضرت معها ابنتها ، جاءتنى منذ أربعة أيام ، لتسأل عما إذا كان للبنية (آن) أن تحظى بالالتحاق بمدرستى أثناء إقامة أمها هنا .. وكانت الطفلة معها ، صغيرة ظريفة فى العاشرة من عمرها ، أى أنها تكبر عزيزتنا (لورا) بعام فقط .. »

ومرت (لورا) أمامهما فى الشرفة حين انبعثت العبارة الأخيرة من بين شفتى القارئة ، وكانت تغمغم بصوت خافت بأحد الألحان التى عزفتها على البيانو فى أول السهرة .. فتريثت الآنسة (هالكومب) حتى ابتعدت (لورا) عن بصريهما ، ثم استأنفت تلاوة الخطاب : « وقد استجبت لرجاء الأم على الفور ، وقبلت الصبية فى المدرسة فى اليوم ذاته ، وقد شعرت باهتمام كبير يا (فيليب) نحو تلميذتى الجديدة لسبب أستبقيه لأفاجئك به فى نهاية الخطاب .. فالواقع أن ما حدثتنى به الأم عن الصبية كان من القلة بالقدر الذى حدثتنى به عن نفسها ، على أننى تبينت أن عقل الصغيرة المسكينة لم يبلغ من النمو ما ينبغى فى مثل سنها !.. وقد عرضتها على الطبيب فكان رأيه أنها سوف تعوض هذا القصور والعجز فيما بعد ، لكنها ــ كما قال ــ تحتاج إلى عناية خاصة بتربيتها وتنشئتها فى المدرسة ؛ نظرًا لبطئها غير العادى فى استيعاب الأفكار ، مما يدل على أنها تتشبث بها بقوة غير عادية بمجرد نفادها إلى ذهنها !.. ومع أن ملابسها نظيفة إلا أنها قبيحة الألوان . ومن ثمَّ عملت أمس على تعديل بعض الثياب البيضاء والقبعات القديمة التى كانت لعزيزتنا (لورا) ، لإهدائها إليها . وقد أوضحت لها أن البنات فى مثل سنها يظهرن فى الثياب البيضاء أنظف وأبهى منهن فى سواها ، فبدت حائرة هنيهة ثم تورد وجهها ولاح أنها فهمت .. وفجأة قبضت بيدها الصغيرة على يدى ، ثم قبلتها وقالت : « سأرتدى دائمًا ثيابًا بيضاء ما حييت لأن هذا سيساعدنى على تذكرك وعلى أن أشعر حين أرحل ولا أعود أراك بأننى لا أزال أرضيك ..! » .

وكفت الآنسة (هالكومب) عن القراءة ثم رفعت بصرها إلى معلمها وسألته :

ـــ هل بدت المرأة التى قابلتها فى مقتبل العمر ، أى فى نحو الحادية والعشرين من عمرها ؟

ـــ نعم يا آنسة (هالكومب) ، كانت فى مثل هذه السن !

ـــ وكانت ترتدى ثيابًا كلها بيضاء ، بحيث أثارت عجبك ؟

ـــ أجل .. كلها بيضاء !

وبينما كانت الكلمات تبرح شفتيه ظهرت الآنسة (فيرلى) للمرة الثانية فى الشرفة .. وبدلاً من أن تتابع سيرها ، وقفت وظهرها إليهما تطل على الحديقة .. فتعلقت عينا (هارترايت) بثوبها الأبيض ، واستولى عليه شعور غريب لم يعرف له كنهًا !.. بينما استطردت الآنسة (هالكومب) قائلة له : « بياض شامل ! إنه لعجيب أمر ذلك الثوب الأبيض الذى كانت ترتديه المرأة التى قابلتها ، والأثواب البيضاء التى أوحت إلى تلميذة أمى بذلك الجواب .. لعل الطبيب كان مخطئًا . لعلها لم تشف من ضعفها العقلى ، وبقى ذلك الشعور القديم الذى انتابها فى صباها نحو أمى عالقًا بنفسها بعد أن كبرت وصارت امرأة !.. ولكن اصغ إلى هذه العبارات الأخيرة من الخطاب ، فإنى أعتقد أنها ستدهشك ! » .

ثم عادت (هالكومب) إلى القراءة : « والآن يا حبيبى ، وقد بلغت ذيل الورقة التى أكتب عليها خطابى أفاجئك بالسبب الحقيقى ـــ المثير للدهشة ـــ لإعجابى وشغفى بتلك الصبية أن (آن كاثريك) .. فعلى الرغم

من أنها يا عزيزى (فيليب) لم تؤت نصف جمال ابنتنا (لورا) إلا أنها تكاد تكون ـــ بفعل مصادفة من مصادفات التشابه العارض الخارقة للطبيعة ـــ صورة طبق الأصل منها : فى شعرها .. وبشرتها .. ولون عينيها .. وشكل وجهها ! » .

فقفز (هارترايت) من مقعده ، إذ انتابه فى هذه اللحظة نفس الشعور الذى سرى فى كيانه حين مست يد ذات الثوب الأبيض كتفه فى الطريق الموحش ، وأدرك الشاب لماذا شعر حين وقع بصره على الآنسة (فيرلى) لأول مرة ، بأنه رآها من قبل !

وكانت الآنسة (فيرلى) واقفة أمامه فى الشرفة .. كائن أبيض ، وحيد فى ضوء القمر ، صورة حية من ذات الثوب الأبيض .. بحركاتها ، واستدارة رأسها ، وبشرتها ، وشكل وجهها !.. ولم تلبث الآنسة (هالكومب) أن قالت للشاب :

ـــ ألا ترى أن أمى كانت على حق فى هذه الملاحظة التى أبدتها منذ حوالى أحد عشر عامًا ؟

ـــ نعم أرى ذلك ، وأقولها على الرغم منى ، فإن ارتباط المرأة الحائرة العديمة النصير ، بالآنسة (فيرلى) ـــ ولو بمجرد تشابه عارض ـــ يلقى ظلا على مستقبلها ..

ـــ صه ! ها هى آتية .. لا تقل شيئًا فى وجودها .. ليكن هذا الأمر سرًا مصونًا بينك وبينى !

* * *

٤ ـــ ذات الثوب الأبيض .. مرة أخرى !

انقضى الصيف والخريف والآنسة (هالكومب) و (هارترايت) بكتمان سرهما . واستطاعت الآنسة (هالكومب) فى أول فرصة مأمونة أن تستدرج فى حذر أختها غير الشقيقة إلى الحديث عن أمهما ، والأيام الخوالى ، وعن (آن كاثريك) .. غير أن ذكريات الآنسة (فيرلى) عن تلميذة أمها كانت باهتة إلى حد كبير ..

ولم يساعد تنقيب الآنسة (هالكومب) فى البقية الباقية التى لم تكن قرأتها من خطابات أمها ، على إجلاء شىء من الشكوك التى كانت تحيرها . كانا قد تبينا مدى العلاقة بين التعسة التى التقى بها (هارترايت) ليلاً ، وبين (آن كاثريك) .. وعند هذا الحد انتهت اكتشافاتهما على ضوء ما كانا يعرفانه إذ ذاك ..

وفى نوفمبر ـــ الشهر الثالث لإقامته فى (كمبرلاند) ـــ اكتشف (هارترايت) أنه وقع فى هوى (لورا فيرلى) !.. وكانت مهنته قد يسرت له منذ بضعة أعوام أن يكون على اتصال وثيق بالفتيات ـــ من مختلف الأعمار ـــ فراض نفسه على أن يترك كل المشاعر الطبيعية فى مثل سنه خارج المكان الذى يجتمع فيه بتلميذته .. لكن كل حيطته وتجاربه خذلته فيما يختص بالآنسة (فيرلى) ، وإن أدرك حماقة حبه لها . ولا سيما وهو مدرس رسم فقير وهى فتاة ذات ثراء !

وأنقذته الآنسة (هالكومب) من موقفه المحير ، إذ رأت بعينيها الثاقبتين كل شىء .. ومن شفتيها عرف الحقيقة المريرة ، التى لم يكن منها بد ، والتى لم يكن يتوقعها .. إذ قالت له ذات صباح : « أريد أن أقول لك كلمة على انفراد ، فخذ قبعتك وتعال معى إلى الحديقة ، حيث لا ينتظر أن يزعجنا أحد فى هذه الساعة .. »

وسارا فى الحديقة حتى وصلا إلى البيت الصيفى فى نهايتها فدخلاه ، وما كادا يجلسان حتى ابتدرته قائلة : « مستر (هارترايت) .. أبدأ كلامى بالاعتراف لك فى صراحة بأنى صرت أحس نحوك بشعور قوى من الود . وبوصفى صديقة لك سأبادر إلى مكاشفتك ـــ بلهجتى الصريحة ـــ بأنى قد وقفت على سرك دون معونة من أحد ! لقد تركت نفسك تقع فى غرام أختى (لورا) دون تدبر أو روية .. وأنا لا ألومك ، بل أرثى لك إذ فتحت قلبك لعاطفة لا أمل منها ، وإنه ليسعدنى أن العائق لا يتعلق بفوارق اجتماعية .. على أنك ينبغى أن تبرح دار (ليمريدج) قبل أن تحدث أضرار أخرى ، لا لأنك مدرس رسم .. »

وتريثت لحظة ، ثم أدارت وجهها نحوه ومدت يدها عبر المنضدة ووضعتها على ذراعه فى حزم .. وما عتمت أن أردفت قائلة : « .. لا لأنك مدرس رسم ، وإنما لأن (لورا) مخطوبة ! » .

ونفذت الكلمة الأخيرة إلى قلب (هارترايت) كأنها رصاصة قاتلة !.. وأحس فجأة بهواء الشتاء القارس الذى كان يعثر أوراق الشجر الجافة

الميتة تحت أقدامهما ، يسفعه بألسنته الباردة ، وكأنما كانت آماله المجنونة بذورها أوراقًا جافة ميتة !.. وهل هى غير مجرد آمال ؟ إن الفتاة ، سواء كانت مخطوبة أو غير مخطوبة . بعيدة عن متناوله فى الحالين !

واستطردت الآنسة (هالكومب) : « لقد أظهرت لى أختى — دون وعى منها — أنها تزداد شغفًا بك .. ومن ثمَّ ينبغى عليك أن تتركنا من أجلها — لا من أجل نفسك فحسب — فإن وجودك يجعلها حزينة مكتئبة ، ولا سيما وأن خطبتها لم تظفر منها حتى اليوم بأى ترحيب .. فهى خطبة مصلحة وشرف ، لا خطبة حب . لقد كان والدها هو الذى رغب فى هذه الزيجة ، وحين حضرته الوفاة — منذ نحو عامين — وعدته هى بتحقيق أمنيته ! » .

فقال (هارترايت) : « سأذهب .. سأفعل كل ما تشيرين به على !.. والآن وقد اطمأن قلبك إلى امتثالى لرغباتك ، هل لى أن أسألك : من يكون خطيب الآنسة (فيرلى) ؟ »

فأجابته : « إنه سيد ذو ضيعة كبيرة فى (هامبشاير) » .

هامبشاير ؟!.. موطن (آن كاثرين) ؟.. أترى الظروف تقودنا مرة أخرى إلى حديث ذات الثوب الأبيض ؟!

وسألها : « وما اسم ذلك الثرى ؟ »

— سير (برسيفال جلايد) .

وتذكر (هارترايت) سؤال (آن كاثريك) .. ذلك السؤال المريب

عمن يعرفهم من ذوى المكانة وحملة لقب (سير) .. فسأل محدثته فى انفعال لم يستطع إخفاءه : « هل يحمل لقب (سير) ؟ » .

فنظرت إليه الآنسة (هالكومب) فى فضول ، ثم أجابته فى برود ظاهر : « نعم ، هو سير ولا شك » .. وعلى أثر ذلك نهضت وعادت وحدها إلى داخل البيت ، بينما بقى هو فى البيت الصيفى وحيدًا مع أفكاره : إذن كانت (لورا فيرلى) مخطوبة ، وزوجها المقبل يدعى سير (برسيفال جلايد) .. رجل من ذوى الألقاب ويملك ضيعة فى (هامبشاير) !.. إن فى إنجلترا مئات من حملة الألقاب ، وفى (هامبشاير) عشرات من أصحاب الضياع . وليس ثمة ما يحمل على أن يربط اسم سير (برسيفال جلايد) بالأسئلة المريبة التى ألقتها عليه ذات الثوب الأبيض !.. لكنه برغم ذلك ربط بينهما فى فكره !.. وأثر حديث الآنسة (هالكومب) فيه تأثيرًا غريبًا ، وانتابه شعور قوى بأن خطرًا خفيًا يكمن لهم جميعًا فى ظلام المستقبل .. خطرًا لا يمكن التكهن به !

وقطع عليه تسلسل أفكاره رجوع الآنسة (هالكومب) فجأة .. وكانت تحمل فى يدها خطابًا ، وقد بدا عليها الغضب والانفعال !.. ولم يقل هو أى كلمة حتى ابتدرته قائلة : « مستر (هارترايت) ، كنت أرجو أن يكون كل حديث مؤلم بيننا قد انتهى ، لكن رجائى لم يتحقق ، فإن هناك يدًا خفية شريرة تعمل لإثارة خوف أختى من زواجها الذى اقترب موعده .. فلقد تلقت خطابًا بغير إمضاء ، يتضمن محاولة آثمة للنيل

من سير (برسيفال جلايد) وتجريحه ، وأنا أدرك أن هذه مسألة عائلية ما كان ينبغى أن أستشيرك فى شأنها ، لكونك الشخص الوحيد هنا الذى يخلص لى النصح ــ فليس مستر (فيرلى) ، بحالته الصحية الراهنة وارتياعه من الصعاب ، بالذى يمكن الركون إليه ..؟ » .

ثم ناولته الخطاب ، فإذا هو يبدأ دون أية ديباجة ، على هذه الصورة :
« هل تؤمنين بالأحلام ؟ أرجو ــ لمصلحتك الخاصة ــ أن تكونى كذلك .. ففى الليلة الماضية رأيت حلمًا يتعلق بك يا آنسة (فيرلى) .. رأيت كأنى أقف فى كنيسة ، وبعد حين أقبل رجل وامرأة ليتزوجا .. وكنت أنت المرأة ، وكنت فى ثوب عرسك الحريرى الأبيض الجميل ، آية فى البهاء والبراءة ، حتى لقد طفر الدمع من عينى ! ــ وكان دمع الإشفاق والرثاء ، لأننى استطعت أن أتغلغل إلى أعمق أعماق قلب الرجل الذى كان معك : كان ظاهره يروق للعين ، وقامته دون المتوسط بقليل . وكان خفيفًا ، نشيطًا ، ذا عزة واعتداد ، فى الخامسة والأربعين من عمره .. وبرغم شحوب وجهه وصلع رأسه . كان ذا عينين بنيتين لامعتين ، وأنفًا مستقيمًا جميلاً .. وكان ينتابه بين حين وآخر سعال جاف ، فإذا رفع يده اليمنى البيضاء إلى فمه لاحت فى ظهرها ندبة حمراء من آثار جرح قديم .. أفليس هذا هو الرجل الذى تعتزمين الزواج منه يا آنسة (فيرلى) ؟

لقد تغلغلت إلى أعمق أعماقه كما ذكرت لك ، فوجدت قلبه فى سواد الليل ، وقد كتبت عليه بحروف حمراء هذه العبارة : « لا يرحم .. لقد

ملأ بالتعاسة حياة الآخرين ، وسوف يعيش ليملأ بالتعاسة حياة هذه المرأة التى تقف إلى جانبه !.. وكان يقف خلفه شيطان يضحك ساخرًا ، كما وقف خلفك ملاك يبكى ..!!

إننى أومن بالأحلام ، فلتؤمنى بها أنت أيضًا يا آنسة (فيرلى) ! أتوسل إليك أن تفعلى .. نقبى فى ماضى هذا الرجل ذى الندبة الحمراء فى يده ، قبل أن تنطقى بالكلمة التى تجعلك زوجته التعسة .. وأنا أبلغك هذا التحذير إكرامًا لأمك ، التى كانت أول وأعز صديقاتى ، بل كانت صديقتى الوحيدة .. » .

وعند هذا الحد انتهى الخطاب الغريب ، دون توقيع !.. فسألت الآنسة (هالكومب) معلمها الشاب عقب فراغه من قراءته : « هل ينبغى أن أتخذ من فورى الخطوات التى فى مقدورى بغية معرفة كاتب الخطاب ؟.. أم يجدر بى أن أنتظر إلى الغد فألجأ إلى مستر (فيرلى) ؟ » .

فقال لها : « ولم لا تلجئين إليه اليوم ؟ » .

قالت الآنسة (هالكومب) : « لست أستطيع أن أوضح لك السبب دون أن أفضى إليك بأشياء لم أر من الضرورى أو المرغوب فيه أن أطلعك عليها فى هذا الصباح ، إن سير (برسيفال جلايد) قادم إلى هنا يوم الاثنين ليحدد تاريخ زواجه ، وقد دعا مستر (فيرلى) ــ بوصفه الوصى على (لورا) ــ محامى أسرتنا مستر (جيلمور) لتدبير شروط عقد زواج أختى ، وسيصل غدًا » .

فقال (هارترايت) : « إذا كان علينا أن نكشف أى شىء فمن الخير ألا نضيع دقيقة واحدة .. كيف تلقت الآنسة (فيرلى) الخطاب ؟ » .

ــ إن امرأة عجوزًا سلمته إلى البستانى ، وقد سألته عنها فأكد لى أنها امرأة غريبة !

ــ إذن ، لنسأل أهل القرية .. ولكن أخبرينى أولاً : هل تنطبق الأوصاف الواردة فى الخطاب على شخص سير (برسيفال جلايد) ؟

ــ تمامًا ، حتى فيما يتصل بتحديد سنه بخمس وأربعين سنة !

فى الخامسة والأربعين ، (ولورا) لم تجاوز الحادية والعشرين ؟!.. كم من رجال فى سنه يتزوجون كل يوم نساء فى سنها ، وكثيرًا ما تكون تلك الزيجات سعيدة .. كان (هارترايت) يعرف ذلك ، ومع ذلك فإن مجرد ذكر سن سير (برسيفال) ، ومقارنته بسن الآنسة (فيرلى) ، زاد من كراهية (هارترايت) له وعدم اطمئنانه إليه !

واستطردت الآنسة (هالكومب) فقالت : « تمامًا .. حتى فيما يتعلق بالندبة الحمراء التى فى ظاهر يده والتى خلفها جرح قديم أصيب به منذ سنوات أثناء رحلة له فى إيطاليا ..! » .

ــ أظن أن أحدًا لم يسمع همسات ضد أخلاقه ؟

ــ أرجو ألا تكون ظالمًا إلى الحد الذى يجعل مثل هذا الخطاب المرذول يؤثر فيك !

وشعر (هارترايت) بالدم يتدافع إلى وجنتيه ، فقد أدرك أن الخطاب

أثر فيه فعلاً !.. بينما واصلت الآنسة (هالكومب) كلامها قائلة : « لست آسفة على أنك سألت هذا السؤال ، لأنه يمكننى من أن أنصف سير (برسيفال) وسمعته الطيبة .. فيما بلغتنى أو بلغت أسرتى همسة واحدة ضده ! » .

* * *

وسارا صامتين صوب القرية ، ولكن استفساراتهما هناك لم تفض إلى جديد ، اللهم إلا أن ثلاثة من القرويين رأوا المرأة العجوز التى أحضرت الخطاب . ولكنهم عجزوا تمامًا عن وصفها ، وعن الاتفاق على الوجهة التى مضت إليها !

واقترح (هارترايت) إذ مرا بمدرسة القرية أن يقوما بتحر أخير ، بسؤال معلم المدرسة .. ودخلا فناء المدرسة ، وفى طريقهما إلى باب المبنى وقفا هنيهة ليطلا على حجرة الدراسة خلال النافذة .. كان المدرس جالسًا على مقعده العالى وقد استقر أمامه تلاميذه على مقاعدهم ، باستثناء تلميذ واحد وقف بمعزل عن الآخرين على كرسى صغير بغير ظهر فى ركن الحجرة .

وكان المعلم يخاطب الصبية قائلاً : « والآن يا أبنائى افهموا ما أقوله لكم .. إذا سمعت كلمة أخرى تقال فى هذه المدرسة عن الأشباح ، فستكون العاقبة وخيمة لكم جميعًا !.. هأنتم جميعًا ترون زميلكم (جاكوب بوستلتويت) واقفًا على المقعد أمامكم . لقد عاقبته ، لا لقوله :

إنه رأى شبحًا ليلة أمس ، وإنما لأنه يصر على زعمه هذا بعد أن أكدت له أن شيئًا من ذلك لا يمكن أن يحدث !.. وإذا لم يفلح شيء معه ، فسأضربه بالعصا حتى يخرج الشبح منه ! » .

وعند هذا دفعت الآنسة (هالكومب) الباب ودخلت .. وابتدرت المعلم متسائلة : « ماذا حدث يا مستر (دمبستر) ؟.. بماذا جرى ؟

فأجابها المعلم : « إن هذا التلميذ الشرير أزعج المدرسة كلها يا آنسة (هالكومب) ، فقد زعم أنه رأى شبحًا مساء أمس ! » .

فالتفتت الآنسة (هالكومب) إلى (جاكوب) وقالت له : « لم لا تسأل المستر (دمبستر) أن يصفح عنك أيها الأحمق ؟ » .

فأجابها الغلام فى إصرار : « ولكنى رأيت الشبح حقًا .. كان فى الفناء المحيط بالكنيسة مرتديًا ثيابًا بيضاء ، وواقفًا بجوار قبر السيدة (فيرلى) ! » .

فعجلت الآنسة (هالكومب) و (هارترايت) بالاستئذان من المدرس .. وقال (هارترايت) إذ بلغا الشارع : « لقد ارتبت بمجرد أن قرأت الخطاب فى أن تكون كاتبته (آن كاثريك) .. والآن صرت واثقًا من الأمر . إن الشبح المزعوم فى فناء الكنيسة لم يكن سوى (آن كاثريك) بعينها !.. لكم يدفعنى الفضول إلى رؤية قبر السيدة (فيرلى) ! » .

فقالت له : « سأريك إياه الآن ، ثم أعود فى الحال إلى البيت ، فليس من الخير أن أترك (لورا) بمفردها وقتًا طويلاً .. لشد ما أفزعها الخطاب الذى تلقته ! » .

وبعد قليل كان (هارترايت) يقف وحده أمام قبر السيدة (فيرلى) الذى كان يعلوه نصب من الرخام على هيئة صليب ، نقش عليه اسم المتوفاة وتاريخ مولدها وموتها ، وكان بياض الصليب مشوبًا بآثار العوامل الجوية ، ومع ذلك فقد استرعت النقوش بصر (هارترايت) فى الحال ، إذ كانت مجردة لدرجة غريبة من أية شائبة من غبار أو مطر .. وانعم الشاب النظر فيها فأيقن أنها قد نظفت حديثًا ! وإذ ذاك اعتزم أن يرقب المكان من مخبأ خفى ، فى المساء .. ولا سيما بعد أن لحظ أن عملية تنظيف النصب لم تتم ، مما كان يوحى بأن الشخص الذى بدأها قد يعود ليتمها !

* * *



٥ ـ لقاء فى ساحة كنيسة ليمريدج

لم يكن ثمة مخلوق بشرى يبدو فى ساحة الكنيسة حين عاد إليها (هارترايت) فاختار لنفسه مكانًا فى ظلال المدخل يستطيع منه أن يرى المقبرة ، وقبر السيدة (فيرلى) ، وهو مختبئ ! وفيما كان ينتظر مرت بذهنه الاتهامات الجريئة التى تضمنها الخطاب الذى كان بلا توقيع ضد سير (برسيفال جلايد) .. لِمَ لا يكون لهذه الاتهامات أساس من الصحة ؟.. ثم ماذا يحدث لو أمكن إثبات صحتها قبل إتمام الزواج ؟

وحاول أن يقنع نفسه بأنه إنما يعمل لمساعدة الآنسة (فيرلى) ، لكنه لم يخدع نفسه ، بل أيقن أنه يتصرف بدافع من حقد لا سلطان له عليه ضد الرجل الذى يزمع الزواج منها !.. وكان ضوء الشمس الغاربة لا يزال فى الأفق حين سمع وقع خطوات تقترب ، وصوتًا يقول : « لا تنزعجى يا عزيزتى بشأن الخطاب ، فلقد أعطيته للبستانى فى أمان ، و لم يتبعنى أحد بعد ذلك ! » .

وبعد لحظة ظهرت امرأتان تتجهان نحو القبر مباشرة : إحداهما تضع وشاحًا على كتفيها ، والأخرى ترتدى معطف سفر طويل ، كحلى اللون ، بدت تحته بضع بوصات من ثوبها .. وتسارعت دقات قلب (هارترايت) فى صدره حين تبين أن لون الثوب كان .. أبيض !

وقالت المرأة الأخرى تحدث صاحبتها : « سأتجول فى المكان أثناء بقائك هنا ، فأنجزى ما تريدين عمله قبل عودتى ، ولنحرص على أن نعود قبل هبوط الظلام » .

ثم انصرفت المرأة على أثر ذلك ، واستطاع (هارترايت) أن يلمح أن وجهها وجه عجوز سمراء بادية الصحة ، لا توحى سيماها بأى خبث !.. فلما اختفت عن ناظريه ، اقترب من المرأة الأخرى التى عند القبر .. وكانت قد أرخت من طيات ثيابها قطعة من القماش ، ورآها تقبل الصليب الأبيض ، ثم تشرع فى تنظيفه .. وبلغ من انهماكها فى عملها أنها لم تنتبه لاقترابه ، حتى صار على قيد خطوات منها .. وعندئذ التفتت متطلعة ، ثم وقفت تواجهه فى ذعر صامت !.. فابتدرها (هارترايت) قائلاً : « لا تخافى ، أعتقد أنك تذكريننى !.. لقد التقينا منذ عهد قريب وساعدتك فى الاهتداء إلى الطريق المؤدى إلى لندن .. لا أحسبك قد نسيت كل ذلك ؟ » .

وعندئذ تنفست المرأة الصعداء ، وزايل الفزع وجهها رويدًا ثم غمغمت : « نعم أذكر ذلك . لقد كنت رقيقًا بالغ اللطف والكرم معى ، ولكن ما الذى أتى بك إلى هنا ؟ » .

ــ ألا تذكرين قولى لك حين التقينا : إننى ذاهب إلى (كمبرلاند) ؟ إننى أقيم منذ ذلك التاريخ فى دار (ليمريدج)

فهتفت وقد أشرق وجهها الشاحب : « فى دار (ليمريدج) ؟.. آه ما أسعدك !

ورأى (هارترايت) وهو يرقبها عن كثب ، مدى التشابه بينها وبين الآنسة (فيرلى) ــ وإن افتقد الوجه المضنى المغضن الذى كان يلوح أمامه جمال بشرة الأخيرة وصفاء عينيها ، وقرمز شفتيها .. ولكن لو قدر للحزن والألم أن يتركا آثارهما على شباب وجه الآنسة (فيرلى) وجماله ، فعندئذ ــ وعندئذ فقط ــ يصير التشابه بينهما كاملاً !

وقال (هارترايت) يسأل المرأة : « كيف جئت إلى هنا ؟ » .

فأجابت وهى تستأنف عملها فى تنظيف النصب : « جئت مع صديقة تخلص لى الحب والمعونة .. أواه ، كم يؤلمنى أن أرى بقعة على قبر السيدة (فيرلى) ، ينبغى أن يظل القبر ناصع البياض كالثلج إكرامًا لذكراها !

فقال لها : « لقد استبد بى القلق عليك بعد أن مضت بك العربة يوم التقينا ! » .

فرفعت عينيها فى عجلة وتوجس وقالت : القلق ؟.. « لماذا ؟ » .

ــ لأن شيئًا عجيبًا حدث بعد افتراقنا .. مر بى رجلان فى عربة وقفت على مقربة منى وسأل أحدهما شرطيًا عما إذا كان قد رآك ، وقال إنك فررت من مصحته !

فقفزت المرأة تبغى الفرار ، كأنما كان مطارداها يجدان فى أثرها !.. فصاح بها (هارترايت) : « قفى !.. اسمعى قصتى إلى نهايتها ، وسترين أنى كنت مماثلًا لك .. كلمة منى كانت كفيلة بأن ترشد الرجلين إلى الطريق الذى

سلكته .. لكننى لم أنطق بهذه الكلمة ، فساعدتك فى فرارك بأن جعلته مأمونًا » .

وبدا أن كلماته استطاعت أن تفرض ببطء أثرها على ذهنها المضطرب ، فنظرت إليه وقد زال من عينيها الخوف وحل مكانه فضول ظاهر . ثم قالت : « ما أحسبك ترى أننى يجب أن أعود إلى المصحة ، أليس كذلك ؟ » .

فأجابها مطمئنًا : « بلى .. بالتأكيد ، بل إنى مسرور لأنك فررت منه ، ومسرور لأنى ساعدتك .. هل كانت المصحة بعيدة عن المكان الذى التقينا فيه ؟ » .

فذكرت اسم المصحة ، التى كانت من المصحات « الخاصة » للأمراض العقلية ، وكانت قريبة جدًا من المكان الذى تقابلا فيه !. فسألها :

ــ هل وجدت فى لندن صديقتك التى حدثتنى عنها ؟

ــ نعم ، إن السيدة (كليمنتس) صديقة حميمة لى ، وقد كانت جارة لنا يومًا فى (هامبشاير) ، وكانت تحبنى ولطالما اعتنت بأمرى حين كنت صغيرة ..

ــ ألم يكن لك أب أو أم يعنيان بأمرك ؟

ــ أب ؟ إنى لم أره قط .. لقد مات فيما أحسب !

ــ وأمك ؟

ــ لست على صلة طيبة بها ، كل منا مصدر متاعب ومخاوف للآخرين !

فخطر بذهن (هارترايت) أن أمها ربما كانت الشخص الذى أودعها

المصحة .. بينما استطردت هى فقالت : « لقد جئت هنا مع السيدة (كلمنتس) ، ونحن نقيم فى مزرعة (تود) على بعد ثلاثة أميال من القرية .. وهذا هو المكان الوحيد الذى أبغى زيارته .. يا محبوبتى السيدة (فيرلى) !.. هل ابنتها بخير ، سعيدة ؟ » .

فأجاب (هارترايت) على الفور قائلاً : « لم تكن الآنسة (فيرلى) بخير تام ، ولا سعيدة جدًا فى هذا الصباح .. فقد تسلمت خطابك ! » .

وحولتها كلماته إلى تمثال من حجر ، فسقطت من يدها قطعة القماش التى كانت ممسكة بها ، وانفرجت شفتاها ذهولاً .. ثم قالت فى إعياء : « كيف علمت بهذا ؟!.. إنى لم أكتب لها أى خطاب ! ولست أعرف شيئًا عنه .. » .

قال (هارترايت) : « بل أنت التى كتبته ، وتعرفين كل شىء عنه .. وكان من الخطأ أن أرسلت هذا الخطاب ، وكان من الخطأ أن تروعى الآنسة (فيرلى) على هذا النحو .. وإنما كان خليقًا بك ـــ إذا كنت تعرفين شيئًا صحيحًا من الضرورى أن تسمعه ـــ أن تتوجهى بنفسك إلى دار (ليمريدج) وتقوليه لها بلسانك وجهًا لوجه ! » .

فغمغمت المرأة كأنما تخاطب القبر الحجرى : « آه لو كان فى استطاعتى أن أموت وأختفى معك كى أستريح !.. أنت تعلمين كم أحب ابنتك من أجلك ، أواه يا مسز (فيرلى) .. يا مسز (فيرلى) .. خبرينى كيف أنقذها ؟ » .

وقبلت شفتاها حجر القبر ، بينما كانت يداها تربتان عليه فى انفعال !..

فخاطبها (هارترايت) فى رفق : « هدئى من روعك .. وإلا خامرنى الاعتقاد بأن الشخص الذى وضعك فى المصحة كان على حق » .

وماتت بقية كلماته على شفتيه ، فقد اعتراها تغير غريب .. تبدل وجهها الذى كان ينطق بالضعف والتردد فغامت عليه فجأة سحابة قائمة تنم عن البغضاء والخوف . ثم تناولت قطعة القماش التى سقطت منها فعصرتها بين يديها كما لو كانت كائنًا حيًا تود أن تقتله !.. وهمست له : « تحدث فى موضوع آخر ، فلسوف أفقد سلطانى على نفسى إذا مضيت فى هذا الحديث ! » .

فقال لها : « لست أريد أن أكدرك .. كل ما أبغيه أن تقابلى الآنسة (فيرلى) غدًا وتصارحيها بالحقيقة فى شأن ذلك الخطاب ! » .

فقالت : ماذا ؟.. الآنسة (فيرلى) ؟.. (فيرلى) ؟. (فيرلى) ؟

وكأنما كان لنطقها بهذا الاسم الحبيب تأثيرًا أدخل عليها السكينة ، فاسترد وجهها رقته ، واستعاد شكله الطبيعى .. وعندئذ استأنف (هارترايت) حديثه : « ليس لك أن تخافى الآنسة (فيرلى) أو تخشى التورط فى شىء من المتاعب .. إنك لم تذكرى فى خطابك اسمًا على وجه التحديد . لكن الشخص الذى عنيته بما كتبت سيفد على دار (ليمريدج) يوم الاثنين .. إن الآنسة (فيرلى) تعلم أنك إنما كتبت عن سير (برسيفال جلايد) .. » .

وما كاد (هارترايت) ينطق بهذا الاسم حتى بدرت منها صرخة دوت

فى فناء المقبرة وجعلت قلبه يقفز فى صدره فزعًا .. فإن الصرخة التى انطلقت عند ذكر الاسم ، ونظرة الكراهية والخوف التى أعقبتها توًا ، قد أفصحتا له عن كل شىء .. فلم يبق ثمة شك يراوده فى أنه لم يكن لأمها ذنب فى الزج بها فى مصحة الأمراض العقلية .. وإنما كان الذى حبسها هناك رجل ، وهذا الرجل هو سير (برسيفال جلايد) !

وبلغت الصرخة أذنين آخرين عدا أذنى (هارترايت) ، فلم تنقض لحظة حتى أقبلت مسرعة المرأة التى دعتها باسم السيدة (كليمنتس) .. وواجهت (هارترايت) فى تحفز صائحة : « من أنت ؟ كيف تجرؤ على إفزاع امرأة تعسة مثل هذه ؟.. » ثم أحاطت (آن كاثريك) بذراعها وقالت تطمئنها : « ماذا حدث يا عزيزتى ؟ ماذا فعل بك ؟ » .

فأجابت المسكينة : « لا شىء !.. لكننا يجب أن ننصرف حالاً .. إنه قادم إلى هنا ! » .

فقال (هارترايت) يخاطب السيدة (كليمنتس) : « لست أستحق نظرتك الغاضبة .. فهذه ليست أول مرة أقابل فيها (آن كاثريك) .. اسأليها بنفسك ، وسوف تنبئك بأنى لا يمكن أن أبغى شرًا بها أو بأية امرأة غيرها » .

فقالت (آن كاثريك) : « نعم .. نعم .. لقد كان لطيفًا معى يومًا ، وساعدنى فى الطريق إلى لندن .. فلنذهب ولا نضع وقتًا ، فإنه سيأتى يوم الاثنين ! » .

وقالت له السيدة (كليمنتس) : « آسفة يا سيدى إذ خاطبتك بتلك اللهجة الخشنة ، ولكنك ولابد تقدر أن الظواهر تدعو للارتياب فى أى غريب .. تعالى يا عزيزتى ، هيا بنا الآن » .

وإذا تأبطت (آن كاثريك) ذراع صديقتها تأهبًا للذهاب ، قال (هارترايت) : « حاولى أن تغفرى لى » .. فأجابته : « سأحاول .. لكنك تعرف الكثير ، وأخشى أنك ستصبح من الآن مبعث رعب دائم لى ! » .

وقالت السيدة (كليمنتس) : « طاب مساؤك يا سيدى ، أنا أعلم أنه لم تكن لك يد فى الأمر ، ولكنى كنت أود لو أنك أفزعتنى أنا بدلاً منها ! » .

وذهبتا .. ووقف (هارترايت) يراقبهما حتى غادرتا فناء المقبرة ثم اختفيتا عن نظره فى طريق القرية .

* * *

وبعد نصف ساعة كان (هارترايت) فى البيت ، وقد صارح الآنسة (هالكومب) بكل ما حدث !.. ثم عقب على ذلك بقوله : « ليس فى ذهنى أى شك فى أن سير (برسيفال جلايد) هو الذى أودع (آن كاثريك) مصحة خاصة تتطلب نفقات لا قبل لأى فقير يدفعها .. واللغز الوحيد الباقى هو معرفة الباعث له على ذلك ! » .

فأجابته الآنسة (هالكومب) : سوف أذهب غدًا إلى مزرعة (تود) .

— أخشى أن تجدى أنها قد غادرتها ، فلشد ما أفزعها نبأ قدوم سير (برسيفال جلايد) !

— فى هذه الحالة سوف استفسر عن الأمر من سير (برسيفال) نفسه ، فإن مستقبل أختى هو أعز ما أحفل به فى الحياة ، ويجب أن يبدد شكوكى .. وإلا فلن تكون (لورا) زوجة له أبدًا !

فتنهد (هارترايت) قائلاً : « لم يبق لى ما أفعله .. وسأسافر غدًا (الأحد) بعد الإفطار ، على أننى ينبغى أن أستأذن مستر (فيرلى) .. وإن كنت سأرحل سواء أذن لى أم لم يأذن ! » .

ثم أوفد خادمًا إلى مستر (فيرلى) برسالة يستأذنه فيها فى أن يراه لأمر يتصل بعمله ، فعاد الخادم بجواب لم يكن يتوقعه ، إذ اعتذر مستر (فيرلى) بأن حالته الصحية تحول بينه وبين رؤية مستر (هارترايت) فى ذلك المساء !.. وكان قد تلقى رسائل من هذا القبيل فى فترات عديدة خلال الشهور الثلاثة التى أقامها فى البيت ، بل إن مستر (فيرلى) لم يكن يومًا — طيلة هذه المدة — فى حالة طيبة تسمح له بأن يلقاه مرة ثانية .. إزاء ذلك كتب خطابًا ذكر فيه اضطراره إلى السفر ، فى أسلوب مهذب ، واضح ، مقتضب بقدر ما استطاع ، دون إيراد لأية أسباب !

ومرت ساعة تقريبًا قبل أن يتسلم الرد التالى :

« تحيات مستر (فيرلى) إلى مستر (هارترايت) ، إن مستر (فيرلى) أكثر دهشة واستياء مما يستطيع أن يذكر — فى حالته الصحية الراهنة —

بسبب ما طلبه مستر (هارترايت) وفى رأى مستر (فيرلى) أن طلب مستر (هارترايت) السماح له بفسخ عقده لا يمكن أن تبرره ضرورة ، مهما كانت .. وبما أن مستر (فيرلى) يحتاج إلى راحة ذهنية وبدنية تامة ، لذلك فهو لن يدع مستر (هارترايت) يعكر هذه الراحة بالبقاء فى البيت على الرغم من إرادته . وبناء على هذا ، ولمجرد صون راحته وسكينته ، فإن مستر (فيرلى) ينبئ مستر (هارترايت) بأن له أن يرحل .. » .

ابتسم (هارترايت) فى سره وهو يطوى الخطاب .. ولو أنه كان فى ظروف أخرى لغضب واعتبره إهانة ، لكنه فى الظرف الراهن كان مفعم القلب بالشقاء لفراقه (لورا فيرلى) ، بحيث لم يعد فى وسع شىء آخر أن يؤلمه !

وقبيل الساعة السابعة والنصف من صباح اليوم التالى هبط من غرفته ، فإذا به يجد الآنستين (هالكومب) و (فيرلى) تنتظرانه حول مائدة الإفطار ، وجلس ثلاثتهم يحاولون أن يأكلوا ، ويحاولون أن يتكلموا ، فى ذلك الجو البارد ، وضوء الشتاء المعتم .. وأخيرًا أقبل خادم يخبر (هارترايت) بأن العربة التى تقرر أن تقله إلى المحطة تقف بالباب .. فنهض وبسط يده إلى الآنسة (هالكومب) قائلاً : « وداعا .. وأرجو أن تكتبى إلى لتوافينى بتطور الأمور .. » فأجابته : « من حقك أن تعلم .. وإذا اقتضى الأمر يومًا فسوف أركن إليك كصديق لى ولها ، وكأخ لى ولها .. وداعًا ، وليباركك الله ! » .

والتفت الشاب إلى (لورا) قائلاً : « وداعًا يا آنسة (فيرلى) .. إن طريق كل منا فى الحياة بعيد كل البعد عن طريق الآخر .. ولكن إذا جاء وقت تستطيع فيه كل جهودى أن تتيح لك لحظة واحدة من السعادة ، أو تجنبك لحظة من الأسى .. فهل لك أن تذكرى يومئذ معلم الرسم المسكين الذى علمك ؟ » .

وتجمعت الدموع فى مآقى الفتاة .. فتناول يدها ، واستطرد قائلاً : « إن لك أصدقاء كثيرين يحبونك يا آنسة (فيرلى) .. ومستقبلك السعيد هو أعز هدف لكثير من الآمال .. فهل لى أن أقول فى لحظة الوداع هذه إنه أعز هدف لآمالى أنا أيضًا ؟ » .

فانحدرت الدموع الغزيرة على خديها وقالت فى إعياء : « بحق السماء اتركنى ! » .

كانت الكلمات اعترافًا من قلبها بسره !.. ولم يكن من حق (هارترايت) أن يسمعها ، ولا أن يجيب عنها .. فترك يدها بغير أن ينبس بكلمة أخرى ، وإنما رمقها بنظرة وداع أخيرة ..

ثم أغلق الباب دونها .

وفغر أخدود الفراق الهائل السحيق فاه بينهما !

* * *

٦ — اتفاقية الزواج

وصل مستر (جيلمور) — محامى الأسرة — إلى دار (ليمريدج) بعد ظهر اليوم نفسه ، وكان على النقيض تمامًا من الصورة المألوفة لمحامى الأسرة القديم .. فقد كان شعره الأبيض أطول من المعتاد ومصففًا بعناية ، وثيابه جميلة أنيقة ، ورباط عنقه نظيفًا !

واستقبلته الآنسة (هالكومب) محيية — فى حين لزمت (لورا) مخدعها بعد الوداع المؤثر فى الصباح ! — وأنبأته الأولى عن الخطاب ، وعن لقاء (هارترايت) و (آن كاثريك) .. ثم أردفت : « وقد توجهت اليوم إلى مزرعة (تود) ، بعد رحيل مستر (هارترايت) ، فعلمت أن (آن كاثريك) والمرأة التى ترافقها قد رحلتا ، إلى حيث لا يعرف أحد ..! » .

قال مستر (جيلمور) : « أنصح لك بأن تعرضى الخطاب على سير (برسيفال) بمجرد وصوله ، ولست أشك فى أنه سوف يسارع إلى تقديم جميع الإيضاحات التى يتطلبها الموقف من رجل مهذب شريف ، إن اسم سير (برسيفال) فوق الشبهات .. أما عن المرأتين فأرسلى أحد خدم مستر (فيرلى) إلى المحطة للاستعلام عنهما .. والآن ينبغى أن أرى مستر (فيرلى) بصدد شروط الزواج ، فليس أمامنا متسع من الوقت ، إذ يجب أن أعود إلى لندن الليلة » .

والآن ، لندع (جيلمور) جالسًا يترقب معرفة ما إذا كان مستر (فيرلى)

فى حالة صحية تسمح له بمقابلته أم لا ، ولنلم ببعض التفصيلات الضرورية عن ثروة الآنسة (فيرلى) : كانت هذه الثروة تتألف من ثلاثة أقسام :

أولها : ما ترثه — فى حياتها فقط — بعد وفاة عمها ، ويتألف من دار ليمريدج والأرض المحيطة بها ، وتبلغ قيمة دخلها ثلاثة آلاف جنيه سنويًا ، على أن تستمتع وزوجها بهذا الدخل إبان حياتهما ثم ينتفع به ابنهما بعد وفاتهما .. فإذا لم ينجبا نسلاً انتقل إلى أبناء عمومتها ..

والقسم الثانى من الثروة : إيراد قدره عشرة آلاف جنيه ، تستمتع به طيلة حياتها فقط ، إذ كانت عمتها (اليانور) قد تزوجت من نبيل إيطالى يدعى الكونت (فوسكو) .. فاستنكر شقيقها مستر (فيليب) هذا الزواج بشدة بحيث حرمها من هذا الإرث وأعطى ريعه لابنته بدلاً منها ، على أن تئول العشرة آلاف جنيه إلى مدام (فوسكو) إذا ماتت (لورا فيرلى) قبلها — وهو ما لم يكن محتملاً إذا راعينا عمرى الاثنتين ! — وقد يئست العمة من الحصول على هذا المال ونقمت على ابنة شقيقها ، وأبت أن تراها منذ وفاة مورثها ! (وهذان القسمان الأول والثانى تحصل (لورا) فيهما على الدخل وحده دون أن يكون لها حق التصرف العينى) .

أما القسم الثالث من الثروة : فهو عشرون ألفًا من الجنيهات تئول إلى (لورا فيرلى) عند بلوغها سن الحادية والعشرين ، فى شهر مارس التالى .. وهذا المبلغ ملك خالص لها .

* * *

وفى الساعة الرابعة بعد الظهر أرسل مستر (فيرلى) يقول إنه يستطيع أن يستقبل (جليمور) .. وحياه قائلاً : أرجو ألا تكون يا عزيزى (جليمور) قد جئت لتزعجنى بمضايقات تتعلق بالأعمال ، فلقد بارك والد (لورا) هذا الزواج ، وأباركه أنا ، وسوف يسرنى أن تزاح عنى متاعبه .. ألا تستطيع أن تستشير ابنة أخى فى صدد شروط العقد ، فتقصر دورى فى الموضوع — بوصفى الوصى عليها — على النطق بكلمة (نعم) فى الوقت المناسب ؟ » .

فأجابه المحامى المحنك : « أخشى أنى لا أستطيع ذلك ، فإن الآنسة (فيرلى) لم تبلغ بعد سن الرشد ، ومن واجبك أنت أن ترعى مصالحها ، وقد ناقشت شروط الاتفاقية مع محامى سير (برسيفال جلايد) فى لندن ، فنشأ بيننا خلاف كبير جدًا : فالعقار والعشرة آلاف جنيه لا تدع مجالاً لأى نزاع لأن الآنسة (فيرلى) إنما تحصل على دخل منهما طيلة عمرها فحسب . وإنما المشكلة فى ثروتها الخاصة ، فى العشرين ألف جنيه .. فقد طلبت أنا أن يوضع هذا المبلغ تحت تصرفها وأن يكون من حقها أن تتصرف فيه كما تشاء فى حالة عدم إنجابها نسلاً من زوجها .. لكن محامى سير (برسيفال) يرفض ذلك ، ويطالب بأن يئول هذا المبلغ إلى موكله فى حالة وفاة الزوجة قبله ! » .

فقاطع مستر (فيرلى) محاميه قائلاً فى نفاد صبر : « يا عزيزى (جليمور) .. وهل يعقل أن تموت شابة فى العشرين قبل رجل فى الخامسة والأربعين ، وتموت دون أن تنجب نسلاً أيضًا ؟ .. لماذا تزعجنى فى حالتى الصحية الراهنة بهذه الفروض المستبعدة يا عزيزى (جليمور) ؟ » .

فقال (جيلمور) غاضبًا : « لقد جئت إلى هنا كى أحافظ على مصالح ابنة أخيك وعائلتك ، فأرجو منك أن تولى المسألة مزيدًا من الاهتمام ! » .

فأجاب مستر (فيرلى) وهو يغوص فى مقعده ويغمض عينيه : « لا تصح فى وجهى هكذا ، أرجو أن لا تصرخ فى !.. إنى لست من القوة بحيث أتحمل ذلك » .

فاستطرد (جيلمور) : « ما من محام يقبل أن تترك السيدة مالها للرجل الذى تتزوجه .. وما من محام يقبل أن يعطى الزوج ريعًا قدره عشرون ألفًا من الجنيهات عند وفاة زوجته ! » .

فتساءل مستر (فيرلى) : « ولِمَ لا ؟ إذا كانت نعمة الطمأنية والهدوء السماويين تصبح ميسورة المنال نظير ثمن دنيوى تافه مثل عشرين ألف جنيه ؟ إنى أسألك مرة أخرى ، لماذا تزعجنى ؟ دبر الأمر مع محامى سير (برسيفال) .. » .

فقال (جيلمور) : « مستحيل .. أنه لن يغير موقفه . لقد ترك له سير (برسيفال) أمر الاتفاق على تفصيلات العقد ، وأبى الاشتراك فى بحثها .. ويؤكد المحامى أنه لن يستطيع أن يفعل شيئًا من شأنه الإضرار بمصالح موكله !.. والحل الوحيد أن تتحدث أنت فى الأمر مع سير (برسيفال) نفسه ! » .

فصاح مستر (فيرلى) : « يا لأعصابى التعسة !. أنت تبغى إزعاجى وإزعاج نفسك ، وإزعاج (جلايد) ، وإزعاج (لورا) .. وكل ذلك من أجل شىء هو آخر ما يحتمل أن يحدث ! » .

— إنك لن تفلح فى إثارة أعصابى يا مستر (فيرلى) ، إننى من أجل ابنة أخيك ومن أجل أبيها سأحتفظ بزمام أعصابى ، لقد علمت خلال تشاورى مع محامى سير (برسيفال) أن ديونه جسيمه .. فإذا تمسكت بوجهة نظرك فسوف يضطر سير (برسيفال) للإذعان ، وإلا يعرض نفسه لأن يتهم بأنه يبغى الزواج من الآنسة (فيرلى) طمعًا فى مالها !

— يا عزيزى المخرف (جيلمور) لشد ما تبغض ذوى الألقاب والحسب .. ألست كذلك ؟ إنك تحقد على (جلايد) لا لشىء إلا لأنه صاحب لقب !

وغلى الدم فى عروق (جيلمور) ، لكنه بذل جهدًا كبيرًا للسيطرة على أعصابه ، وقال : « مستر (فيرلى) ، لقد كنت الصديق المخلص والناصح الأمين لأسرتك منذ سنوات طويلة ، ولو كانت لى ابنة لما زوجتها لأى رجل على ظهر البسيطة فى ظل شروط كهذه .. فإذا كنت لا تزال تأبى التحدث إلى سير (برسيفال) فسوف تضطرنى إلى قبول شروط محاميه ، ولهذا أناشدك للمرة الأخيرة بل أتوسل إليك أن تفاوضه شخصيًا » .

فقال مستر (فيرلى) فى إصرار وانفعال : « إننى لن أفعل ، بطبيعة الحال .. ما أقسى قلبك يا (جيلمور) إذ تطلب منى — فى حالتى الصحية الراهنة التعسة — أن أبحث مسائل غير مستحبة كهذه !. إن ذلك كفيل بأن يضر بى أشد الضرر » .

ــ إذن طاب يومك يا مستر (فيرلى) !. إننى محاميك وعلى أن أبرم الاتفاق وفق رغبتك ولكنى أنذرك بأن مسئوليته تقع على كاهلك وحدك !

ــ فلتصحبك السلامة يا (جيلمور) .. متى تزمع الرحيل ؟.. الليلة ؟.. لشد ما يؤسفنى أننى لن أتمكن من رؤيتك مرة أخرى . لقد جعلتنى أشعر بسقم شديد .. دع خدمى الكسالى يقدمون لك عشاء شهيًا !

ولم يجب المحامى المحنك ، لفرط اشمئزازه ، بل دار على عقبيه وغادر الحجرة فى صمت .. وتناول العشاء مبكرًا مع الآنسة (هالكومب) وحدها ، فأنبأته بأن الخادم الذى أوفدته إلى المحطة قد عجز عن الاهتداء إلى أى أثر لـ (كاثريك) ومرافقتها !

وكان ثمة قطار يمر فى الساعة السابعة فاستقله المحامى عائدًا إلى لندن .. وبعد يومين أرسل بالبريد إلى دار (ايمريدج) عقد الاتفاق الذى انتزع من (لورا فيرلى) حق التصرف فى مالها الخاص وفق رغبتها !

* * *

٧ ــ سير برسيفال يتشبث بالخطوبة

فى اليوم التالى لمقابلة (جيلمور) لمستر (فيرلى) ، وصل السير (برسيفال جلايد) إلى دار (ليمريدج) متلهفًا على تحديد أقرب موعد للزواج !.. وتجلى قلقه لما لاحظه فى نظرات (لورا فيرلى) من جهامة ، فيما أبداه للآنسة (هالكومب) من رقة واحترام لم يسعها سوى أن تغتبط بهما ، فلم تضيع وقتًا وأنبأته بخطاب (آن كاثريك) ، ودور (هارترايت) فى المسألة .. وعندئذ تساءل فى قلق : « هل قابلتك (آن كاثريك) يا (لورا) ؟ » .. فأجابت الآنسة (فيرلى) : « لا » .

ــ وهل قابلتك يا آنسة (هالكومب) ؟

فقالت الفتاة : « إنها لم تقابل أحدًا من أهل البيت ، اللهم إلا مستر (هارترايت) الذى التقى بها فى فناء الكنيسة ..

ــ تقولين إن مستر (هارترايت) كان يعمل فى (ليمريدج) كمدرس للرسم .. فهل لديك عنوانه فى لندن ؟

وكتب العنوان الذى ذكرته الآنسة (هالكومب) ، ثم سألها : « هل فشلتم فى الاهتداء إلى المكان الذى ذهبت إليه بعد مغادرتها مزرعة (تود) ؟ » .

فقالت : « لم نهتد إلى أى أثر يرشد إلى مكانها » .

وأمسك عن الكلام لحظة كأنما يفكر فى إجابات الآنسة (هالكومب) ، ثم أشرق وجهه بغتة وقال : من الطبيعى أنك و (لورا) تنتظران منى إيضاحًا يا آنسة (هالكومب) .. وواجبى يقتضينى أن أقدم لكما هذا الإيضاح ،

لقد كانت السيدة (كاثريك) مخلصة فى خدمة أسرتى وخدمتى لسنين خلت .. وكلما كبرت ابنتها ازداد اختلال عقلها ، حتى بلغ درجة استدعت ضرورة وضعها تحت رقابة طبية صحيحة ، لكن السيدة (كاثريك) كرهت العار الذى يترتب على إيداع طفلتها التعسة فى مصحة عامة كأى فرد فقير ، فوافقت أنا — تقديرًا لخدماتها — أن أدفع نفقات نزولها بمصحة خاصة . ولسوء الحظ كشفت أن نصيبى فى مسئولية إيداعها تحت الرقابة ، فباتت تشعر نحوى لذلك بأشد الحقد والنفور !.. وهذا يا (لورا) هو السبب الوحيد للخطاب .

ونظر إلى الفتاتين وكأنه يتعرف أثر كلماته ، وفى هذه اللحظة دخل كلب (لورا) المدلل إلى الحجرة ، فبسط سير (برسيفال) يده إلى الكلب وناداه .. ولكن الحيوان الصغير نفر منه ، وعوى وارتعد ، ثم اختبأ تحت أريكة ! فبدا الانفعال على وجه سير (برسيفال) لمسلك الكلب إزاءه ، واستطرد قائلاً : « لست أطالبكما بأن تقبلا كلامى على علاته ، فمن حقكما على أن أقدم دليلاً على صحة قولى .. ولهذا أرجو الآنسة (هالكومب) أن تكتب فورًا إلى السيدة (كاثريك) .. وحسبك أن توجهى إليها سؤالين : الأول عما إذا كانت ابنتها قد دخلت المصحة بعلمها وبموافقتها ؟.. والثانى : عما إذا كان نصيبى أو دورى فى المسألة من النوع الذى يقتضيها أن تدين بالشكر لى ؟ » .

واتجه إلى منضدة الكتابة وهو يتكلم فجر مقعدًا إليها وقال : تعالى

يا آنسة (هالكومب) ، وافعلى ما سألتك إياه .. فإن واجبى نحو (لورا) ، ونحوك ، ونحو نفسى ، يحتم على أن أبرهن على أننى أقول الحق .. » .

ولم تستغرق الآنسة (هالكومب) وقتًا فى كتابة الخطاب ، وحين فرغت منه سلمت الورقة مبسوطة إلى سير (برسيفال) ، فطواها لفوره دون أن ينظر إلى محتوياتها ، ووضعها فى ظرف أغلقه وكتب عليه العنوان ثم رده إليها قائلاً : « أرسليه بالبريد فورًا إذا سمحت .. » .

وفى يوم الأربعاء وصل رد السيدة (كاثريك) ، فإذا به غريب فى بابه ، إذا روعى أن كاتبته امرأة ، إذ كتب بأسلوب شبه رسمى ! ولكنه أكد رواية السير (برسيفال) كل التأكيد ، وهذا نصه :

« ولمنجهام ، هامبشاير — فى ٢٠ نوفمبر سنة ١٨٤٩

سيدتى :

« أرجو أن تسمحى لى بأن أخبرك بأننى التقيت خطابك الذى تستفسرين فيه عما إذا كانت ابنتى (آن) قد وضعت تحت الرقابة الطبية بعلمى وموافقتى ، وعما إذا كنت شاكرة للسير (برسيفال جلايد) دوره فى المسألة .. وجوابى على هذين السؤالين هو : « نعم » .

خادمتك المطيعة
« جين كاثريك »

وكان سير (برسيفال) فى حجرة الاستقبال مع الفتاتين حين وصل هذا الرد الموجز القاطع ، فترك لهما الوقت الكافى لقراءة الخطاب .. ثم ألقى عليه هو بدوره نظرة قصيرة ، وقال : « والآن يا (لورا) ، لم يعد ثمة ما يمنع من تحديد يوم الزفاف ..؟ » .

فأجابته الفتاة متوسلة : « أرجو أن تمهلنى بعض الوقت ، وأعدك بأن أعطيك جوابى قبل نهاية العام . أما الآن فأشعر بأننى جد مريضة .. » .

وانسحبت من المكان على الفور، وبعد لحظة تبعتها الآنسة (هالكومب) ، فوجدتها تذرع غرفتها ذهابًا وجيئة فى صبر نافد .. وابتدرتها قائلة : « كنت فى حاجة إليك يا (ماريان) ، فتعالى واجلسى معى .. لم أعد فى أتحمل هذه الحال يا (ماريان) ، ويجب ــ بل لسوف ــ أضع حدًا لها ! » .

فقالت لها الآنسة (هالكومب) : « نبئينى فى هدوء يا حبيبتى عما ترغبين فى عمله .. » .

ــ لن أستطيع قط أن أطالب بإحلالى من الخطوبة !

وأدركت الآنسة (هالكومب) ما ترمى إليه : فقد وعدت (لورا) أباها وهو على فراش احتضاره بأن تتزوج من سير (برسيفال جلايد) ، فتحدث الرجل المحتضر فى سعادة وأمل عن زيجة ابنته المقبلة .. وكان وعدها لأبيها ، وإعزازها لذكراه ، يمنعانها من فسخ الخطوبة !

واستطردت (لورا) فقالت : « لكنى أستطيع أن أكاشف سير (برسيفال جلايد) بالحقيقة ، وأجعله يحلنى من الخطبة إن شاء ، لا لأننى أطلب ذلك .. وإنما لأنه يعرف كل شىء !

فقالت الآنسة (هالكومب) : « ماذا تعنين بــ كل شىء يا (لورا) ؟ » .

ــ أعنى يا (ماريان) أنه كان خليقًا بى أن أتمسك بخطوبتى

ــ لا عن سعادة ، مع الأسف ــ ولكن عن رضى على كل حال .. لو لم ينبت فى قلبى حب آخر لم يكن موجودًا فيه حين وعدت ــ لأول مرة ــ بأن أكون زوجة لسير (برسيفال) .. وقد عقدت العزم على أن أتحدث إليه غدًا ، بحضورك يا (ماريان) ..

وفى أثناء العشاء فى ذلك المساء لاحظت الآنسة (هالكومب) أن (لورا) كانت تبدو أكثر انشراحًا وتبسطًا مع سير (برسيفال) مما رأتها من قبل ! ولما حيته فى نهاية السهرة ، قالت فى منتهى الهدوء إنها ترجو أن تتحدث إليه بعد الفطور ، وأنه سيجدها فى قاعة الجلوس مع الآنسة (هالكومب) .. فتغير لونه لسماع كلماتها ، إذ كانت المناسبة التى تحدد لها صباح الغد ، فاصلة فى حياته المستقبلة . وقد أدرك هو ذلك .

* * *

ولم ينضم سير (برسيفال) إليهما فى الفطور ، ولكنه بعث رسالة قال فيها إنه سيراهما خلال فترة الصباح .. وحين دقت الساعة الحادية عشرة دخل حجرة (لورا) ، وكانت كل قسمة من قسمات وجهه تنضح بالقلق والانفعال ، وبدا أن سعاله الجاف الحاد كان أشد وطأة من المعتاد .. ووجهه شديد الشحوب !

وساد الصمت الشامل لحظة ، ثم ابتدرته (لورا) قائلة : « أريد أن أتحدث إليك يا سير (برسيفال) فى موضوع شديد الأهمية لكلينا ، وما حضور أختى معنا هنا إلا لأن وجودها يعيننى ويشد أزرى .. وهى لم تقترح حرفًا واحدًا مما أوشك أن أقول ، وإنما أتكلم بوحى أفكارى الخاصة ، لا أفكارها ! » .

وأمسكت هنيهة وهى تنظر إلى سير (برسيفال) ، وكانت قدمه تدق على السجادة ، تحت المنضدة ، فى رفق هادئ رتيب .. ثم استأنفت قائلة :

« لعلك لم تنس ما قلته لك حين وافقت على خطوبتنا .. لقد قلت لك يومئذ .. إن تأثير أبى ونصيحته هما الدافع الرئيسى على بذلى ذلك الوعد .. وأن احترامى لذكرى أبى ، ولوعدى الخاص ، يحولان دون انسحابى من موقفى الراهن .. ومن ثَمَّ فإن فسخ خطوبتنا ينبغى أن يأتى من جانبك ، وبوحى من رغبتك أنت يا سير (برسيفال) ، لا من ناحيتى ! » .

وهنا كفت قدمه فجأة عن الطرقات القلقة ، وقال : « من جانبى أنا ؟.. أى سبب من جانبى يمكن أن يدعو إلى الانسحاب ؟ » .

فأجابت : « هناك سبب يشق علىَّ جدًا أن أذكره .. هناك تغير طرأ علىَّ ، وهو من الخطورة بحيث يكفيك مبررًا لفسخ خطوبتنا ! » .

وسألها بصوت أجش : « أى تغير ؟ » .

ـــ عندما عقدت خطوبتنا ، كان حبى فى يدى أمنحه من أشاء حسبما يقدر لى ، وفى متناولك أن تكتسبه أنت إن استطعت .. ولكنه الآن لم يعد كذلك !.. وإن يكن لم تدر بينى وبين هذا الرجل الآخر كلمة عن مشاعرى نحوه ، ولا عن مشاعره نحوى .. لا ولن تجرى كلمة بعد الآن ، إذ لا يحتمل أن نلتقى فى هذه الدنيا ثانية .. ولكنها الحقيقة التى أرى من حق أى زوج مرتقب أن يسمعها . وهذا كل ما لدى .. لقد قلت أكثر مما يكفى ليبرر عدولك عن الخطوبة ! » .

فقال : « بل لقد قلت أكثر مما يكفى كى يجعل تمسكى بالخطوبة أعز أمانى حياتى ! » .

أجفلت (لورا) بعنف وبدرت منها صيحة دهشة خافته .. بينما كان هو يمضى قائلاً : « لقد تركت لى ، يا آنسة (فيرلى) ، الحق فى أن أحلك من ارتباطنا .. لكننى لست من قسوة القلب بحيث أهجر امرأة أظهرت توا أنها أنبل بنات جنسها ! » .

ـــ إذا كنت لا تزال مصرًا على التشبث بخطوبتنا ، فقد أغدو زوجتك الوفية الصادقة يا سير (برسيفال) ، أما أن أكون زوجتك « المحبة » فهذا ما لن يحدث قط ، إذا كنت أعرف ما ينطوى عليه قلبى !

ـــ إننى أقبل ممتنًا صدقك ووفاءك .. فإن أقل ما تستطيعين تقديمه لى هو أكثر عندى من أقصى ما أطمع فيه من أية امرأة أخرى فى الدنيا !

وتناول يدها فرفعها فى رفق إلى شفتيه ، ثم انحنى تحية للآنسة (هالكومب) .. وغادر الغرفة فى صمت .

لم تتحرك (لورا) عقب خروجه ، ولا فاهت بكلمة !.. ورأت (ماريان) أن الكلام يكون عقيمًا ميئوسًا منه فى هذا المقام ، فاكتفت بأن أحاطت كتفى أختها بذراعيها وضمتها إليها فى صمت .. وظلتا معًا وقتًا بدا طويلاً ، ثم انتزعت (لورا) نفسها فجأة ونهضت واقفة وهى تقول :

ـــ يجب أن أستسلم لمصيرى على خير وجه أستطيعه ! فاخبرى (وولتر)

دائمًا إذا ما كتبت إليه إننى بخير ، ولا تذكرى له أبدًا إننى شقية !.. وإذا مت قبله . فاخبريه .. آه يا (ماريان) .. قولى له عنى.إذ ذاك إننى .. كنت أحبه .

وألقت بذراعيها حول عنق (ماريان) .. وانخرطت فى البكاء !

* * *

وانقضى شهر .. وذات صباح أغبر عاصف من أيام شهر ديسمبر ، زُوِّجت (لورا) لسير (برسيفال جلايد) فى كنيسسة (ليمريدج) . ولم يحضر عمها الزفاف ــ خشية أن لا تحتمل أعصابه الانفعال ــ لكنه رجا أن تزوره (لورا) العزيزة فى غرفته مرة بثوب العرس ، وأخرى مودعة قبيل سفرها .. على أن تحذر من أن تكدره !

وعند العصر بدا سير (برسيفال) و (ليدى جلايد) رحلتهما إلى إيطاليا والنمسا لقضاء شهر العسل .. وبقيت (ماريان هالكومب) فى دار (ليمريدج) تبكى وقد قرح البكاء أجفانها !

* * *

٨ ــ الكونت فوسكو

فى أحد أيام شهر يونية ــ بعد ستة أشهر ــ وقفت (ماريان هالكومب) نافذة الصبر فى نافذة غرفة الاستقبال بقصر (بلاكووتر بارك) ــ المقر الريفى لسير (برسيفال جلايد) ــ تنتظر فى لهفة ظهور العربة التى كانت تحمل إليها ثانية أختها الحبيبة (لورا) ..

وكان سير (برسيفال) وزوجته قد أنفقا الشتاء فى إيطاليا ، والربيع فى النمسا ، وقد وافق سير (برسيفال) على أن تعيش (ماريان) معهما عند عودتهما إلى إنجلترا .. فغادرت الآنسة (هالكومب) دار (ليمريدج) قبل ذلك بيومين ، بمجرد أن تلقت رسالة (لورا) معلنة عودتهما .. ولقد ذكر مستر (فيرلى) أنه سيفتقدها كثيرًا ، مثلما كان قد أعرب لـ (لورا) عقب زواجها عن مدى تحطم قلبه لرحيلها ! ولكنه كان فى الحقيقة يكتم سعادته لبعدهما عن البيت ..

ومرت بذهن (ماريان) ــ وهى واقفة تنتظر ــ أفكار كثيرة .. إنها الآن فى إقليم (هامبشاير) ، حيث ولدت (آن كاثريك) وحيث تعيش أمها حتى الآن .. وكان الظلام التام يخيم على مصير المرأة التعسة المضطربة العقل ورفيقتها الوفية السيدة (كليمنتس) ، وعلى حظهما .. فلم يسمع نبأ ما عن إحداهما منذ اختفائهما من قرية (ليمريدج) !.. وكان سير (برسيفال) قد أوصى محاميه ــ لدى مغادرته إنجلترا ــ بأن يواصل البحث عنهما .. لكن هذا فقد آخر الأمر كل أمل فى هذا الصدد ..

وتحولت أفكار (ماريان) إلى (وولتر هارترايت) .. لقد كتب إليها ، عقب زفاف (لورا) ، ذاكرًا أنه على أهبة الإبحار إلى أمريكا الوسطى ، إذ عين رسامًا ملحقًا ببعثة للتنقيب بين أطلال مدن (هندوراس) .. وأضاف المسكين أنه كان تحت رقابة سرية منذ غادر (ليمريدج) .. وأنه سمع اسم (آن كاثريك) ينطق به شخص لم يتبينه تمامًا وسط الجمع الذى التأم فى (ليفربول) لتوديع البعثة !

ومنذ ذلك اليوم لم تتلق منه (ماريان) سطرًا واحدًا ، وإن طالعت فى صحيفة أمريكية وصفًا لانطلاق المغامرين فى رحلتهم متوغلين فى تلك البلاد ، وقد شوهدوا آخر مرة يدخلون غابة كثيفة المجاهل وكل منهم يحمل بندقية على كتفه .. ومنذ ذلك التاريخ فقد العالم المتحضر كل أثر لهم !

أما (لورا) ؟.. فإن خطاباتها كانت تقرر أنها بخير ، وأن السفر والترحال يوافقان صحتها ومزاجها ، بحيث انقضى عليها الشتاء دون أن تصاب ببرد — لأول مرة فى حياتها ! — ولكنها لم تخط فى رسائلها كلمة واحدة عن سعادتها ، وهو أعز موضوع بالنسبة لقلب أختها .. وكان اسم زوجها يرد فى تلك الرسائل وكأنه اسم صديق يرافقها فى رحلاتها !.. وأحيانًا كانت تكتب (برسيفال) فقط ، ولكن هذا كان نادرًا .. إذ كانت فى تسع حالات من كل عشر تخلع عليه لقبه الرسمى (سير برسيفال) !

على أن هناك نبأ واحدًا سرت له (ماريان) : ففى (فينا) التقت

(لورا) وزوجها (بالكونت فوسكو) وزوجته اليانور — عمة (لورا) — وقد كان وجود (الكونت) ، بمحض الصدفة ، فى روما منذ سنوات ، عونًا للسير (برسيفال) على النجاة من السرقة والاغتيال فى اللحظة التى جرحت فيها يده اليمنى وكاد أن يطعن فى قلبه !.. وقد اعتقدت (ماريان) بأن تلك الصداقة بين الزوجين كفيلة بأن تؤدى إلى التوفيق بين زوجتيهما ، وبهذا يسوى نزاع عائلى قديم ، وقد ذكرت (لورا) فى خطابها أن (فوسكو) وزوجته سيعودان إلى إنجلترا بصحبتهما ، وسيقيمان فى ضيافتهما — بقصر (بلاكووتر بارك) — إلى أن يوفقا إلى دار مناسبة فى لندن !.. وأضافت (لورا) أنها وجدت عمتها قد تغيرت كثيرًا عما ألفتها ، فصارت وهى زوجة أميل إلى الخير والهدوء والاتزان منها قبل زواجها ..

بيد أن (لورا) لاذت — فى خطاباتها — بالصمت فيما يتعلق بالكونت ، كما فعلت إزاء أخلاق زوجها ومسلكه ! فلم تذكر إلا أنه كان يحيرها ، مما دعا (ماريان) إلى أن تسىء الظن به — إذ كانت (لورا) تحتفظ أكثر من كثير من الناس بغريزة الطفل ، التى توحى إليه بتمييز الأصدقاء من الأعداء ، مرهفة قوية .

وأخيرًا تحولت (ماريان هالكومب) عن النافذة ، فجلست وتناولت كتابًا .. لكنها عبثًا حاولت القراءة !.. حتى سمعت وقع حوافر جياد وعجلات عربة تقترب ، ثم تقف .. فهرعت لتفتح الباب ، وفى اللحظة

التالية كانت (لورا) بين ذراعيها فى عناق طويل ، أقصتها بعده قليلاً وهى ممسكة بها ، وجعلت تتفرس فى وجهها .. كان شكلها قد تغير ، فمن قبل كان لـ (لورا فيرلى) جمال يتسم بالنضارة ، والنعومة ، والحنان . وهذا ما لم تستطع (ماريان) أن تعثر عليه فى (ليدى جلايد) !

وكان (سير برسيفال) بدوره يبدو مهمومًا ، وقد حيا (ماريان) دون أن يبدو عليه الانشراح لرؤيتها ، أو يؤثرها بعبارات الترحيب .. بل اكتفى بأن صافحها باقتضاب وقال : « كيف أنت يا آنسة (هالكومب) ؟.. يسرنى أن أراك ثانية . دعينى أقدم لك صديقى الكونت (فوسكو) .. أما مدام (فوسكو) فقد كنت تعرفينها طبعًا باسم الآنسة (إليانور فيرلى) » .

وقال الكونت وهو يتناول يد الآنسة (هالكومب) ويرفعها إلى شفتيه : « تشرفنا » .. وهنا لمعت عينا زوجته فجأة بنظرة توحى بالغيرة المشبوبة ، وصاحت به قائلة : « إن آداب سلوكك الأجنبية لا تلقى تقديرًا من النساء الإنجليزيات يا كونت » .. التفت إليها وقال : « اغفرى لى يا ملاكى ، فإن خير وأعز إنجليزية فى العالم تفهمها .. ثم أخلى سبيل يد (ماريان) ورفع فى هدوء إلى شفتيه يد زوجته بدلاً منها !

* * *

وسرعان ما كانت (ماريان) تخلو إلى (لورا) فى غرفتها الخاصة لتعينها على إفراغ حقائبها ، فسألتها : « أأنت سعيدة يا عزيزتى ؟ » .

فقالت (لورا) : « ما دمت أنا وأنت معًا ، فإننا نكون أكثر سعادة

وارتياحتها فيما بيننا ، إذا تقبلنا حياتى الزوجية على ما هى عليه ، ولم نتحدث عنها أو نفكر فيها بقدر ما نستطيع ! » .

وواصلت فك أمتعتها ، بينما استنتجت (ماريان) — وقد أمضها الحزن — أن العلاقة بين (لورا) وزوجها لا ينقصها الفتور ! .. ولم تنقض لحظات حتى سألت (لورا) أختها : « هل كتبت وتلقيت رسائل كثيرة خلال افتراقنا ؟ » .

وفهمت (ماريان) أن السؤال يرمى إلى (هارترايت) ! ولكنها رأت من واجبها ألا تشجع أختها فى هذا الصدد .. ومع ذلك مضت (لورا) متسائلة : « هل تلقيت أنباء منه ؟.. هل هو بخير وسعادة ؟.. هل نسينى ؟ » .

فأجابت (ماريان) ، بأنها لم تكتب له ولم تسمع عنه شيئًا فى الفترة الأخيرة . ثم حولت دفة الحديث إلى موضوعات أقل خطورة !

* * *

وفى الأيام التالية وجدت الآنسة (هالكومب) نفسها شديدة الاهتمام بشخصية الكونت (فوسكو) الغريبة ، كان الكونت مفرط البدانة ، وبرغم دنوه من سن الستين كان وجهه ناعمًا خاليًا من أية تجاعيد !.. وكان — رغم بدانته وكبر سنه — خفيف الحركة ، سهلها ، إذا وجد فى مكان حرص على تجنب الضجة كأية امرأة وديعة !.. وكان له شغف غير عادى بالحيوانات الأليفة التى ترك الكثير منها فى أوربا ، وإن أحضر

معه إلى (بلاكووتر بارك) أسرة كاملة من الجرذان البيضاء تعيش فى قفص صغير من الأسلاك ذات الطلاء الزاهى ، وكانت جد أليفة وديعة ، حتى إنه كان يخرجها من القفص أحيانًا فتزحف على كل جزء من جسمه وتندس فى صديريته أو تخرج منها ، وتجلس أزواجًا بلونها الأبيض كالثلج على كتفيه العريضتين .. فيبتسم لها ويقبلها ويناديها بكافة أسماء التدليل ! لكن هذا الرجل عينه كان يتكلم بأسلوب ينم عن استقلال فى الرأى ، وإلمام بالكتب الصادرة بكل لغة ، وخبرة بالمجتمع فى نصف عواصم أوربا ، مما كان كفيلاً بأن يجعله شخصية مهمة فى أى مجتمع متحضر !

وكان لهذا الرجل البدين المكتهل قوة خارقة تكمن فى عينيه الباردتين الرماديتين ؛ حتى لقد ذهب فى صبيحة يوم وصوله إلى حظيرة القصر ووضع يده على رأس كلب مفترس مقيد بالأغلال ، بلغ من توحشه وشراسته أن كان الخادم الذى يتولى تقديم الطعام له يتحرز من الاقتراب منه ، فقال الخادم للكونت محذرًا : « أحترس يا سيدى من الكلب ، أنه متوحش يهاجم كل إنسان ! » .

فأجاب الكونت فى هدوء : إنه يفعل ذلك يا صديقى لأن الجميع يخشونه ويتجنبونه !.. فلنر ما إذا كان يهب فى وجهى !.. ثم وضع إصابعه البدينة البيضاء على رأس الكلب وسدد نظراته إلى عينيه ، وهو يقترب منه حتى كاد وجهاهما يتلامسان ، ثم خاطبه قائلاً : « هكذا أنتم جبناء ، معشر الكلاب الكبيرة .. إنك لا تتورع عن قتل قط مسكين أيها الجبان ..

وقد تنقض على متسول جائع أيها الجبان ، إن أى شىء يخاف من جسمك الضخم وفمك المتعطش إلى الدماء هو عين الشىء الذى يلذ لك أن تنقض عليه .. إنك تود لو تجرب أنيابك البيض فى عنقى الممتلئ ، لكنك لا تكاد تجرؤ حتى على أن تنظر إلى وجهى ؛ لأننى لا أخافك !

ثم تحول مبتعدًا عنه وهو يضحك لمنظر الخادم المشدوه ، بينما زحف الكلب عائدًا إلى وكره فى هدوء !

وكان للكونت عين التأثير والسلطان على زوجته .. فلقد كانت (اليانور فيرلى) حتى سن السابعة والثلاثين امرأة حمقاء وتافهة ، ولا تكف عن الثرثرة بالسخافات .. ولكنها وقد أصبحت مدام (فوسكو) ـــ فى سن الثالثة والأربعين ـــ أصبحت تجلس الساعات دون أن تنطق بأية كلمة متشاغلة بلا انقطاع بلف السجائر الصغيرة لزوجها .. وعندما كانت عيناها الزرقاوان الفاترتان تتحولان عن عملها ـــ فى مناسبات قليلة ـــ كانتا تتجهان عادة إلى زوجها بنظرات ملؤها التساؤل الخاضع الصامت ، كتلك التى تصدر عن عينى كلب أمين !.. أما فى المجتمعات فكان الكونت ينحنى لها ويظهر خضوعه ، وكان يناديها عادة : « يا (ملاكى) » ، ويقبل يدها !

وهكذا كانت العصا الحديدية التى يحكمها بها لا تبدو قط للعيان .. كانت عصا خاصة سرية !



* * *

وكانت فى الأرض المحيطة بقصر (بلاكووتر بارك) بحيرة — اشتق اسمه منها — وعلى ضفتها كان ثمة مخزن للزوارق حول إلى استراحة وضعت فيها أريكة وبضعة مقاعد ومنضدة خشبية ، وكان القوم كثيرًا ما يتمشون إلى البحيرة فيستريحون فى مخزن الزوارق ..

وذات صباح كان الجميع هناك ، ووقف (سير برسيفال) أمام الباب يتسلى بتقليم عصا بمطواة ، بينما انهمكت (لورا) فى بعض أشغال الأبرة ، ومدام (فوسكو) فى لف السجاير لزوجها .. أما (ماريان) فلم تكن تفعل شيئًا إذ كانت يداها كأيدى الرجال عاجزتين عن إتقان أى فن نسائى !.. وأما الكونت فقد جلس على مقعد صغير لا يناسب حجم جسمه ، ووضع على حجره قفص الفيران وتركها تزحف على ذراعيه وكتفيه كالمعتاد !

وقال (سير برسيفال) وهو يشير إلى البحيرة بعصاه التى لم يتم تقليمها : « بعض الناس يصفون هذه البحيرة بأنها جميلة ، أما أنا فأعتبرها لطخة تشوه أملاك أى سيد .. إن عمقها لا يبلغ اربعة أقدام بأى الأحوال ، وبودى لو أستطيع أن أقدم على ردمها وزراعة الأرض مكانها .. ولكن يقال إن هناك لعنة معقودة عليها ، فما رأيك فى ذلك يا (فوسكو) ؟.. إنها تبدو أصلح مكان لارتكاب جريمة قتل !.. أليس كذلك ؟ » .

فأجاب الكونت : « ما الذى يفكر فيه عقلك الإنجليزى يا عزيزى

(برسيفال) ؟ إن مياه البحيرة ضحلة لا تخفى الجثة .. ثم إن الرمال تحيط بها فتكشف آثار قدمى القاتل !.. إنها أسوأ مكان وقعت عليه عيناى لارتكاب جريمة القتل ! » .

فقال (سير برسيفال) : « إنما أقصد أن المنظر موحش والبقعة منعزلة » ، فقال الكونت : « إذا كان معتزم جريمة القتل غبيًا ، فإن بحيرتك هى أول مكان يختاره .. أما إن كان عاقلاً فإن بحيرتك آخر مكان يفكر فيه ! » .

وهنا حدجت (لورا فوسكو) بكراهية تجلت على وجهها ، ثم قالت : إن وصف القتلة بأنهم (أغبياء) فقط يوحى بكرم فى معاملتهم لا يستحقونه ، كما أن وصفهم بالحكمة خطأ أيضًا ، فهل وجد عاقل حكيم بين المجرمين يومًا ما ؟ » .

فقال الكونت : « لا أستطيع الإجابة على سؤالك ، لأن جريمة الرجل الذكى هى الجريمة التى لا تكتشف .. إنما تكتشف جريمة الغبى ! » .

فقال (سير برسيفال) متهكمًا : « ألا نبهه يا (لورا) أن الجرائم تكتشف دائمًا .. فما هذا الهراء ؟ » .

فقالت (لورا) فى هدوء : « أعتقد أن هذا صحيح » .

وانفجر (سير برسيفال) ضاحكًا ، بينما خفت (ماريان) إلى نجدة اختها قائلة : وأنا أيضًا أعتقد ذلك !

والتفت الكونت إلى زوجته متسائلاً : « وأنت يا ملاكى .. ما رأيك ؟ » .

فأجابت مدام (فوسكو) : « إننى فى حضرة الرجال ذوى المعرفة أنتظر التوجيه قبل أن أدلى برأيى .. ما رأيك أنت فى هذا الأمر يا كونت ؟ » .

ــ الأمر هكذا .. هناك مجرمون أغبياء يفتضحون ، ومجرمون عقلاء ينجون .. وما إخفاء الجريمة أو اكتشاف الجريمة إلا مباراة فى الذكاء والمهارة بين البوليس فى جانب ، والفرد فى الجانب الآخر !.. فحين يكون المجرم غبيًا جاهلاً ، يفوز البوليس فى تسع حالات من كل عشر .. وحين يكون المجرم حازمًا ، متعلمًا ، بارع الذكاء ، فإن البوليس ــ فى تسع مرات من عشر ــ يخسر .. وإذا كسب البوليس فإنكم تسمعون عادة كل شيء عن الجريمة .. أما إذا خسر البوليس فإنكم عادة لا تسمعون شيئًا !

فصاح (سير برسيفال) : « صحيح جدًا .. وشرح جميل » .

وقالت (ماريان) معلقة على قوله : « قد يكون بعضه صحيحًا وقد يكون شرحه جميلاً .. ولكن لماذا يتحدث الكونت (فوسكو) عن انتصار المجرم على المجتمع بكثير من السرور ، ولماذا تتحمس له يا (سير برسيفال) بهذه الدرجة ؟ » .

فتساءل (سير برسيفال) : « اتسمع هذا ؟.. استجب لنصحى وكن دائمًا على سلام مع السيدات . قل لهن : إن الفضيلة شيء جميل ! » .

فضحك الكونت فى رفق وقال : إن السيدات يا عزيزى (برسيفال) سيحدثننى عن الفضيلة لأنهن يعرفنها وأنا أجهلها . سانهض على ساق الفيل اللتين أوتيتهما قبل أن أشوه موقفى فى آرائهن .. سأنهض وأتمشى قليلاً مع (فيرلى) فى الهواء الطلق .. » .

* * *

٩ ــ مستند ينقصه التوقيع

كان القوم قد عادوا إلى القصر وجلسوا إلى مائدة الغداء ، حين دخل عليهم خادم يقول : « إن مستر (مريمان) حضر يا سيدى ، وهو يبغى أن يراك فورًا ! » .

فردد (سير برسيفال) فى غضب : « مستر (مريمان) ؟ » .

ــ نعم يا سير (برسيفال) .. مستر (مريان) من لندن !

وسأله (برسيفال) غاضبًا : « أين هو ؟ » .

فقال : « فى غرفة المكتبة يا سير (برسيفال) » .

وغادر سير (برسيفال) المائدة من فوره ، وأسرع مغادرًا الغرفة دون أن ينبس بكلمة للباقين .. فتساءلت (لورا) : « من هو مستر (مريمان) ؟ » .

وأجابتها (ماريان) : « ليست لدى أدنى فكرة عنه ! » .

فقال الكونت (فوسكو) بهدوء : « مستر (مريمان) هو محامى سير (برسيفال) ! » .

وبعد انتهاء الغداء أوت (ماريان) إلى مخدعها لتستريح ، ثم هبطت بعد ساعتين .. وكانت تمر بباب غرفة المكتبة حين سمعت صوت المحامى يقول : « خل عن بالك يا سير (برسيفال) . إن الأمر كله فى يد (ليدى جلايد) » .. ووقفت (ماريان) بمجرد سماعها اسم (لورا) .. ودفعها حبها لأختها إلى أن تنصت دون أن تشعر بخجل من عملها .. وكان المحامى

قد استطرد قائلاً : « لعلك تفهم ما أعنى يا سير (برسيفال) .. على (الليدى جلايد) أن توقع باسمها فى حضور شاهدين ، فإذا فعلت فلن يبقى ثمة داع لانزعاجك .. وإذا لم تفعل .. » .

وهنا قطع سير (برسيفال) كلام محاميه قائلاً فى غضب : « ماذا تعنى بقولك : إذا لن تفعل ؟.. إذا كان هذا الإجراء ضرورياً فسوف يتم . أعدك بذلك يا (مريمان) » .

فقال المحامى : فليكن يا سير (برسيفال) ، ولكنْ لكل مسألة وجهان دائمًا ، ونحن معشر المحامين نحرص على أن نواجه الاحتمالين ، فإذا لم يتم توقيع المستند فقد أستطيع إقناع دائنيك بالانتظار ثلاثة أشهر أخرى .. ولكن كيف يمكن تدبير المبلغ بعد ذلك ؟ » .

ـــ ليس هناك غير سبيل واحد لتدبير المبلغ .. وأكرر لك أنه سيحصل من هذا السبيل عينه !

ولم تنتظر (ماريان) لتسمع أكثر من ذلك ، بل غادرت البيت وسارت فى الحديقة ، تفكر فيما سمعت .. حتى قطع عليها تفكيرها خادم جاء ينبئها بأن سير (برسيفال) يريد أن يراها فى حجرة المكتبة ...

وقال سير (برسيفال) إذ ولجت الغرفة : « آسف أن أزعجك ، لكنها غلطة (فوسكو) وليست غلطتى .. أنه يرفض السماح لزوجته بأن تكون أحد الشاهدين ! » .

وكانت (لورا) واقفة إلى جوار المكتب تنتظر وهى تعتصر منديلها

فى يديها .. بينما جلست مدام (فوسكو) بالقرب منها فى مقعد كبير ، ترمق فى صمت وإعجاب زوجها الذى وقف إلى جوار النافذة .. وما أن ظهرت (ماريان) حتى تقدم يستقبلها قائلاً :

ـــ ألف معذرة يا آنسة (هالكومب) ، أتعرفين الصفة التى أطلقها الإنجليز على أبناء بلادى ؟.. إننا معشر الإيطاليين جميعًا ماكرون فى عرف (جون بول) الطيب ، وأنا لا اختلف عن بقية قومى . ومكرى لا يقر أن تكون مدام (فوسكو) أحد الشاهدين على توقيع (ليدى جلايد) فى حين أننى سأكون شاهدًا أيضًا .. » .

فقال سير (برسيفال) : « لا داعى لمعارضته ، فقد أوضحت له أن القانون فى إنجلترا يسمح لمدام (فوسكو) أن تكون شاهدة على التوقيع إلى جانب زوجها .. » .

فقال له (فوسكو) : « أنا أعترف بذلك .. إن القانون فى إنجلترا يجيز هذا ، ولكن (فوسكو) لا يجيزه . ولست أعرف ـــ ولا أحب أن أعرف ـــ ما تكونه هذه الوثيقة التى توشك (ليدى جلايد) أن توقعها . ولكن من المستحب أن يكون الشاهدان ممثلين لرأيين مستقلين . وهذا ما لا يتوافر إذا وقعت أنا وزوجتى ، لأن لنا فيما بيننا رأيًا واحدًا هو رأيى أنا .. ولست أحب أن يقال يومًا : إن مدام (فوسكو) تصرفت تحت ضغط منى ، ومن ثَمَ لم تكن شاهدة على الإطلاق » .

ونهضت مدام (فوسكو) من مقعدها وقد لمحت إيماءة من عينى زوجها يأمرها بها بمغادرة الغرفة !.. فقال سير (برسيفال) : « لا حاجة بك إلى الانصراف ! » . —

فالتفتت مدام (فوسكو) مرة أخرى ترتقب أوامر زوجها ، فلما تلقتها فى نظراته ، قالت : « إنها تؤثر أن تتركهم لعملهم » وخرجت فى إصرار ..

وفتح سير (برسيفال) عقب خروجها صوانًا أخرج منه ورقة من النوع الذى تكتب عليه الوثائق (البرشمان) وقد طوى عدة مرات ، ففض الطبقة الأخيرة منه ، ووضعه على المنضدة ، واضعًا يده على بقية الطبقات ، وكانت الطية الأخيرة بيضاء ، فى حين بقيت الأجزاء المكتوبة كلها مطوية .. ثم غمس ريشته فى الحبر وقدمها لزوجته قائلاً وهو يشير لها إلى الموضع :

— وقعى باسمك هنا .. وبعدئذ توقعين أنت و (فوسكو) يا آنسة (هالكومب) !

فسألته (لورا) فى هدوء : « وما الذى سأوقع عليه ؟ » .

فأجابها سير (برسيفال) : « ليس لدى وقت للإيضاح ، إذ يجب أن أنصرف فورًا ، والعربة تنتظرنى أمام الباب .. ثم إنك لن تفهمى الأمر ، حتى لو كان لدى وقت فإنك لن تفهمى .. إنه مستند قانونى ملىء بالمصطلحات الفنية .. هيا ، هيا !.. ضعى توقيعك ودعينا نفرغ من المسألة بأسرع ما يمكن » .

قالت : « بل يجب أن أعرف ما أوقعه قبل أن اكتب اسمى » .

— هراء .. ما للنساء والأعمال !.. أكرر لك أنك لن تفهمنى المسألة .

— على أى حال دعنى أحاول أن أفهمها .. فقد اعتاد مستر (جيلمور) أن يشرح الأمر لى أولاً كلما احتاج إلى توقيعى ..

— كان (جيلمور) فى خدمتكم ، فكان مضطرًا للإيضاح .. أما أنا فإنى زوجك ، ولست مضطرًا لذلك .. إلى متى تعتزمين أن تعوقينى عن الذهاب ؟.. هل ستوقعين أو لن توقعى ؟

— إذا كان توقيعى بمثابة تعهد منى بشىء ما ، فمن حقى دون ريب أن أعرف هذا التعهد !

وعندئذ رفع (برسيفال) العقد وضرب به المائدة فى غضب وصاح : « أفصحى .. لقد طالما اشتهرت بصراحتك .. لا تراعى وجود الآنسة (هالكومب) ولا (فوسكو) ، وقولى بصراحة . إنك لا تثقين فى ! »

فوضع الكونت يده على كتف سير (برسيفال) ، ولكن هذا نحاها عنه فى حنق ، فعاد الكونت ووضعها من جديد فى هدوء ، وقال : « اكبح أعصابك التعسة يا (برسيفال) » .

وقالت (لورا) : « من الظلم والقسوة أن تتهمنى بأننى لا أوليك ثقتى .. اسأل (ماريان) عما إذا لم أكن على حق فى طلبى الاطلاع على محتويات هذه الوثيقة ؟ » .

فأجابها : « ليس للآنسة (هالكومب) شأن فى هذا الأمر » .

فقالت (ماريان) : « لا تؤاخذنى يا سير (برسيفال) .. إننى كأحد الشاهدين على التوقيع أرى أن لى بعض الشأن فى هذا الأمر .. وأنا أقر (لورا) .. وبالأصالة عن نفسى ، أرفض أن أوقع كشاهدة ما لم تتح لها الفرصة لكى تفهم كنه المكتوب فى الوثيقة أولاً » .

قال سير (برسيفال) : « فى المرة القادمة التى تدعين نفسك فيها إلى بيت إنسان يا آنسة (هالكومب) ، أرجو أن لا تردى له ضيافته بالانحياز إلى جانب زوجته فى مسألة لا تعنيك ! » .

وهبت (ماريان) واقفة فجأة عند هذه الإهانة وكأنها تلقت صفعة .. لو كانت رجلاً لألقته أرضًا وتركت بيته دون ما رجعة .. ولكنها لم تكن سوى امرأة أحبت زوجته إلى درجة جعلتها تعود إلى الجلوس دون أن تنبس بكلمة !

وأدركت (لورا) مدى ما كانت تعانيه أختها ، فهمست لها فى رفق والدموع تنساب من عينيها : « أواه يا (ماريان) .. لو كانت أمى على قيد الحياة ما فعلت من أجلى أكثر مما تفعلين ! » .

وعاد سير (برسيفال) فصاح بزوجته قائلاً : « تعالى ووقعى ! » .

فهمست هذه فى أذن (ماريان) : « هل أفعل ؟.. سأوقع أن أشرت بذلك » .. فأجابتها (ماريان) : « لا توقعى على أى شىء ما لم تقرئيه أولاً ! » .

وصاح سير (برسيفال) بأعلى صوته فى حنق : « تعالى ووقعى ! » .

فتناولت (لورا) الريشة ثانية وقالت : « سأوقع بكل سرور .. إذا عرفت ما الذى أوقعه .. إن لى الحق .. » .

فصرخ سير (برسيفال) وقد عجز عن قمع حنقه : حقك ؟ « أتحدثيننى .. لقد فقدتها حين اعترفت لى بعلاقتك الغرامية مع التعس الذى كان يعلمك الرسم ! » .

وفى اللحظة التى نطق فيها بهذه الكلمات ، ألقت (لورا) بالريشة من يدها ونظرت إلى زوجها بازدراء لم تر (ماريان) له مثيلاً فى عينيها من قبل ، ثم أدارت له ظهرها دون أن تنطق بحرف ..

وهمس الكونت : « يا لك من أبله ! » .. فالتفت سير (برسيفال) إليه وقد عقل الانفعال لسانه ، بينما أخذ (فوسكو) يشد قبضته القوية على كتف صاحبه بتؤدة .. ثم قال فى هدوء : « (برسيفال) .. إننى أذكر جيدًا أننى فى حضرة سيدات ، فهل لك أن تتكرم فتذكر ذلك أنت الآخر ؟ » .

وعاد سير (برسيفال) يخاطب زوجته بلهجة مغايرة ، وقد أدرك أن غضبه دفعه إلى التفوه بما عاد عليه بالضرر : « إذن فأنت ترفضين رفضًا قاطعًا أن تمنحينى توقيعك ؟ » .

فأجابته (لورا) فى لهجة حاسمة : « أرفض ، بعد هذا الذى تفوهت به ، حتى أقرأ أولاً كل حرف تضمنته الوثيقة .. هيا بنا يا (ماريان) ، فقد أطلنا البقاء هنا » .

فقال الكونت : « لحظة واحدة ، لحظة يا (ليدى جلايد) .. أرجوك » .

وكانت (لورا) خليقة بأن تبرح الحجرة دون أن توليه التفاتًا ، لولا أن أوقفتها (ماريان) هامسة : « مهما فعلت فلا تجعلى من الكونت عدوا لك ! » .

وقال الكونت يخاطب (لورا) فى رقة : « أرجو أن تغفرى لى يا (ليدى جلايد) إذا تقدمت باقتراح » .. ثم التفت إلى سير (برسيفال) وقال فى حدة : « هل من الضرورة الماسة أن توقع هذه الوثيقة اليوم ؟ » .

ــ أنه ضرورى لخطتى ورغباتى ..

ــ أجب بوضوح على سؤالى الواضح : « هل يمكن تأجيل التوقيع إلى غد ؟.. أجب بنعم أو لا ! » .

ــ نعم ..

ــ إذن فقيم إضاعة وقتك هنا ؟.. أرجئ التوقيع إلى غد !

فقال سير (برسيفال) متجهمًا : « إنك تخاطبنى بلهجة لا احبها .. لهجة لا أقبلها من أى رجل » .

فأجابه الكونت مبتسمًا فى ازدراء : « إننى أنصحك لخيرك : أمهل نفسك ، وأمهل (الليدى جلايد) ، هل نسيت أن عربتك تنتظر أمام الباب ؟.. كم من النصائح الطيبة بذلتها لك مذ عرفتك ؟.. إنها أكثر من أن تستطيع إحصاءها ، فهل أخطأت يومًا ؟.. اذهب فقم بجولة فى العربة وأرجئ التوقيع حتى تعود .. » .

وتردد سير (برسيفال) ، ثم نظر إلى ساعته وقال فى النهاية ، « سأعمل بنصيحتك يا (فوسكو) ، لا لأننى أريدها أو أؤمن بها ، ولكن لأنى لا أطيق البقاء هنا أكثر من ذلك !.. » ثم حدج زوجته بنظرة حاقدة وقال : « إذا لم توقعى عند عودتى غدًا .. »

وضاعت بقية العبارة فى ضجيج الخزانة إذ فتحها ثانية فأودع الوثيقة جوفها ثم أحكم إغلاقها فى الحال .. وتناول قبعته وقفازيه من فوق المنضدة وسعى إلى الباب .. فتراجعت (لورا) و (ماريان) كى تمكناه من المرور ..

وقال مكررًا لزوجته : « تذكرى .. غدًا » .. ثم انطلق خارجًا .

* * *



١٠ ــ شبح بجوار البحيرة

قال الكونت (فوسكو) حين انصرف صديقه : « لقد رأيتما (برسيفال) فى أسوأ أحواله .. وإنى بوصفى صديقه القديم ، لآسف من أجله وخجل منه .. وكصديقه الحميم أعدكما بأنه لن يسلك غدًا مثل هذا المسلك المزرى ! » .

وكانت (ماريان) تربأ بنفسها أن تدين للكونت بشىء ، لكن خوفها منه دفعها إلى أن تشكره بأدب .. ثم أحاطت أختها (لورا) بذراعها وتركتا الحجرة .. وإذ بلغتا البهو ، سمعتا عجلات العربة وهى تبتعد .. فهمست (لورا) : « إلى أين هو ذاهب يا (ماريان) ؟.. يبدو أن كل عمل جديد يأتيه يخيفنى من المستقبل ! » .

فأجابتها : وكيف أعرف أسراره ؟

فعادت (لورا) تسأل : « ترى هل يعرف الخدم شيئًا ؟ » .

ــ لا ، بالتأكيد .. لابد أنهم يجهلون ذلك مثلنا تمامًا .

وهنا هزت (لورا) رأسها فى ارتياب وأردفت قائلة : « ألم تسمعى من الخدم شائعة عن أن (آن كاثريك) شوهدت فى المنطقة المجاورة ؟.. ألا تعتقدين أنه ربما كان قد خرج للبحث عنها ؟ » .

فأجابتها أختها : « لا تشغلى بالك بهذا الأمر على الإطلاق يا (لورا) .. تعالى إلى غرفتى ، ولتستريحى وتهدئى .. » .

* * *

وجلستا معًا إلى جوار النافذة فى غرفة (ماريان) ، واستسلمتا لنسيم الصيف العليل يداعب وجهيهما .. ثم حدثت (ماريان) أختها بأمر تلك المناقشة التى سمعتها صدفة بين سير (برسيفال) ومحاميه ، وعقبت قائلة : « أنا واثقة من أن المستند الذى أرادك سير (برسيفال) على أن توقيعه كفيل بأن ينتزع منك ثروتك أو بعضها على الأقل .. لذلك يجب أن لا توقعى شيئًا يا (لورا) .. » .

فقالت هذه : « بل ليتنى منحته توقيعى إكرامًا لك .. لقد تفطر قلبى ــ وأنه ليتفطر كلما فكرت فيما تحملت فى المكتبة من أجلى ــ ترى ماذا نفعل ؟.. ليت لنا صديقًا يعيننا وينصحنا !.. صديقًا نستطيع أن نركن حقًا إليه ! » .

وقرأت (ماريان) فى عينيها أنها تفكر فى (وولتر هارترايت) .. لقد أصبحتا ــ ولما تنقض ستة شهور ــ فى حاجة إلى خدماته التى وضعها تحت تصرفهما وهو يودعهما !.. واستطردت (لورا) قائلة : « هل سمعت ما قاله لى سير (برسيفال) ؟.. إنك لا تعلمين مبلغ التعاسة التى كنت فيها .. وإنه ليصعب على أن أعترف بأن الرجل الذى وهبته حياتى كلها هو أقل الناس اكتراثًا بها .. كم من مرة سمعتك تضحكين ساخرة من فقرك يا (ماريان) ؟.. فلا تضحكى ثانية ، بل جدير بك أن تشكرى الله لفقرك ، فهو يجعلك سيدة نفسك وينقذك من المصير الذى أصابنى ! » .

ويا لها من بداية محزنة على شفتى زوجة شابة !.. كانت الأيام القليلة

التى أمضيتاها معًا فى قصره (بلاكووتر بارك) كافية لأن تظهر (ماريان) على حقيقة السبب الذى قام عليه زواج (لورا) ، فأدركت أن سير (برسيفال) إنما يمثل دورًا فى دار (ليمريدج) !.. وإن أدبه وتواضعه ولطفه هناك لم تكن كلها سوى حيل رجل دنىء ، ماكر ، قاس ، كشف قناعه حين بلغ هدفه !.. وفضح فى المكتبة — فى عصر ذلك اليوم — عن حقيقة شخصيته ..

وقالت (لورا) : « ذكرين ما قلته له فى (ليمريدج).. لقد كان سرًّا لا يضير .. أليس كذلك ؟.. لم أكتم عنه سوى الاسم .. لكنه اكتشفه !.. كنا فى مأدبة عشاء فى روما ، حين ذكر أحد الضيوف اسم مستر (هارترايت) وأثنى عليه كمدرس بارع ، وشاب متواضع ، مهذب .. وفى تلك اللحظة التقت عيناى وعينا زوجى ، فأدركت من نظرته أن عينى قد خانتانى وفضحتا سرى !.. وحين خلونا فى تلك الليلة ، أغلق باب الحجرة بالمفتاح ، ثم دفعنى بعنف نحو أحد المقاعد ، وصاح : «منذ أدليت لى باعترافك فى (ليمريدج) ، وأنا أسعى لمعرفة اسم ذلك الرجل .. وقد قرأته الليلة على وجهك !.. لسوف تكفرين عن ذلك ، وسيكفر هو الآخر ، حتى آخر لحظة من حياتيكما !.. والآن ، امضى إلى فراشك ، واحلمى به — إن شئت — وعلى كتفيه آثار سوطى » .. ومن ذلك اليوم ، كلما غضب منى أخذ يهيننى بالإشارة إلى عاطفتى البريئة نحو (وولتر هارترايت) !

واحتضنتها (ماريان) بين ذراعيها ، وقد تمثلت لها صورة (وولتر هارترايت) واليأس مرتسم على وجهه إذ أدمت كلماتها فؤاده يوم حدثته فى البيت الصيفى بقصر (ليمريدج) .. وخيل إليها أن الصورة تؤنبها ، فأحست بالندم .. كانت يدها هى التى ساقت الرجل الذى أحبته أختها بعيدًا عن وطنه وصحابه .. لقد وقفت بين هذين القلبين لتفرق بينهما إلى الأبد .. كانت هى التى فعلت ذلك .. وفعلته من أجل سير (برسيفال جلايد) !

وقالت (ماريان) بعد صمت استغرق بضع لحظات : « لنهبط إلى حجرة الجلوس ياعزيزتى ، فقد نثير الشكوك إذا أطلنا البقاء معًا فى خلوة ! » .

فقالت لها (لورا) : « الشكوك ؟.. شكوك من نثير ، إذا كان سير (برسيفال) قد غادر البيت ؟.. أم تراك تعنين الكونت (فوسكو) ؟ » .

— ربما كنت أعنيه يا (لورا) ..

— هأنت ذى قد بدأت تكرهينه كما أكرهه يا (ماريان) !

— لا ، لست أكرهه ، فالكراهية ترتبط بالاحتقار ، ولست أرى فى الكونت ما يستدعى الاحتقار !

— ما أحسبك خائفة منه ؟

— ربما .. بعض الشىء !

— أو تخشينه بعد المساعدة التى قدمها لنا اليوم ؟



ـــ نعم .. إنى لأخشى عونه أكثر مما أخشى عنف سير (برسيفال) !.. تذكرى ما قلته لك فى المكتبة .. مهما فعلت فلا تجعلى من الكونت عدوا !

وهبطنا إلى الطابق الأرضى ، فقابلنا (فوسكو) وزوجته مرة أخرى حول مائدة العشاء .. وكان الكونت بادى المرح ، وقد بذل جهدًا كبيرًا كى يسرى عن (لورا) و (ماريان) ، كأنما كان مصرًا على أن ينتزع من ذاكرتيهما ذكرى ما جرى عصر ذلك اليوم فى حجرة المكتبة .

وبعد العشاء ، انسحب الكونت ليتفرغ للقراءة .. واقترحت (لورا) الخروج إلى نزهة فى الحقول للاستمتاع بمنظر الليل الطويل وهو يخيم على الكون .. وكان من ضرورات الأدب وحسن السلوك أن تدعو مدام (فوسكو) لمرافقتهما . ولكن هذه ـــ على ما اتضح ـــ كانت قد تلقت أوامر سابقة من زوجها ، فالتمست منهما أن تتكرما فتعفياها قائلة : « إن الكونت قد يحتاج إلى عدد جديد من السجاير ، ولا يستطيع سواى أن يصنعها بالشكل الذى يرضيه » .

وخرجت (لورا) و (ماريان) وحدهما .. وكان المساء معتمًا ، وقد مالت الشمس إلى الغروب فى غمرة الضباب ، وبدت فى الأفق نذر مطر كان من المحتمل أن ينهمر عندما يستكمل الليل سيطرته .. وتساءلت (ماريان) : « فى أى اتجاه نذهب ؟ » .

فأجابت (لورا) : إلى البحيرة إن راق لك ، فلست لى نزهة مفضلة فى (بلاكووتر بارك) ، بل إن كل النزهات هنا سواء فى نظرى » .

وكان يخيم على البحيرة ضباب أبيض منخفض ، بدت خلاله رءوس الأشجار القائمة على الضفة المقابلة أشبه بغابة عائمة فى المساء .. وكان الصمت رهيبًا ، لا تعكره خفقة من أوراق الشجر ، أو نغمة من شدو الطير .. بل لقد انقطع حتى نقيق الضفادع !

وبلغتا الزوارق ، فطاب لهما أن تجلسا لتستريحا .. وقالت (لورا) : « هنا نستطيع أن نستمتع بالخلوة أكثر منا فى أى مكان آخر .. أواه يا (ماريان) ! إننى بعد الذى حدث فى المكتبة بعد ظهر اليوم لم أعد أرى أى جدوى فى كتمان شقائى عنك !.. كنت كثيرًا ما أفكر ـــ ونحن فى الخارج ـــ فى (وولتر هارترايت) ، وأتصور ما كان من المحتمل أن أصير إليه لو كنت قد أرضيت الله فأنعم على بالفقر ، لأكون زوجة له .. كنت أتصور نفسى فى ثوب رخيص ، أجلس فى منزلى أنتظره فى سعيه لكسب عيشنا ، وأعمل من أجله وأنا سعيدة لاضطرارى لهذا العمل من أجله ! » .

وانهمرت الدموع منحدرة على وجهها .. بينما لاذت (ماريان) بالصمت ، إذ لم تجد حديثًا يواسيها .. وهكذا بقينا حتى تكاثف الظلام ، فقالت (ماريان) أخيرًا : « لقد تأخر الوقت ونحن بعيدتان عن البيت ، فهيا نعد إليه .. »

وكان الضباب المخيم على البحيرة قد تكاثف حين قفلتا عائدتين .. وفجأة ، التفتت (لورا) وقد وقفت .. وأخذت ترتجف فى عنف ، مغمغمة : « (ماريان) !.. ألا ترين شيئًا ؟.. انظرى ! »

ــ أين ؟

ــ على ضفاف البحيرة !

وأشارت بيدها ، فتبعت عينا (ماريان) إشارتها ، فرأت بدورها ما رأته أختها .. كان ثمة شخص يتحرك بمحاذاة شاطئ البحيرة نحو مخزن الزوارق الذى غادرتاه لتوهما .. وكانت تحيط به هالة من الضباب الأبيض وهو يتحرك ببطء .. وئيدًا .. حتى مر خلف مخزن الزوارق .. ثم لم تعودا تريانه !

وهمست (لورا) متسائلة : « أكان رجلاً أم امرأة ؟

ــ لا أستطيع الجزم .. » .

ــ وما الذى ترجحينه ؟

ــ يخيل إلى أنه امرأة ..

ــ إنى خائفة يا (ماريان) ، ولست أستبين طريقنا .. ماذا لو اقتفى الشبح خطواتنا ؟

وكانتا قد أصبحتا بين الأشجار التى كانت تفصلهما عن البيت .. وما عتمت (لورا) أن همست فجأة : « صه !.. أسمع حركة خلفنا ! » .

فقالت (ماريان) تطمئنها : « إنها الأوراق الجافة تتساقط من الشجر . » .

قالت (لورا) : « كلا .. إننا فى الصيف يا (ماريان) ، وليست هناك نسمة تهز الأوراق .. أنصتى ! » .

وسمعتا الحركة معًا .. حركة أشبه بوقع قدمين تتبعانهما .. ثم زفرة

حرَّى طويلة انبعثت من أعماق الظلمة التى لفت الأشجار خلفهما .. وصاحت (ماريان) : « من هناك ؟ » .. فلم تتلق جوابًا .. وعادت تردد : « من هناك » .. وأعقبت ذلك لحظة صمت .. ثم سمعتا وقع الخطوات الخفيفة مرة ثانية ، لكنه كان يتضاءل ويضعف ويبتعد إلى قلب الظلمات .. حتى تلاشى ؟.. فانطلقت الأختان تجريان بين الأشجار حتى بلغتا البيت !

وعلى ضوء مصباح الردهة ، نظرت (لورا) إلى (ماريان) وقد شحب وجهها وقالت : « أكاد أموت رعبًا !.. ترى من يكون ؟ » .

فأجابت (ماريان) : « سنحاول أن نكشف ذلك غدًا .. لا تذكرى لأحد شيئًا مما رأينا وسمعنا ! » .

ــ ولِمَ لا ؟

ــ إن الصمت أسلم .. وما أحوجنا إلى الأمان فى هذا البيت !

* * *



١١ ـــ لورا وذات الثوب الأبيض

اكتشفت (لورا) فى صباح اليوم التالى أنها فقدت دبوس صدرها ، ورجحت أنه سقط منها فى مخزن الزوارق أو فى الطريق إليه ، فاتجهت إلى البحيرة مرة أخرى ، وقد بدد ضوء النهار خوفها ..

و لم تجد الدبوس فى الطريق .. وفيما هى تبحث عنه فى المخزن ، وظهرها إلى الباب ، سمعت صوتًا ناعمًا ، غريبًا ، يناديها من الخلف : « آنسة (لورا) ! » .

فاجفلت لسماع اسمها القديم الذى حسبت أنها قد افترقت عنه إلى الأبد .. وإذا امرأة ترتدى ثيابًا بيضاء قد وقفت بالباب ترمقها ، باسطة لها إحدى يديها .. ورأت (لورا) الدبوس فى راحتها ، فهتفت : « شكرًا لك ! » .

فقالت المرأة بصوت خافت : هل يبلغ شكرك لى حد التفضل علىَّ بصنيع صغير ؟.. دعينى أثبت هذا الدبوس على صدرك ! » .

وتراجعت (لورا) خطوة أو اثنتين مأخوذة بهذا السؤال الغريب ، بينما استطردت المرأة قائلة : « آه ، ما كانت أمك تتردد فى أن تسمح لى بتثبيت الدبوس ! » .

ـــ أكنت تعرفين أمى ؟.. وهل كان هذا من عهد بعيد ؟.. وهل رأيتك من قبل ؟ .

فقالت المرأة : « إنك لا تذكرين يومًا جميلاً من أيام الربيع فى (ليمريدج) ، وقد سارت أمك فى الطريق المؤدى إلى المدرسة ، وإلى كل من جانبيها صبية صغيرة .. كنت أنت إحدى الصبيتين ، وكنت أنا الأخرى !.. كانت كل من الآنسة (فيرلى) الحسناء الذكية ، و(آن كاثريك) المسكينة البلهاء ، أقرب إلى الأخرى يومذاك منها اليوم ..! » .

وتذكرت (لورا) أن (ماريان) سألتها فى (ليمريدج عن (آن كاثريك) ، وأنبأتها بما بينهما من تشابه ، فأخذت تتفرس فى المرأة عن كثب .. فإذا وجهها شاحب ، نحيل ، مكدود .. لكن منظره أذهل (لورا) ، إذ بدا كأنه صورة وجهها هى فى المرآة بعد مرض طويل !

وتساءلت : لماذا دعوتنى بالآنسة (فيرلى) ؟ » .

ـــ لأنى أحب اسم (فيرلى) ، وأمقت اسم (جلايد) !

ولأول مرة طالعت (لورا) فى عينى المرأة علامات الجنون ، فقالت تحاول تهدئتها : « ظننتك لم تعلمى بأنى تزوجت ! » .

قالت (آن) : « لم أعلم أنك تزوجت ؟.. لست هنا إلا لأنك تزوجت .. هل رأيتنى عند البحيرة فى الليلة الماضية ؟.. هل سمعتنى أتبعك فى الغابة ؟.. لقد ظللت أيامًا أنتظر فرصة أحدثك فيها على انفراد .. لقد تركت السيدة (كليمتنس) ـــ الصديقة الوحيدة التى لى فى هذه الدنيا ـــ فى حالة من الانزعاج والخوف على ، وخاطرت معرضة نفسى لأن أحبس فى مستشفى المجاذيب مرة أخرى !.. وكل ذلك من أجلك أنت يا آنسة (فيرلى) ! » .

وحملت اللهجة التى كانت تتكلم بها (لورا) على أن تشفق عليها بكل قلبها .. لم تعد خائفة من المرأة المسكينة ، فدعتها إلى الجلوس معها فى مخزن الزوارق .. لكن (آن كاثريك) هزت رأسها قائلة :

ـــ بل سأبقى إلى جوار الباب خشية أن يفد أحد .. لماذا تركتك تتزوجين من هذا الرجل ؟.. ما كان ينبغى قط أن أدع نبأ قدومه إلى (ليمريدج) يفزعنى ويدفعنى إلى الفرار .. كان ينبغى أن أحذرك وأنقذك قبل فوات الأوان !.. لماذا لم يواتنى من الشجاعة إلا القدر الذى مكننى من كتابة ذلك الخطاب إليك ؟.. آه ، يا لخوفى !.. يا لخوفى الأرعن ، التعس ، الآثم !

ـــ ما الذى كنت تخافينه ؟

ـــ أما كنت تخافين ـــ لو كنت مكانى ـــ رجلاً سبق أن حبسك فى مصحة للمجاذيب ، وهو على استعداد لأن يزج بك هناك ثانية إذا استطاع ؟

فعادت تسألها : « وهل مازلت خائفة ؟ » .

فأجابت فى هدوء : « كلا ، لست أخافه الآن ، فإنى على وشك الموت .. وهذا هو السبب فى أننى لا أخشاه الآن .. على أننى قبل موتى أريد أن أزيل أقصى ما أستطيع إزالته من الضرر الذى أحدثته يومًا .. إن لك أصدقاء يساعدونك ، فإذا وقفت على سره فلسوف يخشاك .. ولن يجرؤ على استغلالك كما صنع بى !.. بل يجب أن يعاملك بالحسنى من أجل مصلحته ، إذا ما صار يخشاك ويخشى أصدقاءك » .

فهمست (لورا) : « أى سر تعنين ؟ » .

فأسندت (آن كاثريك) وجهها وساعديها إلى جدار مخزن الزوارق وقالت : آه ، لو أتيح لى أن أدفن مع أمك !.. ولكن لا أمل فى ذلك .. لا أمل للغريبة ، فقيرة مثلى !.. لن يقدر لى أن أنعم بالراحة تحت الصليب الرخامى الذى غسلته بيدى وجعلته ناصعًا نقيًا من أجلها !

وتريثت قليلاً كمن تفكر أو تحاول التفكير ، وأردفت قائلة : « ماذا كنت أقول ؟.. حينما تخطر أمك ببالى يتسرب كل شىء آخر .. » .

وذكرتها (لورا) بموضوع الحديث ، بأقصى ما وسعها من رفق .. فقالت : « آه ، نعم ، نعم .. إنك مسلوبة الحول إزاء زوجك الشرير ، وينبغى أن أساعدك .. يجب أن أطلعك على السر الذى يخشاه زوجك القاسى .. إن أمى تعرف هذا السر ، وذات يوم ـــ حين كبرت ـــ ذكرت لى شيئًا عنه .. وفى اليوم التالى ، عمد زوجك .. » .

ـــ أجل .. أجل .. أكملى ..

فوقفت تتسمع وتنظر حواليها قائلة : « صه !.. لسنا وحدنا هنا ، إننا مراقبتان .. فيجب أن أنصرف ! » .

فهمست (لورا) : « السر .. انتظرى واخبرينى بالسر » .

فأجابت (آن كاثريك) : « ليس الآن .. تعالى هنا غدًا فى هذا الموعد .. وحدك .. اذكرى هذا .. وحدك » .

وما أن نطقت بهذه الكلمة حتى اختفت عن ناظرى (لورا) مسرعة ،

فهرعت (لورا) عائدة إلى البيت وقصت على (ماريان) ما حدث !..
فهتفت (ماريان) : « أواه يا (لورا) !.. (لورا) !.. هذه فرصة أخرى
تضيع .. لو أننى كنت بالقرب منك لما استطاعت الإفلات منا .. ألم تذكر
لك شيئًا عن المكان الذى كانت تقيم فيه ، أو عن المرض الذى تعانيه ؟ » .

— كلا يا (ماريان) .. ولا كلمة .. صارحينى بما ترين فى هذا ،
فلست أدرى فيم أفكر ، أو ماذا أفعل بعد ذلك ؟

— يجب أن تحافظى بدقة على الموعد الذى ضربته لك فى مخزن الزوارق
غدًا ، وسأتبعك عن بعد .. لقد أفلتت (آن كاثريك) مرة من (وولتر
هارترايت) ، وأفلتت اليوم منك .. ولكن مهما يحدث فهى لن تستطيع
أن تفلت منى !

— هل تعتقدين بوجود ذلك السر الذى تقول إن زوجى يخشاه ؟..
هبى أن لا وجود له إلا فى مخيلة (آن كاثريك) ؟

— إننى أحكم على كلام المرأة على ضوء مسلك زوجك وأعماله ..
أعتقد أن ثمة سرًا !

* * *

وبعد الغداء أوت (لورا) إلى مخدعها .. ودعا الكونت (فوسكو)
(ماريان) إلى أن تتمشى معه فى الحقول المواجهة للبيت ، قائلاً : « إن
رجلاً مسنًا فى بدانة (فوسكو) خير بالتأكيد من أن تكونى بلا رفيق على
الإطلاق .. » .

وقطع عليهما نزهتهما وصول العربة ، فإذا سير (برسيفال) قد عاد ..
ومهما كانت النتائج الأخرى لرحلته فقد بدا أنها لم تنته إلى تبديد سورة
غضبه ، إذ سأل فى خشونة : « أين (الليدى جلايد) ؟ » .

ولما أجابته (ماريان) بأنها فى مخدعها قال : « أبلغيها أن لا تنسى موعدها
فى المكتبة بعد ظهر اليوم .. وسأنتظرها خلال نصف ساعة !.. » .

وإذ ذاك ودع الكونت (ماريان) بانحناءة رائعة وهى تتركه لتعود
أدراجها إلى البيت .. ثم قال للسير (برسيفال) : « نبئنى .. هل استمتعت
برحلة طيبة ؟ » .

— سحقًا لها من رحلة !.. أريد أن أتناول غدائى .

— وأنا أريد خمس دقائق أحدثك فيها يا (برسيفال) أولاً .. خمس
دقائق فقط يا صديقى .. هنا فوق الحشائش ..

— وعم تريد أن تحدثنى ؟

فأجاب الكونت : « عن شئون تخصك وتهمك كثيرًا جدًا .. » .

ولم تستطع (ماريان) أن تسمع مزيدًا من حديثهما ، إذ خشيت أن
تتباطأ أكثر من ذلك .. وكانت واثقة من أن الشئون التى يعنيها تتعلق
بالتوقيع ، وأنهما كانا يتحدثان عن (لورا) وعنها هى بلا ريب .. وقد
يكون لمعرفة ما يقوله كل للآخر أهمية كبرى ، بيد أن كلمة واحدة من
حديثهما لم تتناه إلى أذنيها .. وصعدت فى السلم على عجل وقد استل
القلق قواها ، فأبلغت (لورا) رسالة زوجها ، ثم عادت إلى قاعة
الجلوس .. وإذا الباب يفتح بخفة ويطل منه الكونت قائلاً :

ــ ألف معذرة ومعذرة يا آنسة (هالكومب) .. إنما أجرؤ على إزعاجك لأننى أحمل أنباء طيبة .. لقد رأى (برسيفال) من الأوفق أن يغير رأيه ويرجئ أمر التوقيع فى الوقت الحاضر .. وأرجو أن تقدمى أطيب احتراماتى حين تذكرين هذا الأمر (لليدى جلايد) ..

ثم تركها قبل أن تفيق من دهشتها . ولم يكن ثمة شك فى أن هذا التبدل الكبير يرجع إلى نفوذ (فوسكو) ، فأسرعت تصعد فى السلم ثانية وأزجت إلى (لورا) النبأ ..

ــ إن الأمر يبدو مستحيلاً يا (ماريان) .. إذا كان الهدف من توقيعى هو الحصول على مبلغ من المال تمس (برسيفال) الحاجة إليه ، فكيف يمكن إرجاء هذه المسألة ؟

ــ لست أدرى .. فإن سير (برسيفال) عند عودته لم يكن قد غير رأيه .. ثم استطاع (فوسكو) إقناعه بتغييره .. ليتنا نعرف سر ذلك !

وأقبل المساء ، وولى .. وكان حديث سير (برسيفال) مع صديقه قد هذب من مسلكه ، لا سيما نحو زوجته .. ودهشت (لورا) إذ ناداها باسمها مجردًا ، وسألها عما إذا كانت قد تلقت أنباء من عمها فى الفترة الأخيرة .. كما أظهر لها من اللطف والرعاية فى عشرات من الأمور الأخرى التافهة مما أعاد إلى ذهنها ذكرى الأيام التى قضاها فى (ليمريدج) فى فترة الخطوبة !

على أن (ماريان) كانت قد خبرت من أمور سير (برسيفال) ما جعلها تعتقد أنه أشد ما يكون زيفًا ونفاقًا حين يغالى فى المجاملة والتظرف ..!

* * *

وفى صباح اليوم التالى ، غادرت (لورا) مائدة الإفطار لتتمشى فى اتجاه البحيرة .. وودت (ماريان) أن ترافقها ، لولا أنها خشيت أن يثير خروجهما معًا شكوك الآخرين .. والأنكى من هذا ، أن (آن كاثريك) لو رأت (لورا) تصطحب شخصًا آخر ، لكان من المحتمل أن تفقد ثقتها بها ، فلا يتيسر استعادة هذه الثقة بعد ذلك !

لهذا آثرت (ماريان) الانتظار فى البيت ، متذرعة بأقصى ما فى وسعها من صبر ، حتى جاء الخادم لتنظيف المائدة .. وعندما غادرت الغرفة ، لم تر أثرًا للسير (برسيفال) والكونت ..

* * *

لم تجد (لورا) حين بلغت مخزن الزوارق أحدًا ، فدخلت وجلست تنتظر بضع دقائق . بيد أن قلقها جعلها تنهض ثانية لتتمشى قليلاً حول المكان .. وعند الباب ، لمحت علامات على الرمال ، فانحنت تفحصها ، وإذا بها تكتشف أن تلك العلامات كانت كلمة كتبت بحروف كبيرة ..

وكانت تلك الكلمة : « نقبى ! » فنبشت سطح الرمال قليلاً ، وإذا بها تجد قصاصة من الورق مخبأة .. كانت رسالة من (آن كاثريك) هذا نصها :

« رآنى بالأمس معك رجل طويل بدين متقدم فى السن .. فاضطررت إلى الفرار كى أنجو بنفسى .. وعجزت قدما الرجل الثقيلتان عن اللحاق بى ، ففقد كل أثر لى بين الأشجار !.. لن أجرؤ على المجازفة بالعودة إلى هنا اليوم ، ومن ثم أكتب هذه الرسالة فى الساعة السادسة من صباح اليوم لأدسها فى الرمال .. وحين نعاود الحديث ثانية عن سر زوجك الشرير ، ينبغى أن نتحدث فى جو آمن ، أو لا نتحدث على الإطلاق !.. حاولى أن تتذرعى بالصبر ، وأعدك بأنك سوف ترينني مرة أخرى ، فى القريب .. » .

وبعد أن قرأت (لورا) الرسالة ، عادت إلى داخل مخزن الزوارق ، حيث جلست تعيد قراءتها بإمعان .. وفيما هى تقرأ ، سقط على الورق ظل ، فرفعت بصرها .. وإذا سير (برسيفال) واقف بالباب يرقبها ، وعلى فمه ابتسامة خبيثة !

* * *

١٢ ــ غضبة سير برسيفال

هبت (لورا) واقفة وقد ندت منها صرخة ذعر ، وحاولت إخفاء الرسالة عن ناظريه ، فقال : « لا داعى لإخفائها ، فقد قرأتها .. إذ نبشت فى الرمال منذ ساعتين وأخرجتها ، ثم دفنتها ، وأعدت كتابة الكلمة على الرمال ، وتركتها فى انتظارك !.. إذن ، فقد قابلت (آن كاثريك) سرًا بالأمس .. إننى لم أضبطها بعد ، ولكنى ضبطتك أنت .. هات الرسالة ! » .

وكانت (لورا) وحيدة أمامه فلم تستطع أن ترفض .. وأخذ بذراعها وقادها إلى البيت خلال ممر غريب .. ممر لا أمل فى أن يلتقيا فيه بـ (ماريان) .. وفى أثناء الطريق سألها : « ماذا قالت لك (آن كاثريك) أمس ؟.. إننى أصر على سماع كل كلمة .. من البداية إلى النهاية » .

وكانت قبضته القاسية تطبع أثرها على ذراع المسكينة .. وإذ كانت وحيدة معه ، وخائفة ، فقد مضت تسرد له كل شىء ، حتى إذا انتهت ، رمقها قائلاً وهو يضحك ساخرًا : « إننى أعتزم استخلاص بقية القصة من فمك .. اتفهمين ؟ » .

فقالت (لورا) : « ولكنى ذكرت لك كل ما أعرف ! » .

فابتسم ساخرًا وقال : « لا .. بل أنت تعرفين أكثر مما اخترت أن تفضى به ، وسأنتزع منك البقية فى البيت ، إذا لم أنتزعها منك هنا الآن ! » .

ثم لاذ بالصمت ، حتى صارا على مرمى البصر من البيت ، فتوقف ثانية وقال : « هل تفيدين من الفرصة الثانية التى أمنحك إياها ؟.. هلا فكرت فى الأمر وصارحتنى بالبقية ؟ » .

فأعادت (لورا) العبارات التى سردتها من قبل ، فصاح بها : « لعنة الله على عنادك !.. إنك لا تستطيعين أن تخدعينى .. وإنك لتعرفين أكثر مما شئت أن تذكرى .. غير أننى سأنتزع سرك منك .. وسأنتزعه من تلك الأخت التى لك أيضًا !.. لن أترككما تتآمران وتتهامسان فيما بينكما .. لن ترى إحداكما الأخرى حتى تعترفا بالحقيقة كاملة .. سأراقبكما .. صباحًا ، وظهرًا ، ومساء ، حتى تبوحا لى بكل شىء ! » .

وأصم أذنيه عن كل ما راحت زوجته تقوله .. حتى دخلا البيت ، فأخذها مباشرة إلى مخدعها . وكانت خادمتها (فانى) هناك .. فتاة طيبة وفية لازمتها من سنوات ، ووفدت فى صحبتها من (ليمريدج » .. وقد كانت المخلوقة الوحيدة فى (بلاكووتر بارك) ، التى تستطيع (لورا) و (ماريان) أن تركنا إلى إخلاصها لهما ..

وصاح سير (برسيفال) بالخادم : « اخرجى !.. سأحرص قبل كل شىء على أن لا تتدخلى فى هذا الأمر .. خذى أجر شهر وغادرى هذا البيت اليوم .. وإذا احتاجت سيدتك إلى خادم فسوف تكون لها واحدة اختارها بنفسى ! » .

ثم دفع زوجته إلى داخل الغرفة وأغلق الباب دونها بالمفتاح .. وهبط السلم فأرسل خادمًا تتولى الحراسة !

* * *

فى تلك الأثناء كانت (ماريان) قد بلغت مخزن الزوارق ، فوجدته خاويًا ، وأخذت تنادى بصوت خافت فى البداية ، ثم بصوت أخذ يرتفع رويدًا .. لكن أحدًا لم يجبها ، أو يلوح لها ؟!.. وعلى قدر ما كانت ترى وتسمع ، لم يكن فى المكان وما جاوره من مخلوق سواها .. فأخذ قلبها يدق بقوة ، وهرعت عائدة إلى البيت .. وكان أول شخص قابلته فى الردهة الخادمة (فانى) .. فلما رأتها باكية دامعة سألتها :

ــ ألا تعلمين إذا كانت (ليدى جلايد) قد عادت من نزهتها أم لا ؟

ــ لقد عادت سيدتى منذ برهة قصيرة مع سير (برسيفال) .

ثم قصت على (ماريان) نبأ فصلها فجأة من الخدمة ، ومنعها من أن ترى سيدتها ولو للحظة واحدة لتودعها ، إذ إنها بمجرد أن تفرغ من إعداد حقيبتها ستقصد إلى فندق القرية ــ حيث رأت أن تمضى ليلتها ــ ثم ترحل مبكرة فى الصباح التالى عائدة إلى أهلها فى (كمبرلاند) دون أن تتخلف فى لندن ، إذ كانت غريبة عنها تمامًا .

وكانت أمام باب مخدع (لورا) خادمة ضخمة الجسم ، تعرف (ماريان) أنها تدعى (مرجريت بوزشر) ، وأنها أغبى خادمات البيت ،

وأقلهن عناية ، وأصلبهن عنادًا ، فسألتها : لمَ تقفين هنا ؟.. « ألا ترين أننى أبغى الدخول ؟ » .

فأجابت الخادم وعلى وجهها تقطيبة عريضة : آه .. ولكنك يجب ألا تدخلى ! » .

ـــ كيف تجرؤين على أن تحدثينى بهذه اللهجة ؟.. تنحى عن الباب حالاً !

فبسطت الخادم يدًا حمراء ضخمة وذراعًا إلى كل من جانبيها ، لتسد الباب ، ثم قالت : « أنها أوامر السيد ! » .

وأحست (ماريان) أنها بحاجة إلى كل ما فى طوقها من ضبط للنفس ، لتتبين أن لا جدوى من مناقشة (بورشر) ، وإنما يجب أن توجه ما تريد من كلام إلى سيدها !

وكان هذا فى غرفة المكتبة ، يقف مع الكونت ومدام (فوسكو) متقاربين .. وفيما هى تفتح الباب ، سمعت الكونت يخاطب سير (برسيفال) قائلاً : « كلا وألف كلا ! .. فسارت إلى سير (برسيفال) وحدجته بنظراتها قائلة : « هل أفهم أن مخدع زوجتك سجن ، وأن خادمتك هى السجانة التى تحرسه ؟ » .

فأجابها سير (برسيفال) فى برود : « نعم .. هذا ما ينبغى أن تفهميه .. وحاذرى أن تضاعفى المهمة الملقاة على عاتق خادمتى .. حاذرى فإن غرفتك ليست سجنًا هى الأخرى .. حتى الآن ! » .

فصاحت (ماريان) وقد بلغ غضبها أوجه : « بل فلتكن أنت حذرًا فى معاملة زوجتك ، وفى تهديدى .. إن فى انجلترا قوانين تحمى النساء من القسوة .. وإذا مسست شعرة من رأس (لورا) ، أو جرؤت على أن تعترض حريتى ، فسألجأ إلى هذه القوانين ! » .

وبدلاً من أن يجيبها ، التفت إلى الكونت (فوسكو) متسائلاً : « ألم أقل لك ؟.. ما قولك الآن ؟ » .

فأجاب الكونت : « نفس ما قلت من قبل .. لا ! » .

ثم ألقى الكونت إلى زوجته نظرة ذات معنى من عينيه الرماديتين الهادئتين الباردتين ، فتحركت مدام (فوسكو) متجهة إلى جوار (ماريان) ، وقالت لسير (برسيفال) فى لهجة باردة كالثلج : « أعرنى انتباهك لحظة يا سير (برسيفال) .. إن علىّ أن أشكرك لضيافتك ، وأن أرفضها من الآن .. فلن أبقى فى بيت تعامل فيه السيدات كما عوملت اليوم زوجتك والآنسة (هالكومب) ! » .

وتراجع سير (برسيفال) خطوة إلى الوراء ، وحدجها بنظرة صامتة خرساء .. وبدا أن هذه العبارة ـــ التى كان يعرف ، كما عرفت (ماريان) ، أن مدام (فوسكو) ما كانت لتجرؤ على التفوه بها دون إذن زوجها ـــ قد سمرته فى مكانه ! ونظر الكونت إلى زوجته فى إعجاب ، ثم قال وهو يقترب فيتناول يدها : أنا طوع أمرك يا (اليانور) .. « وفى خدمة الآنسة (هالكومب) ، إذا شرفتنى بقبول كل ما فى وسعى تقديمه من المساعدة .. » .

فصاح سير (برسيفال) إذ اتجه الكونت وزوجته فى هدوء إلى الباب : « سحقا لك !.. ماذا تعنى ؟ » .

ـــ فى أوقات أخرى أعنى ما أقول ، أما فى هذه المرة فأنا أعنى ما تقول زوجتى .. لقد استبدلنا وضعينا يا (برسيفال) فى هذه المرة ، فأصبح رأى مدام (فوسكو) هو رأيى ..

فقال (برسيفال) فى لهجة حاسمة : « لك ما شئت .. امض فى طريقك وسترى نتيجة ذلك ! » .

ثم نحى الكونت عن طريقه وغادر الغرفة ، فنظرت مدام (فوسكو) إلى زوجها مستفسرة ، وسألته : « هل ذهب فجأة دون تمهيد .. ما معنى ذلك ؟ » .

فأجابها الكونت : « معناه أنك وأنا معًا قد أعدنا أسوأ رجال انجلترا طبعًا إلى صوابه !.. » . ثم فتح الباب ودلف إلى الردهة .. وسمعته (ماريان) يتهامس مع (برسيفال) .. ثم توقف الهمس وأطل الكونت داخل الحجرة قائلاً : « يسعدنى يا آنسة (هالكومب) أن أنبئك بأن (ليدى جلايد) قد عادت ثانية سيدة بيتها .. وقد رأيت من الأنسب أن تسمعى نبأ هذا التطور الطيب منى ، لا من سير (برسيفال) !

وكان سير (برسيفال) يقف فى الردهة حين هرعت إلى السلم .. وسمعته يقول : « أريد أن أتحدث إليك يا (فوسكو) .. » فأجاب الآخر : « وأنا أريد أن أخلو إلى نفسى قليلاً لأفكر .. انتظر لما بعد يا (برسيفال) » .

* * *

هبت (لورا) صائحة مغتبطة حين دخلت (ماريان) غرفتها ـــ وكان الباب قد فتح ، وانصرفت السجانة (مرجريت بورشر) ـــ وهتفت (لورا) : « كيف دخلت ؟.. من أذن لك ؟.. ما أظنه سير (برسيفال) ؟ » .

بل الكونت طبعًا ، إذ أصبح نفوذه فى هذا البيت ..

ـــ لا تحدثينى عنه .. إنه شر إنسان على قيد الحياة .. إن الكونت جاسوس لعين !

وانبعثت طرقات خفيفة على الباب ، ففتحته (ماريان .. وإذا أمامها مدام (فوسكو) ، وابتدرتها هذه قائلة : « لقد سقط منديلك فى الطابق السفلى يا آنسة (هالكومب) ، فخطر لى أن أحمله إليك وأنا فى طريقى إلى حجرتى » .

وكان وجهها ـــ الذى كان بطبيعته شاحبًا ـــ شديد البياض بدرجة فظيعة .. ويداها ـــ اللتان كانتا فى العادة ثابتتين رزينتين ـــ ترتجفان فى عنف !.. وتجاوزت نظراتها (ماريان) فى غيظ إلى (لورا) .. لقد أنصتت تتسمع قبل أن تطرق الباب ـــ فرأت (ماريان) ذلك فى وجهها الأبيض . ويديها المرتجفتين ، ونظراتها إلى (لورا) !

وإذ انصرفت وأغلق الباب ، هتفت (ماريان) : « أواه ، يا (لورا) .. (لورا) ، لسوف نندم على أنك وصفت الكونت بأنه جاسوس لعين ! » .

فقالت (لورا) : « ما كنت لتترددى يا (ماريان) فى نعته بهذه الصفة لو عرفت ما أعرف !.. كانت (آن كاثريك) على حق كان هناك شخص ثالث يراقبنا بالأمس » .

ـــ هل أنت واثقة من أنه الكونت ؟

ـــ تمام الثقة .. إنه كان جاسوس سير (برسيفال) ، كان مخبر سير (برسيفال) .. وقد حرض سير (برسيفال) على أن يكمن طيلة الصباح فى انتظار (آن كاثريك) وانتظارى !

ـــ وهل ضبط (آن) ؟ هل قابلت (آن) هذا الصباح عند البحيرة ؟

فأجابت (لورا) بأن أخذت تقص على أختها أحداث الصباح التى أدت إلى إقدام سير (برسيفال) على حبسها فى حجرتها !.. إلى أن قالت حين فرغت : « ماذا فى وسعنا أن نفعل يا (ماريان) ؟.. آه لو استطعنا فقط أن نهرب من هذا البيت فلا نراه مرة أخرى قط ! » .

فأجابتها (ماريان) : « إننى أعتزم أن أكتب أولاً إلى مستر (جيلمور) ، فبرغم قلة ما أعرف عن القانون ، إلا أننى أعتقد أنه يكفل حماية امرأة مثلك من العنف الذى تعرضت له اليوم .. كذلك اعتزم أن أكتب إلى مستر (فيرلى) بوصفه أقرب قريب لك .. فضلاً عن أنه عميد العائلة ، ولابد أن يتدخل ، وسوف يتدخل !

فهزت (لورا) رأسها فى أسى ، بينما استطردت (ماريان) قائلة : « أجل .. أنا أعلم أن عمك ضعيف وأنانى ، لكنه ليس كالسير (برسيفال) .. وليس له صديق مثل الكونت (فوسكو) .. سوف أقنعه بأن يدعونا معًا إلى (ليمريدج) » .

قالت (لورا) : « اكتبى هنا ولا تفارقينى » .

فقالت : « لقد قضينا وقتًا طويلاً على انفراد .. وفرصتنا الوحيدة هى فى أن لا نثير أية شكوك جديدة .. فأغلقى الباب دونك بالمفتاح يا (لورا) ، ولا تفتحيه لإنسان سواى !

* * *

ومضت (لورا) إلى حجرتها فكتبت الخطابين .. ثم خطر لها أن الأسلم أن تذهب على قدميها إلى فندق القرية فتسلم الخطابين إلى (فانى) لترسل أحدهما بالبريد إلى المحامى فى لندن ، وتسلم الآخر إلى مستر (فيرلى) يدًا بيد عند وصولها إلى (ليمريدج) ..

وفى طريقها إلى الفندق ، لم تكن خلفها سوى عربة نقل فارغة ، يجلس الحوذى فى مقدمتها .. غير أنه خيل إلى (ماريان) ـــ إذ نظرت خلفها ـــ أنها لمحت قدمى شخص يسير خلف العربة مستترًا بها ، فتريثت عند أول مفترق للطرق إلى أن مرت العربة .. وعندئذ تبينت أنها كانت واهمة ، إذ كانت الطريق وراءها خالية تمامًا ، فاستأنفت سيرها إلى الفندق حيث سلمت الخطابين إلى (فانى) ذاكرة لها أنهما ذوا أهمية قصوى لمصلحة سيدتها !

وكان وقت العشاء قد حان حين عادت إلى القصر ، فلاحظت أن الكونت بدا محتقن الوجه ، مبهور الأنفاس ، غير معتنٍ بأناقته المعهودة .. وطيلة العشاء ظل صامتًا ، شأنه شأن سير (برسيفال) ، بدا أنه يعانى

قلقًا خفيًا !.. فلما نهضوا عن المائدة سارعت مدام (فوسكو) إلى مغادرة الحجرة .. وأرادت (ماريان) أن تحذو حذوها ، لكن الكونت استوقفها وتعمد أن يعطلها حوالى نصف الساعة بأن راح يحدثها عن الموسيقى الإيطالية !

وأخيرًا صعدت (ماريان) إلى الطابق العلوى ، لكنها لم تر لمدام (فوسكو) أثرًا .. وحين سألت (لورا) عنها وجدتها لا تدرى عنها شيئًا .. ولبثت الأختان معًا حتى الساعة العاشرة ، ثم نهضت (ماريان) متمنية لأختها ليلة طيبة ..

وفى مخدعها ، وقفت عند النافذة تتأمل الليل .. وفجأة سمعت أصواتًا فى الحديقة . كان سير (برسيفال) يقول : « لم لا تدخل وتجلس ؟.. » فأجابه صوت الكونت (فوسكو) خافتًا : « أريد أن أطمئن إلى انطفاء النور فى غرفة الآنسة (هالكومب) أولاً ! » .

* * *

١٣ ـ محادثة مهمة

تراجعت (ماريان) عن النافذة المفتوحة وقلبها يدق فى عنف .. بينما عاد سير (برسيفال) يتساءل : « وأى ضرر يترتب على النور ؟ » .

ـ إنه يدل على أنها لم تأو إلى فراشها بعد .. وأنها لمن الذكاء بحيث ترتاب فى أى شىء ، ومن الشجاعة بحيث تهبط لتنصت إلى حديثنا إذا وجدت الفرصة !.. فصبرًا يا (برسيفال) .. صبرًا !

ـ إنك دائمًا تتكلم عن الصبر ..

ـ سأتكلم عن شىء آخر حين ينطفئ النور فى تلك النافذة ، وحين ألقى نظرة على الحجرات القائمة على جانبى المكتبة وعلى السلم كذلك ..

واكتفت (ماريان) بما سمعت ، فغادرت النافذة وأطفأت الشمعة .. ثم جلست على سريرها تفكر ، وقد استقر رأيها على أن تتسمع كلام الرجلين إذا ما جلسا ، فلربما توقف شرف (لورا) ، وسعادة (لورا) بل وحياة (لورا) ، على حدة سمعها !

وكان واضحًا من عبارة الكونت أن حديثهما سيدور فى حجرة المكتبة ، التى كانت لها ـ كما للحجرات الأخرى فى الطابق الأرضى ـ شرفة تمتد خارجها . وكان مخدع (ماريان) فى الطابق الأول ، يبعد السقف المستوى للشرفة عن نافذته بحوالى ثلاثة أقدام .. فخلعت الفتاة ثوبها الحريرى ، فى الظلام ـ لأن أقل حفيف منه فى سكون الليل كفيل

بأن يشى بها ! — وارتدت معطف سفر أسود ، ورفعت غطاء الرأس المتصل به على رأسها .. ثم أغلقت باب حجرتها بالمفتاح من الداخل واقتربت من النافذة المفتوحة ، فلم يصل إلى أذنيها أى صوت .. وواجهتها الظلمة الكثيفة الداكنة ، لا يتخللها سوى بصيص من الضوء منبعث من حجرة المكتبة على الحديقة ..

وبعد أن تلت صلاة صامتة ، تدلت فى هدوء من النافذة ، ووضعت قدميها فى حذر على سقف الشرفة .. ثم راحت تزحف عليه وقد أمسكت بإحدى يديها أطراف معطفها حولها ، وباليد الأخرى جعلت تتحسس جدار البيت ، حتى بلغت البقعة التى فوق حجرة المكتبة ، فانبطحت عليها ، وألصقت أذنها بحافة سقف الشرفة !

وسمعت صوت الكونت (فوسكو) ينبعث من الحجرة التى تحتها قائلاً : « أف !.. ما أشد الحر هنا !.. » وأعقب هذه الملاحظة ضجيج مقاعد الحديقة تجر على الرصيف الحجرى تحت الشرفة ، الأمر الذى اطمأنت معه الفتاة إلى أن غريميها سوف يجلسان أقرب ما يكونان إليها !

ثم قال الكونت : « الآن نستطيع أن نتكلم دون أن نخشى المباغتات .. فقد أوت الآنسة (هالكومب) إلى فراشها ، وبات الطابق الأرضى آمنًا تمامًا !.. الآن ، أنصت إلىّ يا عزيزى (برسيفال) : إننا عدنا إلى هذا البيت من القارة وشئوننا مرتبكة إلى أخطر درجة .. » .

— أوجز .. إننى أبغى بضعة آلاف من الجنيهات ، وأنت تريد بضع مئات .. وبغير هذا المال سيحيق بنا الدمار !

— حسنًا يا (برسيفال) ، إذا استعملنا لغتك الإنجليزية الجافة ، قلنا إنك أردت بضعة آلاف وأنا أردت بضع مئات .. والطريق الوحيد للحصول عليها هو معونة زوجتك .. فهل تذكر ما قلته لك عن زوجتك أثناء عودتنا إلى انجلترا .. وما قلته لك مرة ثانية حين رأيت أى نوع من النساء هى الآنسة (هالكومب) ؟

— كيف تريد منى أن أتذكر ؟ ثرثرت كثيرًا كعادتك ..

— قلت لك : هناك سبيلان يستطيع بهما الرجل أن يسيطر على المرأة : أحدهما أن تضربها — وهى طريقة يستخدمها العامة عادة ، ولكن تنفر منها الطبقات المهذبة المثقفة — والسبيل الثانى هو أن لا تدع المرأة قط تثير غضبك ، وبهذه الطريقة يستطيع الرجل أن يروض الحيوانات ، والأطفال ، والنساء ، اللاتى لا يزدن على أن يكن أطفالاً كبارًا !.. ولقد أوصيتك بأن تذكر هذه الحقيقة البسيطة إذا أردت زوجتك على أن تساعدك فى الحصول على المال .. فهل تذكرت ذلك ؟.. لا ، بل إن غضبك الأهوج ضيع توقيع زوجتك على الوثيقة .. وقد حاولت أن أزيل الضرر بإقناعك بتغيير رأيك ، وبإخبار الآنسة (هالكومب) أن الأمر قد أرجئ .. فما الذى فعلته بعد ذلك ؟.. سمحت لغضبك بأن يغلبك مرة أخرى .. وبلغ بك الجنون أن هددت بحبس الآنسة (هالكومب) كما حبست — بحماقتك — زوجتك .. ونتيجة لذلك كتبت الآنسة (هالكومب) خطابًا إلى المحامى ..



— ماذا يا (فوسكو) ؟

وسقط على أرض الشرفة مقعد ، أحدث ضجة نمت عن أنه ركل بقدم مغيظة .. وكان من حسن حظ (ماريان) أن أثار حديث الكونت غضب سير (برسيفال) — إذ انبعثت منها حين سمعت أن عملها افتضح صيحة دهشة كان لابد من أن تسمع ، لولا أن ضجة المقعد الذى وقع ، أنقذتها !

وسمعت الكونت يقول : « فلتشكر طالعك السعيد لوجودى فى البيت كى أمحو الضرر ، بمجرد أن ترتكبه .. فلقد تبعتها إلى القرية بعد ظهر اليوم ، ورأيتها تسلم الخطابين إلى (فانى) !.. فأرسلت زوجتى بعد العشاء إلى الفندق .. وكان الأمر سهلاً .. إذ وجدت الخادم تشرب الشاى هناك ، فزعمت لها أنها تحمل رسالة من الآنسة (هالكومب) .. ثم دست لها فى الشاى شيئًا ، فإذا الفتاة تستغرق فى النوم .. وشد ما ستكون دهشة المحامى غدًا حين يتسلم ظرفا به ورقة بيضاء !.. وقد نسخت زوجتى صورة من الخطاب المرسل للمستر (فيرلى) ، وتركت الأصل يأخذ طريقه إليه ، فقد ينفعنا فيما بعد .. » .

— يا إلهى !.. ليتنى حبستها فى غرفتها !

— أين عيناك يا (برسيفال) ؟.. هل تستطيع أن تنظر إلى الآنسة (هالكومب) ولا ترى أن لها بعد نظر الرجال وعزيمتهم ؟.. إنى لأستطيع أن أواجه العالم كله معها لو كسبتها صديقة !.. أما إذا كانت هذه المرأة عدوة ، فإنى بكل ذكائى وخبرتى .. أنا (فوسكو) الذى يبارى الشيطان

دهاء — كما قلت لى مائة مرة — أضطر إلى التزام الحذر .. فإن هذه المخلوقة العظيمة التى تقف بكل قوى حبها وشجاعتها ، راسخة كالصخرة ، بيننا وبين زوجتك اللطيفة المسكينة .. أقول إن هذه المرأة الرائعة — التى أعجب بها من كل قلبى ، وإن وقفت ضدها حرصًا على مصالحك ومصالحى — تدفعها أنت إلى العمل ضدنا يا (برسيفال) !.. يا (برسيفال) !.. إنك تستحق أن تفشل .. بل إنك فشلت !

— من السهولة بمكان أن تؤنبنى .. ولكن أصعب من هذا أن تذكر ما ينبغى عمله !

— حقًا ؟.. إليك ما ينبغى عمله : انفض يدك فورًا من إدارة العملية ، ودعها فى المستقبل فى يدى وحدى !

— وماذا تقترح لو تركت لك الأمر كله ؟

— أجبنى أولاً : هل يكون الأمر بين يدى أو لا يكون ؟

— هب أنه بين يديك ، فما هى خطتك ؟

— لنبدأ ببضعة أسئلة يا (برسيفال) ؟.. هل سيقبل دائنوك أن ينتظروا ثلاثة شهور أخرى ؟

— هكذا أنبأنى المحامى ..

— وبعد تلك الشهور الثلاثة : أليس أمامك — حقًا وصدقًا — أى سبيل فى الدنيا لدفع ديونك سوى معونة زوجتك ؟

— ابدًا ..

ــ وإلى أى حد ذهبت فى استغلال مال زوجتك حتى هذه اللحظة ؟

ــ لا شىء سوى فوائد العشرين ألف جنيه التى تملكها ، وهى لا تكاد تسد نفقاتنا اليومية !

ــ ما الذى تتوقعه من زوجتك ؟

ــ ثلاثة آلاف من الجنيهات سنويًا حين يموت عمها !

ــ ثروة لا بأس بها يا (برسيفال) .. وأى نوع من الرجال هذا العم ؟.. أهو متزوج ؟

ــ كلا !.. ولو كان متزوجًا وله ابن ، لما كانت (ليدى جلايد) خليفته فى الوراثة .. إنه غبى ، أنانى عجوز ، يتحدث دوامًا عن حالته الصحية الراهنة ..

ــ الرجال الذين من هذا النوع يعيشون طويلاً يا (برسيفال) ، ويتزوجون فى أبعد سن تتوقع فيها زواجهم !.. إننى لا أتوقع كثيرًا أن تسنح لك فرصة تلك الآلاف الثلاثة من الجنيهات فى العام يا صاحبى !.. فهل لا يوجد أمامك ميراث آخر ؟

ــ لا شىء !

ــ لا شىء إطلاقًا ؟

ــ لا شىء إطلاقًا .. اللهم إلا فى حالة موتها !

ــ آها !.. فى حالة موتها ..؟

ثم سادت فترة صمت .. وازداد عناء (ماريان) من جراء المطر الذى بدأ يهطل .. بينما استأنف الكونت حديثه قائلاً :

ــ هل يهمك أمر زوجتك كثيرًا يا (برسيفال) ؟

ــ (فوسكو) !.. هذا سؤال أكثر صراحة مما ينبغى ..

ــ وإنى لأكرره ، فأنا رجل صريح ..

ــ لماذا ترمقنى هكذا ؟

ــ ألا تجيبنى ؟ حسنًا ، لنفترض أن زوجتك ماتت قبل انتهاء الصيف !

ــ دع هذا يا (فوسكو) !

ــ لنهب أن زوجتك ماتت ..

ــ قلت لك دع هذا ..

فى هذه الحالة تكسب عشرين ألفًا من الجنيهات ، وتخسر ..

ــ أخسر فرصة الحصول على ثلاثة آلاف سنويًا ..!

ــ فرصة واهية يا (برسيفال) كما ذكرت .. وأنت تريد مالاً فى الحال ، ففى مركزك الكسب محقق ، والخسارة مشكوك فيها !

ــ تكلم عن نفسك كما تتكلم عنى .. أن موت زوجتى يعود على زوجتك بعشرة آلاف من الجنيهات .. ويبدو أنك برغم حدة ذكائك قد نسيت ميراث زوجتك .. لا تنظر إلىّ هكذا !.. إنك بنظراتك وأسئلتك تجعل جلدى يقشعر !

ــ إنى أتحدث عن موت زوجتك كأمر محتمل .. لِمَ لا ؟.. إن المحامين الكبار يقدرون أمثال هذا الاحتمال يوميًا .. والآن ، يبدو موقفك واضحًا .. إذا عاشت زوجتك فلن تستطيع سداد ديونك إلا بتوقيعها .. وإذا ماتت زوجتك تستطيع دفع ديونك بوفاتها

فغمغم سير (برسيفال) قائلاً : « يا لثرثرتك !.. إن من يسمعك يحسب إننى حصلت على توقيع زوجتى فعلاً ! » .

فأجاب الكونت : إنك تركت المسألة فى يدى ، وأمامى ثلاثة شهور ، فإذا انتهت فستتبين بنفسك ما إذا كانت (ثرثرتى) ذات قيمة أم لا .. أما وقد فرغنا يا سير (برسيفال) من حديث بالشئون المالية الليلة ، فلعلك تريد أن تستشيرنى فى تلك المشكلة الثانية : (آن كاثريك) ؟ » .

ــ أصغ إلى يا (فوسكو) .. لقد عرف كل منا الآخر من زمن بعيد ، لكن كلاً منا كان يكتم عن الآخر أسراره .. أليس كذلك ؟

ــ لست فضوليًا يا (برسيفال) ، وإنما أسألك فى عبارة صريحة ، هل تريد معونتى ؟

ــ نعم ، أنا فى أشد الاحتياج إليها .. لقد سمعت شائعات عن وجود (آن كاثريك) فى المنطقة المحيطة بنا .. وقد ذهبت أمس الأول إلى ولمنجهام ــ القرية التى تعيش فيها السيدة (كاثريك) ــ فوجدتها لا تعرف شيئًا عن مكان ابنتها .. واليوم ، بذلت ما فى وسعى كى أعثر على (آن كاثريك) ، لكنى فشلت ..

ــ أجل ، فشلت ..

ــ (فوسكو) .. أنا ضائع ما لم أجدها ..

ــ ها !.. هل الأمر من الخطورة بهذه الدرجة ؟

ــ لقد أريتك الخطاب الموجه لزوجتى والذى دسته (آن كاثريك) فى الرمل .. إنها تعرف السر ..

ــ هل عرفته منك ؟

ــ كلا ، بل من أمها !

ــ امرأتان تقفان على أخص دخائلك .. هذا أمر غاية فى السوء يا صديقى !.. لكن ، هات ما عندك ، وسأعرف ما ينبغى عمله .. ما الخطر الذى يتهددك فى الوقت الحاضر ؟

ــ إن (آن كاثريك) تقيم الآن فى منطقة قريبة .. وهى على اتصال بـ (ليدى جلايد) .. وأى إنسان يقرأ الخطاب الذى أخفته فى الرمال ولا يفهم منه أن زوجتى وقفت هى الأخرى على السر ، مهما تمعن فى الإنكار ؟

ــ إذا كانت (ليدى جلايد) تعرف السر ، فلابد أنها تعرف أيضًا مبلغ خطره عليك .. وبوصفها زوجتك لابد من أن صونه أمر يهمها ..

ــ أتعتقد ذلك ؟.. ربما كان يهمها لو أنها كانت متعلقة بى .. لكنى عقبة فى سبيل رجل آخر كانت تحبه قبل أن تتزوج منى ، ولا تزال تحبه حتى الآن .. إنه مدرس رسم يدعى (هارترايت) .. من الذى أعان (آن كاثريك) على الفرار من مستشفى المجاذيب ؟.. (هارترايت) !.. من الذى عاد فقابلها فى (كمبرلاند) ؟.. (هارترايت) !.. وفى المرتين تحدث إليها على انفراد ، ومن ثَمَّ فأنا واثق من أنه يعرف السر .. وأن زوجتى تعرف السر كذلك .. ولو أتيح لهما يومًا أن يجتمعا ثانية لصار من مصلحتها ومصلحته أن يستخدما معلوماتهما ضدى !

— أجل .. أجل .. وأين (هارترايت) هذا ؟

— إنه خارج البلاد .. وإذا كان يهمه أن يحتفظ بجلده على عظامه فإنى أنصحه بأن لا يتعجل العودة !

— وهل أنت واثق من أنه خارج البلاد ؟

— كل الثقة .. لقد وضعته تحت الرقابة منذ الوقت الذى غادر فيه (كمبرلاند) حتى الوقت الذى أبحر فيه .. أجل .. أؤكد لك أننى كنت حريصًا ، فأعطيت والدة (آن كاثريك) صيغة خطاب تكتبه إلى الآنسة (هالكومب) ، قائلة أن لا ذنب لى فى إيداع ابنتها مستشفى المجاذيب ؟.. كما بذلت أموالاً طائلة فى تعقبها بعد فرارها !.. وبرغم ذلك كله فإنها تحضر إلى هنا وتروغ منى فى أرضى بالذات !

— اطمئن يا (برسيفال) .. إن العثور على (آن كاثريك) هو أول ضرورة ، وقد أوفق فى بحثى عنها غدًا إلى نتيجة خير مما وصلت أنت إليه .. بقى سؤال أخير قبل أن نأوى إلى مضاجعنا ..؟

— وما هو ؟

— هاكه !.. قادتنى الصدفة إلى مخزن الزوارق فى الوقت المناسب كى أرى امرأة غريبة تفارق زوجتك ..

وانبعثت من عينيه نظرة حاقدة مفاجئة ، واستأنف قائلاً :

لم أكن أتجسس كما اعتقدت (ليدى جلايد) .. ولكن الصدفة لم تقربنى من المرأة الغريبة بدرجة تكفى لأن أرى وجهها بجلاء .. فلابد لى من أن أعرف كيف أستدل على فتاتنا (آن) .. ما شكلها ؟

— ألخصه لك فى كلمتين .. « إنها الصورة المريضة لزوجتى » ..

فهتف الكونت متعجبًا : « ماذا تقول ؟ » .

— تخيل شكل زوجتى بعد مرض منهك ، وأضف بعض الخلل فى عقلها ، تجد (آن كاثريك) أمامك ؟

— هل هناك صلة قرابة بينهما ؟

— بتاتًا !

— ومع ذلك فبينهما هذا الشبه ؟

— أجل .. ومع ذلك فبينهما هذا الشبه .. ما الذى يضحكك ؟

ولم يصدر رد ، لا ولا سمعت (ماريان) صوتًا .. إذ كان (فوسكو) يضحك بطريقته الصامتة الناعمة .. فكرر سير (برسيفال) سؤاله : « ما الذى يضحكك ؟ » .

فأجاب : « لعلى أضحك من أوهامى يا صديقى !.. حسنًا .. حسنًا .. حسنًا !.. سوف أعرف (آن كاثريك) حين أراها .. وهذا يكفى الليلة .. فاهدأ بالاً يا عزيزى (برسيفال) .. نم يا بنى .. نم نوم مستريحى الضمير ، وانظر ما سوف أفعله من أجلك حين يشرق نور النهار لمساعدتنا .. إن عندى خططًا أحتفظ بها هنا فى رأسى الكبير !.. سوف تدفع ديونك ، وتعثر على (آن كاثريك) .. أقسم بشرفى ليكونن لك هذا .. والآن ، طاب مساؤك » .

* * *



ولم تدر بين الرجلين كلمة واحدة بعد ذلك .. وسمعت (ماريان) الكونت يغلق باب حجرة المكتبة ، وسير (برسيفال) يحكم رتاج مصاريع النوافذ ، إذ كان المطر ينهمر بشدة ، بحيث بلل ثيابها تمامًا وتسرب إلى جسدها .. وحين حاولت أن تتحرك آلمتها المحاولة الأولى ، حتى اضطرت إلى الكف عنها .. لكنها عادت تحاول مرة أخرى فنجحت هذه المرة فى النهوض على قدميها ، وزحفت ببطء فوق سطح الشرفة ، ثم تسلقت النافذة بعناء كبير عائدة إلى مخدعها ، والساعة تدق معلنة انتصاف الليل !

ولم تكن قد فرغت بعد من مهمتها .. كان عليها أن تسجل كتابة تفصيل الحديث الذى جرى بنصه ، وهو بعد عالق بذاكرتها ! ومن ثم أضاءت شمعة وجلست وفى يدها الريشة والورق ، فأخذت تكتب بسرعة وثيابها المبللة تبعث البرد فى أوصالها .. حتى التهبت عيناها ، واتقدت رأسها بالحمى .. وجففت الحرارة جسدها ، ومع ذلك فقد راحت ترتجف من رأسها إلى قدميها ..

ثم هوت الريشة من أصابعها ، وتهاوت من مقعدها إلى الأرض فى إغماءة !

* * *

١٤ ــ الكونت فوسكو يعد عدته !

كان موعد الإفطار فى قصر (بلاكووتر بارك) متأخرًا ! لا يبكر عن التاسعة والنصف ، وقد يتأخر إلى العاشرة ..

وحين لم تظهر الآنسة (هالكومب) على المائدة أرسلت خادم لتستفسر أمرها .. فعادت الخادمة تهبط السلم عدوًا وتقول : « إن باب غرفة الآنسة (هالكومب) مغلق بالمفتاح من الداخل ، وإنها لم تتلق ردًّا على طرقاتها ، فى حين تنبعث من الغرفة أصوات ضجيج وكلام غير مسموع !

وسرعان ما ترك سير (برسيفال) والكونت مائدة الإفطار وهرعا إلى الطابق العلوى ، وهناك ألقى (فوسكو) بجسمه الثقيل على الباب المغلق فانفتح ..

وكانت الآنسة (هالكومب) تذرع الغرفة وتهذى فى هياج ، وهى محمومة . وانتقلت عينا الكونت منها إلى الريشة الملقاة على الأرض والأوراق المبعثرة على المائدة .. فتقدم من فوره وألقى نظرة على ما كتب فيها . ثم جمعها بيديه البدينتين الناصعتين ، ومضى إلى النافذة فألقى منها نظرة على سقف الشرفة .. ثم هز رأسه وقال : « إن الحظ حليفنا يا (برسيفال) .. إليك ــ فى يدى ــ نص حديثنا فى الليلة المنصرمة . ولابد أن الآنسة (هالكومب) قد أنصتت إليه من الشرفة . يا لـ (ماريان) من رائعة ! إنى لآسف لأن الضرورة تدفع كلاً منا لأن يقف ضد الآخر ! » .

فسأله سير (برسيفال) . وقد ابيض وجهه من القلق : ماذا تفعل يا (فوسكو) ؟ » .

فوضع (فوسكو) الأوراق فى جيبه وقال : « ماذا نفعل يا (برسيفال) ؟.. نؤدى واجبنا الإنسانى دون شك . إن الآنسة (هالكومب) مسلوبة الحول فى الوقت الحاضر .. فلتستدع (ليدى جلايد) وزوجتى كى تخلعا عنها ثيابها وتضعاها فى فراشها ..

ولترسل خادمًا على ظهر جواد إلى أقرب طبيب ! » .

وقبل انقضاء ساعة وصل الدكتور (داوسون) ، وكان طبيبًا محترمًا متقدمًا فى السن معروفًا فى المنطقة كلها .. ففحص (ماريان) ، ثم خرج من غرفتها بصحبة (لورا) وهبط السلم إلى الطابق الأسفل ، حيث كان سير (برسيفال) والكونت (فوسكو) ينتظران فى الردهة كى يقفا منه على النتيجة !؟.. فقال لهما : أخشى أن تكون الآنسة مصابة بحمى شديدة الخطورة ؟ » .

ودخل الكونت مع الطبيب فى حديث يتخلله المزاح ، وراح يدلى جزافًا بآرائه ونصائحه بشأن علاج المريضة !.. فنظر إليه الطبيب المسن فى دهشة يشوبها الغضب وسأله : « هل نصائحك هذه صادرة من طبيب ؟

فأجابه الكونت : لقد درست الطب عن هواية فحسب » .

ــ إنى لم آلف التشاور مع أطباء هواة !

فابتسم الكونت فى عذوبة وقال وهو يبرح البيت : « طاب يومك يا دكتور (داوسون) ! » .

* * *

كان الكونت يبغى السير حتى مخزن الزوارق ، ظنًا منه أن (آن كاثريك) لابد أن تعود إليه إن عاجلاً أو آجلاً .. وكان العثور عليها أهم ضرورة لديه .

وكان قد قضى جالسًا فى الاستراحة ما يقرب من الساعة حين سمع خطى تقترب .. فلبث فى مكانه صامتًا بلا حراك .. واقتربت الخطى حتى ظهرت أمامه على عتبة الباب قروية عجوز ، ذات وجه أسمر يطفح بالصحة .. فابتدرها الكونت وهو يتأملها بإمعان : « هل تنتظرين مقابلة أحد هنا ؟.. إنى أنتظر ومعى رسالة من (الليدى جلايد) ، لكنى لا أدرى إذا كنت المرأة التى ينبغى أن تستلمها ؟

فقالت العجوز وهى تتنفس الصعداء : « أوه ، نعم ، أنا السيدة (كليمنتس) يا سيدى . وإن تقيم عندى ، وفى وسعك أن تسلمنى الرسالة وأنت آمن !

ــ إن (ليدى جلايد) تريد من آن ــ ومنك أنت بصفتك صديقتها الحميمة ــ أن تعودا فورًا إلى لندن ، فهى على ثقة من أن سير (برسيفال) سوف يهتدى إليكما إذا بقيتما فى ضواحى (بلاكووتر) بعد الآن ..

وسوف تذهب (ليدى جلايد) نفسها إلى لندن بعد وقت قصير ، فإذا سبقتها وآن إلى هناك فسوف تسمعان أنباءها وتريانها فى خلال أسابيع قلائل !

فأجابت السيدة (كليمنتس) : « إنى لست أرجو أكثر من أن أعود بآن المسكينة فى أمان إلى لندن . لكنها لا تستطيع الانتقال الآن . أنها مريضة وملازمة فراشها . وهذا هو السبب الذى جعلها ترسلنى بدلاً من أن تحضر بنفسها ..

ــ وهل استشرتم طبيبًا بشأنها ؟

ــ كلا ، فقد خشيت أن يشيع نبأ وجودنا ..

ــ أنا نفسى طبيب ، فهل تحبين أن أذهب معك إليها فأرى ما يمكن عمله لأجلها ؟

ــ أكون ممتنة جدًا يا سيدى ، نحن نقيم فى قرية (ساندون) على مسيرة ساعة من هنا ..

وذهبا معًا إلى (ساندون) ، حتى بلغا كوخًا يبعد قليلاً عن مبانى القرية ، قالت السيدة (كليمنتس) : « إن صاحبته ــ التى أجرت لهما غرفة نوم فيه ــ وعدت بأن تكتم نبأ وجودهما ! » .

وأجفلت آن فى فراشها لدى رؤية الرجل الغريب ، فقالت السيدة (كليمنتس) : « لا بأس يا عزيزتى ، فهذا السيد صديق لـ (ليدى جلايد) ، وسوف يساعدنا ! » .

واقترب الكونت من الفراش وتأمل فى دهشة ذلك التشابه العجيب بين (آن كاثريك) و (لورا) .. ثم قال فى لهجة (أبوية) : « يا ابنتى العزيزة .. لقد أردت مساعدتك حين رأيتك عند مخزن الزوارق ، ولكنك كنت مذعورة فلم تدعينى أقترب منك أو أكلمك ! » .

ثم أدلى إليها بالرسالة التى أبلغها للسيدة (كليمنتس) من قبل .. فسألته (آن) : « ولكن كيف أتمكن من السفر إلى لندن ؟؟ إنى أحتضر ! » .

فأجابها الكونت وهو يلمس نبضها فى خفة : « سوف نرى يا عزيزتى . سأعطيك دواء يقويك على الرحلة ، إنك تثقين بى الآن ، أليس كذلك ؟ » .

فهمست (آن) وهى تبتسم له شاكرة : « نعم » .

وكانت قرية (ساندون) من الكبر بحيث تحتوى على حانوت صيدلى .. فمضى الكونت إلى هناك ليصف الدواء ويأمر بإعداده .. ثم عاد يحمله فى يده وأعطاه للسيدة (كليمنتس) قائلاً : « إنه دواء مقو عظيم الأثر ، وسيهب (آن) ولا شك قوة على النهوض واحتمال الرحلة إلى لندن ، وهى لا تستغرق غير ساعات .. فاسقيها هذا الدواء اليوم وغدًا .. وبعد غد ستكون فى حالة تمكنها من السفر .. وسألقاكما فى محطة (بلاكووتر) وأصحبكما فى قطار الظهر .. وحتى ذلك الموعد أستودعكما الله ! .. لا تخشى يا (آن) ، فإنك سترين (ليدى جلايد) فى أقرب وقت ! » .

وعاد الكونت إلى (بلاكووتر بارك) على قدميه وهو يغنى مرحًا ..

وقابله السير (برسيفال) فى الردهة ، فسأله نافد الصبر : « أين كنت ؟ هل عثرت عليها ؟ » .

فأجابه الكونت وهو يبتسم ابتسامة عريضة : « لا تشغل نفسك يا عزيزى الطبيب (برسيفال) ، إن أمورك الآن بين يدى .. تذكر اتفاقنا ! » .

* * *

وحل اليوم التالى دون أن يبدو تحسن فى حالة الآنسة (هالكومب) .. وحين عادها الطبيب أغضبه الكونت (فوسكو) للمرة الثانية بقوله : « إن علاجه خاطئ » ، ثم أضاف : « لست أقدم لك نصيحة ، وإنما حسبى أن أوجه إليك سؤالاً .. إنك تعيش على مسافة بعيدة من مراكز النشاط العلمى فى لندن وباريس ، فهل سمعت عن علاج آثار الحمى بتقوية المريض الضعيف بالكونياك والنبيذ ؟ » .

فأجابه الطبيب : « عندما يوجه إلى هذا السؤال طبيب محترف ، فسوف أجيب مسرورًا .. لكنك لست طبيبًا محترفًا ، ولهذا أرفض أن أجيبك ! » .

وفى صباح اليوم التالى وصل رد مستر (فيرلى) على الخطاب الذى أرسلته إليه (ماريان) مع (فانى) ، فإذا هو يقول فيه : « إنه قد ساءه إلى أقصى حد أن تعكر صفوه عودة (لورا) واختها إلى قصر (ليمريدج) .. وإنه يخشى ، إذا وافق ، أن يتبعها سير (برسيفال) فيشتبك معه فى شجار عنيف بسبب إيوائه زوجته ! ولكى يتجنب ذلك كتب إلى (ماريان) راجيًا أن تعود وحدها أولاً لتبحث الأمر معه ! » .

وفتح سير (برسيفال) والكونت (فوسكو) الخطاب وقرآه ، ثم قال الكونت : « فى وسعى أن أنتفع بهذا ، فأره لزوجتك ودعها تقرأه . وسأذهب أنا إلى لندن هذا الصباح يا (برسيفال) ، وقد أتغيب هناك بضعة أيام ، وسأحضر معى فى عودتى ممرضة مدربة للآنسة (هالكومب) .. فقل لزوجتك إنها ينبغى أن تجد من تعينها على تمريض أختها . ولكنى أرجو أن لا تذكر شيئًا للطبيب عن هذه الممرضة قبل قدومها ، لأنه سوف ينظر بعين مغرضة إلى أية ممرضة تأتى على يدى .. فإذا ما ظهرت فى البيت فإنه سيضطر إلى الاعتراف بأن لا عذر له فى عدم استخدامها ! » .

فأجابه سير (برسيفال) متذمرًا : « بودى لو تطلعنى على ما يدور فى ذهنك ! » .

فأجاب الكونت : « لا أحد سوى (فوسكو) يعلم ما يدور فى ذهن (فوسكو) ! » .

* * *

وصلت السيدة (كليمنتس) و (آن كاثريك) إلى محطة (بلاكووتر) فى الوقت المناسب كى تلحقا بقطار الظهر . وكان دواء الكونت قد أحدث أثرًا عجيبًا فى صحة الفتاة ، وضاعف من نتائجه يقينها بأنها لن تلبث أن ترى (ليدى جلايد) فى لندن !

وقبل قيام القطار بدقائق أقبل الكونت (فوسكو) إلى الرصيف

مهرولاً ، فحيا السيدة (كليمنتس) وسأل فى اهتمام عن صحة (آن) ، ثم ساعدهما فى ركوب إحدى عربات الدرجة الثالثة ، واختار لنفسه ديوانا خاليًا فى عربة الدرجة الأولى !

وعند وصولهم إلى لندن ساعدهما الكونت مرة أخرى ، وقررت السيدة (كليمنتس) التوجه مباشرة إلى مسكنها ، الذى كانت (آن) قد لجأت إليه عقب فرارها من المصحة .. فصحبهما الكونت فى عربة ، وكان المسكن لحسن الحظ لا يزال خاليًا .. فتريث الكونت حتى نقلت حقائبهما إلى البيت ، ولاحظ العنوان بدقة ، ثم أمر الحوذى بأن يقله إلى فندق فى وسط المدينة .

وبعد الغداء توجه (فوسكو) ليزور سمسارًا للمنازل — على مقربة — كان قد حصل على اسمه من كاتب الفندق ، فذكر له أنه يريد منزلاً مفروشًا فى حى هادئ ، لمدة ستة أشهر ، وأنه يفضل أن يكون بالمنزل بعض الخدم ليوفر على نفسه عناء البحث عن خدم جدد .. واعرب عن استعداده لدفع قيمة الإيجار كلها مقدمًا !..

وتحمس السمسار للارتباط مع مثل هذا المستأجر المريح ، فتخير من دفاتره عدة عناوين مناسبة وأعطى مفاتيحها لكاتب ذهب مع الكونت لتفقدها .

وقبل أن ينقضى عصر اليوم ، كان الاختيار قد وقع على بيت فى ضاحية (غابة سان جون) فى شمال المدينة ، فدفع إيجار الأشهر الستة مقدمًا وسلمت المفاتيح إلى (فوسكو) ..

وفى صباح اليوم التالى ذهب الكونت إلى قصر (ليمريدج) ، وأرسل بطاقته إلى مستر (فيرلى) الذى قال لنفسه : « يا للسماوات !.. إنه ذلك الزوج الأجنبى لأختى المتعبة .. وهو لا يمكن أن يكون قد أتى إلا لكى يقترض منى نقودًا ! » — ثم قال محدثًا الخادم بصوت مسموع : « هل تعتقد أنه يذهب إذا أعطيته خمسة شلنات ؟ » .

فأجاب هذا بأن الزائر يرتدى ثيابًا فخمة ويبدو فى مظهر الثراء !

فسأله مستر (فيرلى) : « هل ذكر لك ما يبغى » .؟

— قال إنه حضر إلى هنا لأن الآنسة (هالكومب) عاجزة عن مغادرة قصر (بلاكووتر بارك) .

فقال مستر (فيرلى) وهو يزفر يائسًا : « أدخله .. » وقد ذهل لمنظر الكونت لأول وهلة إذ شعر بأن مثل هذا الرجل الضخم قمين بأن يرج الأرض ! لذلك سره أن لمس بعد لحظات خفة حركات الإيطالى وهدوء صوته !

وقال (فوسكو) : « اسمح لى بأن أقدم لك نفسى يا مستر (فيرلى) ، إنه يشرفنى ويسعدنى أن أكون زوج مدام (فوسكو) ، ومن ثم أرجو منك ألا تعتبرنى غريبًا .. كلا ! لا تزعج نفسك يا مستر (فيرلى) ، لا تتحرك !

فأجاب المضيف فى اغتباط : « إنك طيب جدًا ، ليتنى كنت أقوى على أن أنهض لأستقبلك .. تفضل بتناول مقعد ! »

فقال الكونت : « أخشى أن تكون على غير ما يرام اليوم ؟! » .

فقال المستر (فيرلى) : « إننى كالمعتاد لست أكثر من حزمة من الأعصاب ضمت لتبدو فى شكل رجل ! » .

وهنا قال الكونت : « لقد درست موضوع الأعصاب فيما مضى . دعنى أبدل نظام الإضاءة فى غرفتك ! » .

ثم اتجه إلى النافذة فى خطى خفيفة هادئة وأردف قائلاً : « إن الضوء هو المؤثر الأول الفعال . فأنت لن تستطيع الاستغناء عنه يا مستر (فيرلى) ، إلا إذا استغنت الزهرة عنه . انظر ، هأنذا أغلق المصاريع الخشبية للنافذة القريبة من حيث تجلس ، وأفتح خشب النافذة البعيدة عنك لتدخل أشعة الشمس المقوية ! » ثم عاد الكونت إلى مقعده ، بينما كان مستر (فيرلى) يتمنى لو كانت ابنة أخيه (لورا) وأختها (ماريان) فى مثل رفق وعطف هذا الأجنبى الضخم الجسم !

واستأنف الكونت حديثه فقال : « ينبغى أن أذكر لك الآن إن الآنسة (هالكومب) لم تحضر إلى هنا بنفسها ــ كما اقترحت ــ ولم تكتب خطابًا ثانيًا ، بسبب أصابتها بحمى خطيرة !

فصاح مستر (فيرلى) جزعًا على نفسه : « يا إلهى !.. وهل هى حمى معدية ؟ » .

فقال الكونت : كلا !.. إنها ليست معدية فى الوقت الحاضر على الأقل !.. أؤكد لك » .

لكن مستر (فيرلى) لم يطمئن إلى هذا التوكيد ، واعتزم أن يتخلص من زائره غير المرغوب فيه بأسرع ما يستطيع .. فسأله : « ما الغرض من زيارتك ؟ » .

فقال الكونت : « جئت لاذكر لك أولاً ــ بوصفك عميد أسرة (ليدى جلايد) ــ أن الآنسة (هالكومب) لم تبالغ فى الخطاب الذى كتبته لك ، فأنا أقدم صديق لسير (برسيفال) ، وأنا فى الوقت نفسه أمت بصلة النسب إلى (ليدى جلايد) . ثم إننى شاهد عيان لكل ما جرى فى قصر (بلاكووتر بارك) .. والفراق المؤقت هو الحل الوحيد . وأعدك بأن سير (برسيفال) لن يدنو من هذا البيت إذا قبلت أن تؤوى زوجته فيه ! » .

فأجاب مستر (فيرلى) فى وهن : « شكرًا لك .. إذن ففى وسع (ماريان) أن تحضرها حين تتحسن حالها » .

ــ لا يا سيدى .. لا يجب أن تفكر فى الانتظار حتى تشفى الآنسة (هالكومب) من مرضها ، ثم تستقبل (ليدى جلايد) .. إن مركزها بإزاء زوجها يزداد سوءًا وخطرًا فى كل يوم .. فاكتب إلى (ليدى جلايد) تدعوها إلى الحضور وحدها !

ولم يجد مستر (فيرلى) صعوبة جديدة يثيرها ، بينما استطرد الكونت : « أراك مترددًا ؟!.. » إنى أفهم سبب ترددك ، فأنت لا تستطيع أن تتصور كيف يمكن أن تقوم ابنة أخيك بمثل هذه الرحلة وحدها !.. فدعنى أزل

هذه العقبة !.. لقد استأجرت دارًا فى لندن ، ومن الممكن أن أقابل القطار القادم من (بلاكووتر) فآخذها لتستريح وتنام فى بيتى ، فهو فى الوقت ذاته بيت عمتها .. حتى إذا استردت قواها ، رافقتها إلى المحطة ثانية ، لتسافر إلى هنا ، حيث تستقبلها خادمتها الخاصة (فانى) التى تقيم الآن تحت سقفك ..! » .

ورأى المستر (فيرلى) فى الموافقة على هذا الاقتراح فرصة تريحه من ضيفه اللحوح .. فوعد بكتابة الخطاب فورًا ، راجيًا أن يفوز بنتيجة طيبة أخرى ، إذ كان واثقًا من أن (لورا) لن توافق على مغادرة قصر (بلاكووتر بارك) فى أثناء مرض أختها ..

وتناول الورق والقلم فكتب الدعوة على عجل وسلمها إلى (فوسكو) قائلاً وهو يغوص فى مقعده : « أعذرنى ، فإنى مرهق جدًا ، ولست أقوى على أن أفعل شيئًا آخر . هل لك أن تستريح وتتناول الغداء فى الطابق الأسفل ؟ سلامى وحبى وعطفى إلى الجميع فى قصر (بلاكووتر) .. طاب يومك » .

ثم أغمض عينيه .. وحين جازف بفتحهما ثانية ، كان الكونت قد ذهب !

* * *

١٥ ــ رحلة قاتلة

لم يكد الكونت يعود إلى لندن حتى مضى لزيارة منزل حقير فى أحد الأحياء الفقيرة .. ثم غادره بعد ساعة وفى صحبته امرأة أجنبية الهيئة .. واستقل الاثنان عربة إلى المحطة حيث ركبا القطار إلى (بلاكووتر بارك) فبلغاها فى ساعة متأخرة من ذلك المساء !

وقدم الكونت مرافقته كممرضة مدربة ، تدعى (مسز روبل) . وكانت (ماريان) قد تحسنت قليلاً ، لكنها لم تتجاوز مرحلة الخطر بعد .. وكانت (لورا) نفسها على غير ما يرام ، من فرط ما أنهكت قواها فى تمريض أختها .. كذلك كان سير (برسيفال) فى حالة عصبية جعلته يفزع لأقل ضجة ، ويعجز عن أن يظل فترة طويلة بغير حركة !.. ومن هنا ابتدر صديقه (فوسكو) فى لهفة حين رآه « هيه يا (فوسكو) ماذا وراءك من أنباء ؟ » .

فأجابه الكونت فى هدوء : لا شىء !.. انتظر يا (برسيفال) ، انتظر !.. كم من مرة نصحت لك أن تكون صبورًا ؟.. لا يمكن عمل شىء قبل أن تشفى الآنسة (هالكومب) !

وعندما حضر الدكتور (داوسون) فى الصباح التالى ليعود مريضته كعادته اليومية ، لم يسر لوجود الممرضة التى أحضرت دون علمه . وصارح سير (برسيفال) ــ على حدة ــ باعتراضاته ، لكنه لم يجد منه

أذنًا صاغية ، فقال له : « إنها قد تكون أحسن ممرضة فى الوجود ، لكنها لم تأت من طرفى » .

فأجابه سير (برسيفال) : « كذلك أية ممرضة تأتى من طرفك ستكون غريبة عن لندن .. وأنا أرى أننا ينبغى أن نجرب المرأة بعد أن تجشم الكونت (فوسكو) عناء إحضارها من لندن ! » .

قال الطبيب : فيما تقول شيء من الإنصاف ، ومن ثم سأوافق على بقائها ، بشرط أن تذهب على الفور إذا وجدت سببًا للشكوى منها ! » .

فقال سير (برسيفال) : « وأنا أقبل هذا الشرط، مرحبًا ! » .

* * *

وانقضى أسبوعان تأرجحت خلالهما (ماريان هالكومب) بين الحياة والموت .. آنًا تبدو فى حالة أعياء يختلط فيها الضعف بالنعاس .. وآنًا تهاجمها الحمى مصحوبة بمزيد من الهذيان .. ولم تتح مسز (روبل) سببًا واحدًا للشكوى منها ، فقد كانت تؤدى واجباتها فى هدوء وكفاءة ، وبرغم وجودها فى (بلاكووتر بارك) فقد استمرت (لورا) تعمل كل ما فى وسعها لتمريض أختها ، برغم أنها كانت هى نفسها فى أشد الحاجة إلى الراحة ..

وفى اليوم العشرين لمرض (ماريان) هبط الطبيب من مخدعها وعلى وجهه الصادق ابتسامة عريضة ، وكان الكونت وسير (برسيفال)

وزوجته فى غرفة المكتبة ، فابتدرهم بقوله : « عندى لكم أنباء طيبة . كل ما تحتاج إليه الآنسة (هالكومب) الآن هو العناية والتمريض الدقيق لفترة أخرى من الزمن .. لكنها تجاوزت الخطر نهائيًا على أى حال ! » .

وكان تأثير هذه الكلمات فى (لورا) شديدًا ، إذ كانت أضعف من أن تحتملها ، فنصح لها الطبيب بأن تلازم غرفتها بضعة أيام ، يتوافر لها خلالها الهدوء والراحة .. ثم تقوم على إثر ذلك برحلة لتبديل الهواء .

وعلى إثر صعود (لورا) إلى مخدعها قال الكونت : إذن فقد نجت الآنسة (هالكومب) من الخطر يا مستر (داوسون) ، برغم علاجك .. لو أنك اتبعت نصائحى .. » .

فصاح الطبيب فى غضب قائلاً : « سير (برسيفال) !.. هل تسمح أن أخاطب بهذه اللهجة فى بيتك ؟ » .

فأجابه سير (برسيفال) : « يبدو أنك تنسى يا (داوسون) أن الكونت (فوسكو) صديقى ، وأن معلوماته الطبية قد تفوق خبرتك ! » .

وذهل الطبيب ، ولكنه جاهد حتى قال : فى هذه الحالة لن أحضر بعد الآن ، إن الآنسة (هالكومب) لم تعد فى حاجة إلى رعايتى ، ومن ثم فإنى أنسحب من معالجة الحالة ، طاب يومكم !

فأجابه سير (برسيفال) وهو يهز كتفيه استخفافًا : « كما تشاء ! » .

ولزم الكونت الصمت ، حتى أنبأه صوت إغلاق الباب الخارجى بأن الدكتور (داوسون) قد غادر البيت .. وعندئذ قال وهو يبتسم : وأترى

يا (برسيفال) كيف كانت خططى ناجحة ؟.. كنت أعلم أن فى استطاعتى التخلص من ذلك الطبيب الغبى وقتما أشاء .. والآن جاء دورك ، سوف أغادر ومدام (فوسكو) هذا البيت بعد غد ، فعليك أن ترسل زوجتك إلى لندن فورًا بمجرد أن تتلقى نبأ منى ، لكنها لن تغادر (بلاكووتر) ما دامت (ماريان) هنا ، وقد أعددت خططى لهذا .. فتعال واسمع تفصيلاتها ! » .

ثم أمسك بذراع سير (برسيفال) وقاده إلى النافذة ، حيث أخذ يهمس له بضع دقائق ، فشحب وجه سير (برسيفال) لما سمع ، وهتف : « كلا ، كلا ! يا (فوسكو) ! لا أستطيع أن أفعل ذلك ! » .

فأجاب الكونت : « بل يجب يا صديقى . لقد تركت دفة أمورك فى يدى .. والآن سأتركك كى أرى فيرانى المسكينة .. فيرانى البريئة المدللة !.. أطفالى الصغار الأعزاء !.. أن أباهم الطيب قد شغل فى الأيام الأخيرة عن العناية بهم ، لا تنس يا (برسيفال) : أخل القصر من جميع الخدم قبل مساء غد ، وأبق واحدة لـ (ليدى جلايد) ، ولتكن الغبية : (مرجريت بورشر) ! » .

* * *

وإذ خلا (برسيفال) إلى نفسه فى غرفة المكتبة ، استغرق فى التفكير لبضع لحظات ، ثم دق الجرس وسأل عن مديرة المنزل .. فلما مثلت أمامه قال لها : « أريد أن أحدثك فى أمر استقر عليه عزمى منذ زمن .. إن عندى

أسبابًا تجعلنى أرغب فى إلغاء إقامتى فى هذا القصر فورًا ، فبمجرد أن تتمكن (ليدى جلايد) والآنسة (هالكومب) من السفر يجب أن تسافرا لتبديل الهواء .. ولسوف يبرحنا صديقى الكونت (فوسكو) و (ليدى فوسكو) قبل ذلك ليقيما بضواحى لندن .. وعندئذ لن يكون عندى ضيوف آخرون ، لدواع اقتصادية ، فإن نفقاتى هنا باهظة جسيمة . وبالاختصار فإنى سأبيع جيادى وأتخلص من جميع الخدم فى الحال .. وعلى ذلك فسأخلى المنزل منهم فى مثل هذه الساعة من الغد ! » .

ونظرت مديرة المنزل إليه فى دهشة وسألته : « أتعنى يا سيدى أننى يجب أن أفصل الخدم الذين تحت إمرتى جميعًا دون الإنذار المعهود قبل ذلك بشهر ؟ » .

— نعم أعنى ذلك !.. فقد نغادر جميعنا المنزل قبل أن يكتمل شهر آخر ، ولن أدع الخدم هنا بلا عمل !

— ومن يطهو الطعام يا سير (برسيفال) فى أثناء الفترة التى ستمكثها هنا ؟

— تستطيع (مرجريت بورشر) أن تشوى وتسلق ، فاستبقيها .. وما حاجتى إلى طاهية إذا كنت لا أعتزم إقامة مآدب أو حفلات ؟

— إن الخادم التى ذكرت هى أكثر خدم البيت افتقارًا إلى الذكاء يا سير (برسيفال) ..

— قلت لك استبقيها ، ولتقم أية امرأة من القرية بأعمال التنظيف



ثم تنصرف بعدها ، إن نفقاتى الأسبوعية يجب أن تخفض فورًا ، وستخفض .. فاطردى جميع خدم البيت غدًا ، باستثناء (بورشر) ، فإنها فى قوة الحصان وسوف نجعلها تعمل كالحصان !

ــ أرجو أن تسمح لى بأن أذكرك يا سير (برسيفال) بأن الخدم إذا طردوا غدًا ، وجب أن يتقاضوا أجر شهر عوضًا عن فترة الإنذار !

ــ فليكن .. إن أجر شهر أقل من التبديد والنهم اللذين يبدران من الخدم فى شهر ..

ــ حسنًا جدًا يا سيدى !.. إن تعليماتك ستنفذ ..

وأحنت مدبرة المنزل رأسها ، وبارحت الغرفة !

وفى اليوم التالى غادر الخدم جميعًا القصر ، فبدا غريبًا موحشًا .. وتولى سير (برسيفال) بنفسه تسريح عمال الحظائر وخدم الجياد ، وأرسل جميع الجياد ــ إلا واحدًا ــ إلى لندن واستبقى البستانى ــ الذى كان يقطن فى كوخه الخاص ــ كى يعنى بالجواد الأوحد الباقى !.. ولم يبق من الخدم الذين كانوا يعملون داخل القصر سوى (مرجريت بورشر) .

* * *

فى ساعة متأخرة من ذلك المساء دخل الكونت (فوسكو) وزوجته غرفة (ماريان هالكومب) ، وكانت مسز (روبل) تجلس عند طرف الفراش ، فنهضت واقفة حين رأتهما .. وهمس لها الكونت : هل أعطيتها الجرعة ؟

فأجابت الممرضة : « نعم ممزوجة بدوائها .. فاطمئن إلى أنها لن تستيقظ ! » .

ــ حسنًا ! ينبغى إذن أن نعمل دون إشراك سير (برسيفال) ، فإن أعصابه ليست من البرود بحيث يوثق بها . سأحمل أنا الطرف الأعلى للفراش ، وتحملين أنت طرفه الأدنى .. والتفت إلى زوجته قائلاً : « أما أنت يا ملاكى فستحملين الشمعة وتنيرين لنا الطريق ! » .

وفى منتصف الليل غادر الثلاثة حجرة النوم ، وساروا فى بطء عبر الممرات الساكنة : الكونتة (فوسكو) فى المقدمة ، تحمل الشمعة عاليًا ، والكونت ومسز (روبل) يتبعانها حاملين فيما بينهما السرير الذى رقدت عليه (ماريان) غائبة عن وعيها بتأثير المخدر !

وبلغوا جناحًا مهجورًا من القصر ، لم يستعمل منذ سنوات طويلة ، فوضعا (ماريان) فى إحدى حجرات النوم غير المأهولة .. وقال الكونت : « إنى أتركها فى رعايتك يا مسز (روبل) ، ليومين أو ثلاثة أيام فقط .. ولكن لا تدعى خلال هذه الفترة أحدًا ــ عدا سير (برسيفال) ــ يعلم بأنك أو الآنسة (هالكومب) فى البيت ! » .

* * *

وفى الصباح التالى غادر الكونت (فوسكو) وزوجته قصر (بلاكووتر بارك) .. وكانت آخر كلماته إلى سير (برسيفال) : « ستسمع أنباء منى ..

ربما غدًا ، وربما بعد غد .. فيجب بمجرد أن تتلقاها أن تقنع (ليدى جلايد) بالسفر فورًا .. تذكر هذا .. السفر فورًا .. أرها الخطاب الذى أعطانيه مستر (فيرلى) يدعوها فيه إلى (ليمريدج) . وداعًا يا (برسيفال) ولكن شجاعًا .. أن متاعبنا توشك أن تنتهى !

وصعد إلى العربة فى إثر مدام (فوسكو) ، ثم تناول قفص فيرانه من يدها ، وبعد أن أراح جسمه الضخم على المقعد فتح القفص وأطلق فيرانه المحبوبة تزحف عليه !

وبعد يومين وصل خطاب من الكونت ، فقرأه سير (برسيفال) ثم فركه فى يده .. وصعد من فوره ليرى زوجته فألفاها فى صحة متحسنة ، توشك أن تغادر غرفتها . فسألها : « إلى أين أنت ذاهبة ؟ » .

— إلى حجرة (ماريان) ..

— قد يجنبك الاستياء أن أقول لك فورًا إنك لن تجديها هناك ..

— لن أجدها هناك ؟

— بلى .. لقد غادرت البيت منذ يومين مع (فوسكو) وزوجته !

ولم تكن (لورا) من القوة بحيث تتحمل المفاجأة .. فشحب وجهها ، واستندت إلى الحائط وهى تحدق فى زوجها .. ثم صاحت بعد لحظة : مستحيل !.. أين كان الطبيب حين رحلت (ماريان) ؟ » .

فقال سير (برسيفال) : « لم تكن ثمة حاجة إلى الدكتور (داوسون) ، ولم يكن موجودًا .. فضلاً عن أن (ماريان) كانت من

القوة بحيث تحتمل السفر ، مالك تحدقين فى هكذا ؟ إذا كنت لا تصدقين أنها رحلت فابحثى عنها بنفسك .. افتحى حجرتها وجميع الحجرات الأخرى إذا أردت ! » .

ولم تتردد (لورا) ، ولكنها لم تجد أحدًا فى غرفة الآنسة (هالكومب) عدا (مرجريت بورشر) ، التى كانت منهمكة فى تنظيف الحجرة .. ثم فتشت (لورا) الغرف الأخرى قبل أن تعود إلى زوجها متسائلة : « ما معنى هذا يا سير (برسيفال) ؟.. أرجوك بل استحلفك أن تجيبنى .. ما معنى هذا ؟ » .

فأجابها : « معناه أن الآنسة (هالكومب) أصرت على انتهاز فرصة سفر (فوسكو) إلى لندن لتذهب إلى هناك هى الأخرى » .

— إلى لندن ؟

— نعم .. فى طريقها إلى (ليمريدج) .

— ولماذا تذهب (ماريان) إلى (ليمريدج) وتتركنى هنا وحدى ؟

— لأن عمك أبى أن يستقبلك قبل أن يرى أختك أولاً .. أنسيت الخطاب الذى كتبه إليها بهذا المعنى فى بداية مرضها ؟.. لقد عرض عليك وقرأته ، وكان يجب أن تتذكريه .

— نعم ، أنى أذكره .

— إذا كنت كذلك ، فلماذا تدهشين لأنها تركتك ؟ إنك تريدين العودة إلى (ليمريدج) ، وقد ذهبت لتحصل لك على إذن من عمك .. وهاك الإذن ..

وأخرج من جيبه الخطاب الذى حصل عليه الكونت (فوسكو) من مستر (فيرلى) ، فقدمه لها .. وكان غير مؤرخ ، وقد جاء فيه :

« عزيزتى (لورا) .. أرجو أن تحضرى وقتما يروق لك .. ويمكنك أن تخففى مشقة الرحلة بالمبيت فى منزل عمتك ..

المشتاق

(فردريك فيرلى) »

وقال سير (برسيفال) : « سأكتب إلى (فوسكو) فى بريد الليلة لأنبئه بأن يترقب سفرك فى قطار ظهر غد .. وسيلقاك عند وصولك إلى محطة لندن فيأخذك لتقضى ليلتك فى منزل عمتك ! » .

فرفعت (لورا) بصرها عن خطاب عمها وهى ترتجف فى عنف ، ثم قالت : « لا داعى لأن ينتظرنى الكونت (فوسكو) ، فإنى أفضل ألا أبيت فى لندن ..

ــ بل يجب ، فإنك لا تستطيعين أن تقطعى الرحلة إلى (كمبرلاند) فى يوم واحد .. ولابد لك من أن تستريحى ليلة فى لندن ، وأنا لا أحب لك أن تنزلى وحدك فى فندق !

ــ لا تكتب إلى الكونت (فوسكو) .. أرجوك .. أرجوك .. لا تكتب له !

فصاح سير (برسيفال) وقد انفجر غضبه فجأة : لِمَ « لا » ؟ أود أن أعرف !.. أين يمكن أن تقضى الليلة فى مكان يليق بك أن تنزلى فيه فى لندن خير من بيت عمتك ؟ » .

ــ أوثر ألا أذهب إليه ، بل وألا أقضى ليلة فى لندن على الإطلاق ..

ــ كفى !.. إذا كنت لم تؤتى من الإدراك ما يكفى لتعرفى ما فيه خيرك ، فعلى غيرك أن يعرفه لك .. لقد دبر الأمر ، وهذا فصل الخطاب ، ولا يراد منك سوى أن تفعلى ما فعلته الآنسة (هالكومب) من قبل ..

فهمست (لورا) : « (ماريان) ؟.. أيعقل أن تبيت (ماريان) فى منزل الكونت (فوسكو) ! » .

ــ أجل فى منزل الكونت (فوسكو) .. لقد باتت هناك الليلة قبل الماضية لتخفيف عناء الرحلة إلى (ليمريدج) ، وأنت ستبيتين فى منزل (فوسكو) مساء غد لتخففى عناء الرحلة كما فعلت أختك .. ولست أريد أن أسمع كلمة أخرى غير ذلك !

وفى الصباح التالى أقل سير (برسيفال) زوجته إلى المحطة وأركبها قطار الظهر ، فقالت له : « لن أراك ثانية !.. هذا فراق بينى وبينك ! فراق قد يكون إلى الأبد .. هل تحاول أن تصفح عنى يا (برسيفال) ، كما أصفح عنك من كل قلبى ؟ » .

واستحال لون وجهه إلى بياض كئيب ، وتفصد جبينه بقطرات كبيرة من العرق ، ومر بلسانه على شفتيه الجافتين !.. ثم دوى صفير تحرك بعده القطار .. بينما بقى سير (برسيفال جلايد) واقفًا على الرصيف بلا حراك ، ووجه زوجته الأبيض ماثل أمام عينيه !

* * *



وفى ساعة متأخرة من عصر اليوم التالى تلقى سير (برسيفال) خطابًا كاد يخرجه عن وعيه . فراح يذرع الردهة ذهابًا وجيئة وهو يسب ويصخب .. ثم أمر البستانى بإخراج الجواد والعربة ، وبعد ربع ساعة قفز إلى العربة وراح يلهب الجواد بسوطه حتى جعله يطوى الأرض .. وانطلق وقد شحب وجهه بحيث حاكى وجوه الموتى !

كان الخطاب من الكونت (فوسكو) ، وقد جاء فيه أن (الليدى جلايد) قد ماتت فجأة — متأثرة بهبوط فى القلب اعتراها ليلة وصولها إلى بيته فى لندن !



١٦ — عودة وولتر هارترايت

فى باكورة صيف سنة ١٨٥٠ غادر وولتر (هارترايت) ومن وبقى من رفاقه على قيد الحياة غابات أمريكا الوسطى ومجاهلها الموحشة عائدين إلى وطنهم .. فلما وصلوا إلى الساحل استقلوا سفينة إلى انجلترا .. لكن السفينة غرقت فى خليج المكسيك ، وكان (هارترايت) بين القليلين الذين نجوا من البحر .. وكانت هذه ثالث مرة ينجو فيها من خطر الموت .. فلقد تعرض للموت مرضًا .. وللموت على أيدى الهنود الحمر .. ثم للموت غرقًا .. وكان الموت يدنو منه فى المرات الثلاث ، ثم يتجاوزه !

والتقطت سفينة أمريكية كانت فى طريقها إلى (ليفربول) أولئك الناجين من الغرق ، فوصلت إلى الميناء فى الثالث عشر من أكتوبر سنة ١٨٥٠ ، وهبط (هارترايت) إلى البر فى العصر ، فوصل إلى لندن فى مساء اليوم ذاته .. فلما سمع من أصدقائه نبأ موت (لورا) ، قرر أن يزور قبرها قبل أن يستهل حياته فى انجلترا من جديد ..

وفى ذات أصيل ساج من أصائل الخريف ، غادر الشاب القطار فى محطة (ليمريدج) الصغيرة ، وسار على قدميه سالكًا الطريق الذى كان لا يزال يذكر معالمه جيدًا . وسرعان ما كان يقف بإزاء الصليب الرخامى المثبت على القبر .. القبر الذى أصبح يضم جثمان كل من الأم والابنة معًا ! .. وخلال الدموع التى ترقرقت فى عينيه قرأ العبارات التى حفرت حديثًا على لوحة القبر .. الحروف الواضحة القاسية السواد التى روت قصة حياتها ومماتها :

« تقديسًا لذكرى (لورا) ، (ليدى جلايد) ، زوجة سير (برسيفال جلايد) سيد (بلاكووتر بارك) بمقاطعة (هامبشاير) .. وابنة المرحوم (فيليب فيرلى) سيد دار (ليمريدج) ، ولدت فى ٢٧ مارس سنة ١٨٢٩ ، وتزوجت فى ٢٢ ديسمبر سنة ١٨٤٩ ، وماتت فى ٢٥ يوليو سنة ١٨٥٠ ، بالغة من العمر إحدى وعشرين سنة » .

وركع (هارترايت) أمام القبر ، وأسند يديه وفوقهما رأسه على الحجر الأبيض .. ثم أغمض عينيه المتعبتين ، فإذا بالأفكار عن (لورا) تملأ رأسه ..

وانقضى وقت طويل ، و (هارترايت) ما زال جاثيًا أمام القبر .. حتى سمع وقعًا خافتًا لخطوات تقترب فرفع عينيه .

كانت الشمس على وشك المغيب .. ورأى فى فناء الكنيسة امرأتين تسيران نحو القبر فى بطء وقد أسدلتا نقابيهما فأخفيا وجهيهما .. ثم توقفتا ورفعت إحداهما نقابها .. فإذا به يرى أمامه تحت الضوء الغارب .. وجه (ماريان هالكومب) !

لشد ما تغير هذا الوجه كأنما مرت عليه السنون !.. العينان واسعتان ضاريتان ، تنظران إليه فى ذعر عجيب .. والوجه مضنى مكدود ، سطر عليه الألم والخوف والأسى !

هب (هارترايت) واقفًا على قدميه ، ومشى خطوة واحدة نحوها ، مبتعدًا عن القبر !.. ولم تتحرك .. لا ولا نطقت !.. وفجأة أطلقت المرأة

المحجبة التى معها صرخة خافتة .. فتوقف (هارترايت) ، وسرت فيه رعدة .. من رأسه حتى قدمه !

وتحركت المرأة ذات الوجه المحجب مبتعدة عن (ماريان هالكومب) ، وأقبلت نحوه بخطى وئيدة .. فنظر (هارترايت) إليها .. وإليها وحدها ، ظل ينظر ، ووقفت عند الجانب الآخر من القبر ، فصارا متقابلين ، وجها لوجه ، وليس بينهما سوى حجر من الرخام ..

ورفعت المرأة نقابها ..

تقديسًا لذكرى (لورا) ، (ليدى جلايد) ..

وهناك .. بجانب هذه الكتابة المنقوشة ، كانت تقف شاخصة إلى (هارترايت) من فوق قبرها : (لورا) ، (ليدى جلايد) !.. بلحمها ودمها !

* * *

وهذه هى القصة التى روتها له (ماريان هالكومب) : لقد حملت إليها مسز (روبل) خطابًا من مدام (فوسكو) تعلن فيه موت (ليدى جلايد) المفاجئ فى بيت الكونت (فوسكو) ، دون أن تحدد تاريخه .. فأيقنت من فورها أن أختها اغتيلت ! وانقضى أكثر من ثلاثة أسابيع قبل أن تقوى على مبارحة فراشها والسفر إلى لندن .. وإذا بارحت (بلاكووتر بارك) يممت شطر مكتب المستر (جيلمور) ، وأنبأته بشكوكها ، فقام

المحامى بتحريات لقى فيها من الكونت (فوسكو) كل عون . وقال الطبيب الذى عاد (ليدى جلايد) فى بيت الكونت والذى أصدر شهادة الوفاة ، أنه رآها يوم ٢٥ يوليو ، وإنه لا يشك فى أن الوفاة نشأت عن مرض القلب ! وذكر خدم (فوسكو) أن (ليدى جلايد) وصلت يوم ٢٥ يوليو ، ومرضت ، وماتت فى نفس الليلة . ونتيجة لهذه الشهادات قال مستر (جيلمور) لـ (ماريان) إنه واثق من أن لا صحة لشكوكها ، وإنه يعتقد أنها راودتها من جراء مرضها وألمها بفجيعتها فى أختها !

وهبت (ماريان) بعد ذلك إلى قصر (ليمريدج) ، حيث أخبرها مستر (فيرلى) بأنه تلقى نبأ موت ابنة أخيه من أخته مدام (فوسكو) ، وأن خطابها هذا بدوره لم يتضمن تاريخًا معينًا دقيقًا ، وقد وافق على ما اقترحته اخته من أن تدفن (لورا) فى قبر أمها بمقبرة كنيسة (ليمريدج) ، فرافق الكونت (فوسكو) الجثة إلى (كمبرلاند) ، وحضر الجنازة التى سار فيها كل سكان القرية ، وقد غادر سير (برسيفال جلايد) البلاد بعد وفاة زوجته مباشرة ، وهو الآن يعيش فى باريس ..

وقد روى الكونت (فوسكو) لمستر (فيرلى) تفصيلات المرض الأخير لابنة أخيه وموتها ، كما أخبره بأن (آن كاثريك) ضبطت على مقربة من (بلاكووتر بارك) وأودعت مرة ثانية المصحة التى فرت منها من قبل . وأضاف أن حالتها العقلية استفلحت نتيجة تحررها من الرقابة طويلاً ، وأن مقتها الأهوج وسوء ثقتها فى سير (برسيفال جلايد) لا يزالا

على حالهما ، وإن أصبحت تعتقد — إلى جانب ذلك — أنها نفسها (ليدى جلايد) . وقال الكونت (فوسكو) للمستر (فيرلى) إنه ينذره بذلك ، حتى يكون على بينه إذا وجدت (آن كاثريك) الوسائل لإزعاج أقارب المرحومة (الليدى جلايد) بالخطابات .

كانت هذه هى الأوضاع التى انتهت إليها الأمور حين وصلت الآنسة (هالكومب) إلى (ليمريدج) فى أوائل سبتمبر . وما لبثت أن عاودتها الحمى ؛ إذ لم يقو جسمها الضعيف على تحمل الاضطراب النفسى القاسى . حتى إذا استعادت بعض قوتها — خلال شهر من الزمن — عاودتها شكوكها بصدد موت أختها ، وكانت لم تتزعزع !.. فذهبت إلى لندن ، واستأجرت مخبرًا بوليسيًّا خاصًّا ، لمراقبة منزل الكونت (فوسكو) فى غابة (سان جون) ، ولكن هذا لم ينجل عن شىء يدعو للارتياب .. وقام المخبر بتحريات سرية عن الممرضة مسز (روبل) أسفرت عن أنها كانت قد وصلت إلى لندن مع زوجها قبل ذلك بستة شهور ، ولكن لم يعرف عنهما ما يؤخذ ضدهما ، بل كانا هادئين ، يعيشان بأمانة وشرف .. ومع أن الآنسة (هالكومب) هزمت من كل ناحية ، إلا أنها ظلت لا تعرف للسكينة معنى ، فقررت أن تزور مصحة الأمراض العقلية . ولم يكن الكونت (فوسكو) قد أخبر مستر (فيرلى) عن موقعها ، ولكن (آن كاثريك) كانت قد أدلت بالعنوان إلى (هارترايت) حين التقت به فى (ليمريدج) ، وكانت (ماريان) قد

سجلته عندها حين أفضى إليها (هارترايت) بحديثه مع ذات الثوب الأبيض ..

ومنحها صاحب المصحة عن طيب خاطر إذنا بأن ترى (آن كاثريك) ، وأخبرها بأن آن قد أعيدت إليه على يدى الكونت (فوسكو) فى السابع والعشرين من يوليو ، وقد قدم الكونت الشهادات الطبية اللازمة ، وخطابا بالتعليمات يحمل توقيع السير (برسيفال جلايد) . ثم رافق صاحب المصحة الآنسة (هالكومب) إلى حديقة المصحة ، حيث كانت (آن كاثريك) تتريض فى صحبة ممرضة ، فأشار نحوهما وكر عائدًا إلى المبنى .

وسارت الآنسة (هالكومب) نحو المرأتين ، فلما غدت على قيد خطوات منهما طرحت المريضة قبضة المرضة عنها ، واندفعت إلى أحضان الآنسة (هالكومب) !.. وفى تلك اللحظة ، عرفت (ماريان) فيها أختها .. عرفت الميتة .. الحية !

وحصلت الزائرة على إذن بأن تتحدث إلى المريضة على انفراد . ولم يكن ثمة وقت لتطارح الأسئلة .. وإنما استغلت الآنسة (هالكومب) الوقت فى أن تحمل أختها التعسة على أن تتمالك نفسها ، وفى أن تؤكد لها المعونة فى الحال إذا هى تبعت نصحها . وكان الأمل فى أن تنجو من المصحة إذا هى أطاعت تعليمات أختها ، كافيًا لأن يحمل (ليدى جلايد) على الهدوء . ثم عادت الآنسة (هالكومب) إلى الممرضة ، فأفرغت فى يديها

كل ما كان فى جيبها من ذهب ، وسألتها عن موعد ومكان تستطيع أن تتحدث إليها فيهما على انفراد !

وذهلت المرأة فى البداية وارتابت ، لكنها أخذت النقود فى النهاية واقترحت الساعة الثالثة من اليوم التالى موعدًا للقاء — فقد تستطيع أن تغادر المصحة إذ ذاك لنصف ساعة ، فتقابل الآنسة (هالكومب) فى مكان هادئ خارج الأسوار .. وبمجرد أن استطاعت (ماريان) أن تنتزع نفسها من أختها المنكودة بادرت إلى الانصراف .

وفى طريق عودتها إلى الفندق الذى كانت تنزل فى أثناء وجودها فى لندن ، انتهت إلى استنتاج أن أية محاولة لإنقاذ (لورا) بالوسائل القانونية ستستغرق — على فرض نجاحها — وقتًا طويلاً . ومثل هذا التأخير قد يقضى على عقل (لورا) ، الذى هزه الموقف الفظيع الذى وجدت نفسها فيه . لذلك عزمت على أن تحقق فرار أختها فى السر بمعونة الممرضة !

وذهبت من فورها إلى المصرف الذى كانت تستثمر مالها بمعرفته ، وباعت الأسهم القليلة التى كانت تمتلكها لقاء سبعمائة جنيه . وفى الموعد المحدد من اليوم التالى كانت خارج المصحة ومعها المبلغ كله نقدًا ، وقد استعدت لأن تدفعه بأكمله — إذا دعت الضرورة — ثمنًا لحرية أختها !

ولم تتأخر الممرضة .. وعندما طرقت الآنسة (هالكومب) الموضوع فى حذر ، قالت الممرضة إنها ستؤاخذ بمسئولية فرار المريضة ، وتفقد منصبها ، ولم تكن ترغب فى ذلك ، لأنها كانت مخطوبة ، وكانت

وخطيبها ينتظران ريثما يستطيعان أن يدخرا معًا ــ فيما بينهما ــ ثلاثمائة جنيه يبدآن بها عملاً أو تجارة ، وبينت الآنسة (هالكومب) أن (آن كاثريك) المزعومة كانت تمت لها بقرابة ، وأنها وضعت فى المصحة نتيجة خطأ جسيم ، وأن الممرضة تفعل خيرًا بمساعدتهما ، ثم تناولت من جيبها أربع ورقات من فئة المائة جنيه ، وقدمتها للمرأة كتعويض عن منصبها ! وبعد تمنع قبلت الممرضة ، ورجعت إلى المصحة .. وانتظرت (ماريان) لأكثر من ساعة ، ثم أقبلت الممرضة مسرعة من خلف ركن فى السور ، ممسكة بذراع (ليدى جلايد) .. وفى اللحظة التى التقين فيها . وضعت (ماريان) الورقات المالية فى يد الممرضة .. والتأم شمل الأختين مرة أخرى !

وفى الليلة ذاتها ، كانتا فى طريقهما إلى (كمبرلاند) .. وفى القطار ، روت (لورا) لـ (ماريان) القليل الذى تدركه .. فقالت :

ــ لست أذكر بالضبط التاريخ الذى رحلت فيه إلى لندن ، وكان الكونت (فوسكو) ينتظرنى على رصيف المحطة عند الوصول ، فقال لى إنك لم تذهبى إلى (ليمريدج) ، وأنه يصحبنى لأراك ، فذهبنا إلى بيت غريب ، وحضر رجلان لرؤيتى ، فوجها لى بعض أسئلة غريبة ، دون أن يوجها لى قط الخطاب باسمى .. وما لبث الكونت (فوسكو) أن قال لى إنك كنت تحتضرين ، فأغمى على ، فقدم لى كوب ماء له طعم غريب ، ولم أعد أتذكر شيئًا ، حتى وجدت نفسى فى المصحة ، حيث كان كل فرد يدعونى (آن كاثريك) !.. آه ، يا (ماريان) .. ماذا كنت تريننى فاعلة لو لم تأتِ ؟

ووصلتا إلى (ليمريدج) فى ساعة متأخرة من الليل ، فرأت الآنسة (هالكومب) لحكمتها أن لا تزعج المستر (فيرلى) حتى اليوم التالى ، ولكنهما حين دخلتا غرفته فى الصباح ، أعلن أنه لا يعرف (لورا) ، وأنه لم ير ما يجعله يشك فى أن ابنة أخيه دفينة فى ساحة كنيسة (ليمريدج) وأنه سيلجأ للقانون كى يحميه إذا لم تقص عن البيت قبل أن ينتهى النهار !

وكان له بعض العذر فى تصرفه ، فإن الخدم الذين كانوا يعرفون (لورا) مذ كانت طفلة ، كانوا هم الآخرون غير واثقين من أن التى بدت أمامهم هى مولاتهم ، فإن حبس (ليدى جلايد) فى المصحة نجم عنه تغير كبير فى وجهها ومسلكها ..

وكانت (ماريان) تعتقد أن من الممكن إبقاء أختها فى القصر ، أو فى القرية ، إلى أن تشفى ، فتتحدث ولابد عن أشخاص وأحداث فى الماضى بطريقة تثبت شخصيتها بجلاء .. ولكن هذا لم يكن ممكنًا ، فإن فرارها إذا اكتشف فسوف يتبعها مطاردوها إلى (كمبرلاند) !

وكانت أسلم خطوة هى العودة فورًا إلى لندن ، ففى المدينة الكبيرة لا يلبث أن يضيع كل أثر لهما ، وفى طريقهما إلى المحطة ، أصرت (لورا) على أن ترى قبر أمها . وكانت (ماريان) عزوفه عن إضاعة الوقت ، فحاولت أن تثنيها ، ولكن (لورا) لم تتزحزح .. ولعل يد الله كانت ترشدهما إلى الطريق ، فيممتا شطر المقبرة .. وهناك التقيتا بـ (وولتر هارترايت) ، ومن ثم التقى مستقبل ثلاثة أرواح متآلفة !

* * *

١٧ ـــ موعد مهم

بعد أسبوع من الحوادث السالفة ، استقر (وولتر هارترايت) فى مسكن فى حى فقير مزدحم من أحياء لندن ، إذ استأجر ـــ باسم مستعار ـــ منزلاً مفروشًا من طابقين ، فأقام فى الطابق العلوى مخصصًا حجرة لعمله وحجرة للنوم .. وسكنت (ماريان) و (لورا) ـــ تحت نفس الأسم المستعار ـــ الطابق السفلى . بوصفهما أختيه .. وكان يتكسب العيش من الرسم للمجلات الرخيصة .. كما كان المعروف أن أختيه تساعدانه بتدبير أعمال البيت وممارسة بعض أشغال الإبرة .. وكان مسكنهم الفقير ، وأعمالهم المتواضعة ، وأسماؤهم وقرابتهم الزائفة ، تستخدم جميعًا وسائل لحجبهم فى لندن الحافلة بالخلق ..

أما فى نظر العقل والقانون ، وفى اعتقاد الأقارب والأصدقاء ، فقد كانت (لورا) ـــ (ليدى جلايد) ـــ دفينة مع أمها فى مقبرة (ليمريدج) .. ومع أنها اقتطعت ـــ وهى حية ـــ من قائمة الأحياء ، إلا أنها ظلت لدى أختها و (هارترايت) على قيد الحياة .. أما بالنسبة لبقية العالم كله فقد كانت ميتة !.. ميتة بالنسبة لعمها .. ميتة بالنسبة لخدم القصر الذين عجزوا عن معرفتها !.. ميتة بالنسبة للسلطات الرسمية التى أعطت ثروتها لزوجها وعمتها .. كانت ميتة اجتماعيًا وقانونيًا ..

ومع ذلك كانت حية .. حية تعيش فى فقر واستخفاء .. حية ، يكافح مدرس الرسم الفقير من أجلها ، ليسترد لها مركزها فى عالم الأحياء ..

فمنذ اللحظة التى رفعت فيها نقابها عن وجهها فى مقبرة (ليمريدج) وكشفت عن وجهها له ، لم يراود ذهن (هارترايت) : « أى ظل من الارتياب فى شخصيتها وتذكر كلمات الوداع التى خاطبها فى (ليمريدج) .. إذا جاء وقت تستطيع فيه كل جهودى أن تمنحك لحظة من السعادة ، أو تجنبك لحظة من الشقاء ، فهل لك أن تحاولى تذكر مدرس الرسم التعس الذى علمك ! » .

ولقد قدر لـ (لورا) أن تجيبه : « لقد حاولوا أن يجعلونى أنسى كل شيء يا (وولتر) .. لكننى أذكر (ماريان) .. وأذكرك !

فى تلك اللحظة لم يتردد المدرس الشاب الذى منح (لورا) حبه من زمن ، فى أن يمنحها حياته أيضًا ! ولقد حلت الساعة .. ومن آلاف الأميال ، خلال الغابات التى هوى فيها زملاء أقوى منه كانوا إلى جواره .. خلال الخطر والموت ، قادته اليد التى تقود الناس فى الطريق إلى المستقبل .. قادته يد القدر ليواجه هذه الساعة !.. وفى تلك اللحظة أقسم (هارترايت) أن يكرس حياته بأكملها كى يحمى (لورا) ، ويعينها ، ويعيدها إلى المركز الذى سلبوها إياه فى الدنيا والمجتمع ..!

* * *

وبعد أن سمع (هارترايت) قصة (ماريان) انتهى إلى نتيجتين : فهو قد أدرك أولاً ـــ فى حدس وتخمين ـــ طبيعة المؤامرة وإن ظلت تفصيلاتها غامضة عليه !.. كان من الواضح أن (آن كاثريك) قد أدخلت إلى منزل الكونت (فوسكو) على أنها (الليدى جلايد) ، كما كان واضحًا أن (الليدى جلايد) حلت محل المرأة الميتة (آن) فى المصحة ..

ومن المؤكد أن الطبيب الذى حرر شهادة الوفاة ، وخدم (فوسكو) أنفسهم ، كانوا أبرياء !.. ولعل مدير المصحة العقلية كان هو الآخر بريئًا من تبعة الخدعة التى ارتكبت ..

أما النتيجة الثانية التى انتهى إليها (هارترايت) ، فهى انهم لا يجب أن يتوقعوا رحمة من الكونت (فوسكو) أو سير (برسيفال جلايد) ، فقد كسب الرجلان ثلاثين ألفًا من الجنيهات : عشرين ألفًا لإحدهما ، وعشرة آلاف للآخر .. كل عن طريق زوجته !.. ومن ثمَّ كان لديهما أقوى الدوافع للحيلولة دون انكشاف جريمتهما .. وما كانا ليحجما عن أية خطوة ترشدهما إلى المكان الذى تختبئ فيه ضحيتهما ، وتمكنهما من التفريق بينها وبين صديقيها الوحيدين فى الدنيا : (ماريان هالكومب) ، (وولتر هارترايت) !

وقد كان إدراك (هارترايت) لهذا الخطر الكبير هو الذى حدا به إلى اختيار المسكن فى حى فقير حيث يكدح الناس فى الحياة إلى حد لا يدع لهم وقتًا كى يلاحظوا الأغراب . وثمة امتياز آخر هو أنهم يستطيعون العيش هناك بنفقات زهيدة وتوفير كل بنس لتحقيق حلم (هارترايت) ، وكان لا يزال متبقيًا لـ (ماريان) ثلاثمائة جنيه ، كما كان قد تبقى مع (هارترايت) ما يقرب من هذا المبلغ ، فأودع هذه الثروة الصغيرة أحد المصارف ، للإنفاق منها على أية تحريات سرية قد يتعين عليه إجراؤها ..

ولم يلبث أن فقد كل أمل فى أن تستطيع (لورا) بنفسها إثبات

شخصيتها ، فإن التغييرات الخارجية التى سببها لها العذاب والخوف من الماضى ، عززت الشبه بينها وبين (آن كاثريك) إلى درجة كبيرة !.. كما أن حواسها ضعفت وتزعزعت ، ولم يعد من سبيل إلى رد عقلها إلى حالته الطبيعية إلا باتباع الوسائل البسيطة البطيئة .. فصارت (ماريان) و (هارترايت) يأخذانها فى نزهات خارجية فى الأيام الصحوة ، ويوفران بضعة جنيهات ليبتاعا لها النبيذ والطعام الشهى .. ويسليانها فى الأمسيات بألعاب الأطفال والورق ، أو بالكتب المصورة .. أما تذكيرها بأحداث الماضى المضطربة الرهيبة فكان خليقًا بأن يلحق بعقلها ضررًا لا سبيل إلى إصلاحه .

* * *

واعتزم (هارترايت) أن تكون خطوته الأولى هى استشارة مستر (جليمور) الذى كان يعرفه ويثق به .. فمضى ليقابل المحامى المسن وسرد له القصة فى اختصار .. فلما فرغ منها سأله : ما رأيك يا مستر (جيلمور) ؟

ـــ دعنى أولاً ألقى عليك بضعة أسئلة !

وراح يلقى على الشاب أسئلته .. أسئلة دقيقة مليئة بالريب ، أظهرت بوضوح أنه يعتبر (هارترايت) ضحية خطأ ووهم !.. ثم اختتم كلامه قائلاً :

ـــ أنا واثق يا مستر (هارترايت) بأنك توقن من صحة كلامك .. لكنك جئتنى تنشد رأيى القانونى ، وكمحام ، ومحام فقط ، يقتضينى

واجبى أن أصارحك بأن قضيتك لا أمل فيها البتة !

ـــ إنك تسوق رأيك فى أسلوب إجمالي متعسف يا مستر (جيلمور) .

ـــ سأحاول أن أبسطه لك بقدر الإمكان : إن الدليل على وفاة (الليدى جلايد) قوى مقنع .. فإن عمتها تشهد بأنها وصلت إلى منزل الكونت (فوسكو) ، وأنها مرضت ، وأنها ماتت ، والشهادة الطبية تثبت الوفاة وتقرر أنها طبيعية وليست جنائية !.. ثم هناك قرينة تشييع الجنازة فى (ليمريدج) .. فماذا عندك ـــ ضد هذه ـــ من براهين تدعم قولك بأن المرأة المتوفاة لم تكن (ليدى جلايد) ؟ قد تذهب الآنسة (هالكومب) إلى مصحة وترى مريضة معينة ثم تعرف فيها أختها !.. فهل أخطرت صاحب المصحة بذلك واتخذت الإجراءات القانونية السليمة لإنقاذ اختها ؟ لا .. بل إنها عمدت إلى رشوة إحدى الممرضات لتمكن المريضة من الفرار !.. وهل عرف مستر (فيرلى) ابنة أخيه ؟ لا !.. وهل عرفها الخدم ؟.. لا !.. وهل بقيت قريبة من (ليمريدج) ؟ لا .. وإنما سافرت خفية إلى لندن .. وإذا كنت أنت قد عرفتها فإنك لست قريبًا لها ، ولا أنت صديق قديم للأسرة .. وإنى لاسألك : إذا قدمت هذه القضية إلى المحاكم الآن ، فأين براهينك وأدلتك ؟

واضطر (هارترايت) إلى أن يتريث ويفكر قبل أن يجيب .. كانت هذه أول مرت تعرض فيها قصة (لورا) و (ماريان) عليه من وجهة

نظر الشخص الغريب عن حوادثها .. وأول مرة توضح له فيها العقبات الفظيعة التى تعترض طريق القضية !.. فقال : « أليس من الممكن الاهتداء إلى أدلة أخرى ؟.. إن الآنسة (هالكومب) وأنا نملك بضع مئات من الجنيهات و .. » .

فرمقه المحامى بإشفاق وهز رأسه قائلاً : « إذا كنت على حق بصدد سير (برسيفال جلايد) والكونت (فوسكو) ، فإنهما سيضعان كل عقبة فى طريق حصولك على أدلة جديدة .. سيثيران كل عقبة قانونية ، وسيحاربان كل نقطة فى القضية نثيرها نحن .. فننفق الآلاف ـــ لا المئات التى لدينا ـــ ثم تكون النتيجة النهائية ضدنا فى الأغلب ! إن مسائل إثبات الشخصية هى أصعب المسائل علاجًا .. وحتى إذا لم تكن الميتة المدفونة فى مقبرة (ليمريدج) هى (ليدى جلايد) فإنها كانت فى الحياة شديدة الشبه بها حتى إننا قد لا نفيد شيئًا من تشريح الجثة .. وبإيجاز ، فالقضية بلا أسس يا مستر (هارترايت) .. بل ليس هناك قضية فى الواقع !..

ـــ ولكن أليست هناك أدلة أخرى يمكن استنباطها لكسب القضية ، إلى جانب دليل إثبات الشخصية ؟ » .

ـــ إن أبسط الأدلة جميعًا ـــ وهو الدليل الذى يؤخذ من مقارنة التواريخ ـــ بعيد عن متناولك على ما أفهم .. ولكن إذا استطعت إظهار عدم التوافق بين تاريخ شهادة الطبيب وتاريخ سفر (ليدى جلايد) إلى لندن ، فأنا أول من يقول لك : هيا بنا !

ـــ من الممكن تحقيق ذلك يا مستر (جيلمور) !

ـــ فى اليوم الذى يتحقق فيه يا مستر (هارترايت) تكون القضية صالحة للعرض على المحاكم !

ـــ لست أعرف الوسائل التى يمكن بها بيان التاريخ لأنى لا أعرف أحدًا يستطيع أن يجزم بها عدا الكونت (فوسكو) وسير (برسيفال جلايد) ..

فابتسم مستر (جيلمور) قائلاً : ما أحسبك تنتظر منهما أن يساعداك فلئن كانا قد تشاطرا كسب مبلغ ضخم من المال عن طريق جريمة ما ، فلا يعقل أن يعترفا بها !

ـــ إنهما قد يجبران على الاعتراف بجريمتهما يا مستر (جيلمور) !

ـــ ومن الذى يجبرهما ؟

فهب (هارترايت) واقفًا وقال : أنا .. لقد طردت (ليدى جلايد) كالغريبة من البيت الذى ولدت فيه .. وسجلت على قبر أمها أكذوبة .. وهناك شخصان ما يزالان على قيد الحياة ، بغير عقاب ، هما المسئولان عن ذلك !.. إن بيتها لابد أن يفتح من جديد ليستقبلها .. ولسوف تمحى تلك الأكذوبة عن القبر أمام الملأ ، ويقدم الرجلان حسابًا عن جريمتهما ، لى أنا .. إن كانت عدالة المحاكم قاصرة عنهما !

ثم انحنى الشاب للمحامى وسار إلى الباب .. وقبل أن ينصرف تساءل : ترى هل تعلم إذا كان سير (برسيفال جلايد) لا يزال مقيمًا بباريس أم تركها ؟

فأجابه مستر (جيلمور) : « بل لقد عاد إلى لندن .. علمت ذلك من محاميه الذى لقيته أمس » .

* * *

وإذ بارح (هارترايت) المكتب وبلغ الشارع ، لاحظ رجلين واقفين يتحدثان معا .. فلما اقترب منهما مضى إحدهما مبتعدًا ، بينما بقى الثانى بلا حراك .. فنظر إليه (هارترايت) حين مر به ، وعرف فيه توًا أحد الرجال الذين كانوا يراقبونه قبل مغادرته إنجلترا !.. فلعن تهوره الذى دفعه لزيارة المحامى دون تحرز .. فقد كان طبيعيًا أن يستنتج الكونت (فوسكو) وسير (برسيفال جلايد) أن (ماريان) إذا رغبت فى مساعدة ونصح بعد فرار (لورا) من المصحة ، فمن المحتمل أن تقصد إلى المستر (جيلمور) . وفى هذه الحالة يكون مكتبه أول مكان يراقب .. لا سيما وقد عرف نبأ عودة (هارترايت) إلى إنجلترا !.. ولكن وقت الندم على عدم تفكيره فى لقاء المحامى فى مكان آخر منعزل كان قد فات ، ولم يعد فى وسع (هارترايت) أن يصلح خطأه إلا بأن يحول بين مراقبيه وبين أن يتبعوه إلى مسكنه !

وسار على مهل ، وهو يعلم ـــ دون أن يكلف نفسه عناء النظر ـــ أن الرجلين يتبعانه .. حتى وصل إلى بقعة تبعد عن أى موقف للعربات .. وهناك توقف ، متظاهرًا بأنه يفكر ، حتى مرت به عربة سريعة من ذات

العجلتين .. فقفز إلى داخلها وأمر الحوذى بالإسراع إلى (هايد بارك) .. ولم تكن ثمة عربة أخرى يستطيع الجاسوسان أن يركباها .. فرآهما يحاولان اللحاق به عدوًا .. لكنه كان قد سبقهما ، فلما استوقف الحوذى وهبط من العربة .. لم يكن ثمة أثر لهما !

وإذ ذاك رجع متجهًا نحو البيت ، فوجد (ماريان) تنتظره وحدها فى حجرة الجلوس الصغيرة ، وكانت قد أقنعت (لورا) بأن تأوى إلى فراشها لتستريح .. وروى (هارترايت) لـ (ماريان) فى همس — خشية أن يقلق راحة النائمة فى الحجرة المجاورة — تفصيلات ما حدث ، واختتم قصته قائلاً :

— إن أول ما يجب أن نهتدى إليه هو تاريخ رحيل (لورا) إلى لندن .. هذه هى النقطة الضعيفة فى المؤامرة ، والفرصة الوحيدة لإثبات أنها ما زالت على قيد الحياة !

فسألته (ماريان) : « أتعنى أنك تبغى إثبات أن (لورا) لم تغادر قصر (بلاكووتر بارك) إلا بعد تاريخ وفاتها الوارد فى شهادة الطبيب ؟

— بالضبط » !

— وما الذى يجعلك ترجح ذلك ؟

— أمران : أولهما أن خطابى مدام (فوسكو) لك وللمستر (فيرلى) اللذين أعلنت فيهما وفاة (لورا) ، لم يحملا أى تاريخ .. واعتقد أن لذلك سببًا ولابد ! والأمر الثانى أن (لورا) أدخلت المصحة فى السابع

والعشرين من شهر يوليو ، وأشك فى أنه كان فى استطاعة الكونت (فوسكو) أن يبقيها غائبة عن وعيها فى لندن أكثر من ليلة واحدة !.. فإذا صح تقديرى ، فلابد أنها وصلت إلى لندن فى السادس والعشرين ، أى فى اليوم التالى لوفاتها !.. فإذا استطعنا إثبات ذلك التاريخ ربحنا قضيتنا ضد سير (برسيفال) و (فوسكو) !

فقالت له (ماريان) : « نعم ، فهمت ، ولكن كيف يمكننا الحصول على الدليل » ؟

— هناك رجلان يستطيعان أن يساعدانى ، وهما : سير (برسيفال) والكونت (فوسكو) .. فالأبرياء قد ينسون التاريخ .. ولكنهما ، وهما المجرمان ، يعرفانه ولا شك ! وفى عزمى أن أجبر أحدهما أو كليهما على الاعتراف .. وسوف أبدأ بسير (برسيفال) ، فهناك موضع ضعف نعرفه كلانا فى حياته ..

— أتعنى ذلك « السر » ؟

— نعم ، السر .. فهو سبيلنا الأكيد الوحيد إلى تشديد قبضتنا عليه ! وليس فى وسعى أن أرغمه على الخروج من موقفه الحصين بوسيلة أخرى .. فهو قد وافق على المؤامرة ضد (لورا) إلى جانب الكسب ، ألم تسمعيه يذكر للكونت أنه يعتقد أن زوجته تعرف ما يكفى لأن يدمره ؟.. ألم تسمعيه يقول إنه لا محالة ضائع إذا عرف سر (آن كاثريك) ؟

فأومأت (ماريان) موافقة وقالت : نعم .. نعم سمعته !

ـــ إذن فلتعلمى يا (ماريان) أننى أعتزم معرفة ذلك السر !.. إن ذات الثوب الأبيض أثر حى فى حياة ثلاثتنا .. ولا تزال (آن كاثريك) ـــ وهى ميتة فى قبرها ترشدنا إلى الطريق !

* * *

١٨ ـــ قصة السيدة كليمنتس

كان الطريق المؤدى إلى سير (برسيفال جلايد) يكمن فى لغز ذات الثوب الأبيض .. التى وإن ماتت فإن أمها ظلت على قيد الحياة ، وينبغى حملها على تقديم المعونة .. وقرر (هارترايت) أن من الضرورى أولاً أن يعرف كل ما يتسنى معرفته عن السيدة (كاثريك) ، وقد تستطيع السيدة (كليمنتس) ـــ جارتها السابقة فى (هامبشاير) ـــ أن تقدم له هذه المعلومات ، بل لقد أيقن أنه لا يستطيع البدء فى تحرياته إلا بأن يتصل بصديقة (آن) الوفية هذه ..

وعلى هذا كانت الصعوبة الأولى هى كيف يهتدى إلى السيدة (كليمنتس) . وهنا أوحت بديهة (ماريان) السريعة بطريقة : تلك هى إرسال خطاب إلى مزرعة « تود » ـــ حيث كانت (آن كاثريك) والسيدة (كليمنتس) تقيمان أثناء وجودهما فى (ليمريدج ـــ للاستفسار عما إذا كانت السيدة (كليمنتس) قد كتبت إلى المزرعة أخيرًا ، فإذا كان ذلك ، فمن أى عنوان ؟

وكتب الخطاب .. وفيما كانا الشابان ينتظران الرد ، طلب (هارترايت) من (ماريان) أن تحدثه عما تعرف عن أسرة سير (برسيفال) وحداثته .. فقالت له : إن سير (برسيفال) كان وحيد أبويه ، وكان أبوه سير (فليكس جلايد) يعانى منذ مولده تشوهًا موجعًا غير

قابل للشفاء جعله يتجنب كل مجتمع !.. فلما تزوج ، رحل وزوجته إلى أوربا .. ولم يعودا إلى إنجلترا بعد ذلك قط ، بل قضيا جانبًا من حياتهما فى فرنسا ، وجانبًا آخر فى ألمانيا وكانا دائمًا يحرصان على تجنب المجتمعات !.. وقد ولد ابنهما (برسيفال) فى الخارج ، وتلقى علومه هناك على معلّمين خصوصيين .. وكانت أمه أول من فقده من أبويه ، ثم لحق بها أبوه فى سنة ١٨٢٥ ، فعاد سير (برسيفال) إلى وطنه ليتسلم الثروة التى ورثها .. وفى ذلك الوقت تعرف إلى مستر (فيليب فيرلى) والد (لورا) .

كان هذا كل ما عرفته (ماريان) ، فسجله (هارترايت) عسى أن تكون له قيمة فى المستقبل .

وبعد أيام وصل رد من مزرعة « تود » بعنوان مكتب بريد معين ، كما شاء (هارترايت) .. وكانت السيدة (كليمنتس) قد كتبت خطابًا إلى السيدة « تود » ذكرت فيه اختفاء (آن) وسألتها أن تقوم بتحريات فى المنطقة المجاورة للمزرعة .. وقد ذكرت عنوانها بطبيعة الحال ، وكان فى لندن ، على مسيرة نصف الساعة من مسكن (هارترايت) !

* * *

وذهب إلى هناك فى صباح اليوم التالى ، فلما طرق الباب فتحت له السيدة (كليمنتس) بنفسها . وبدا أنها لا تذكره ، وإذ سألته عما يريد

ذكرها بلقائهما فى فناء مقبرة (ليمريدج) ، وعنى بأن يذكرها ــ بوجه خاص ــ بأنه الشخص الذى أعان (آن كاثريك) على الإفلات من مطارديها عقب فرارها من المصحة !

وتذكرت الظروف بمجرد أن تحدث عنها ، فدعته إلى غرفة الجلوس ، وهى أشد ما تكون لهفة إلى معرفة ما إذا كان يحمل إليها أية أنباء عن (آن) ؟

وكان مستحيلاً أن يذكر لها الحقيقة كاملة دون أن يفصح عن الجريمة التى ارتكبت ــ الأمر الذى كان من الخطر أن يأتمن عليه امرأة غريبة ــ فقال : « إن هدف زيارتى هو أن أعرف الأشخاص المسئولين حقيقة عن اختفاء (آن) ، فليس لدى أدنى أمل فى أن استطيع تعقب آثارها ، بل اعتقد أننا لن نراها ثانية على قيد الحياة .. لذلك فإن اهتمامى الأكبر يتجه إلى إنزال العقاب برجلين أعتقد انهما المسئولان عن اختطافها ، وعلى يديهما عانيت وبعض أصدقائى الأعزاء بلاء فظيعًا » !

وكانت السيدة (كليمنتس) من الانفعال بحيث عجزت عن أن تستوعب ما قاله (هارترايت) تمامًا ، فأجابته : « إنك أهل لأى شىء أستطيع أن أنبئك فى مقابل ما أوليت (آن) من كرم .. إننى يا سيدى لست لبقة ولا سريعة البديهة إذا ما تحدثت إلى الغرباء . ولهذا أرجو أن تذكر من أين تريد أن أبدأ .. »

ــ خبرينى أولاً : ماذا حدث بعد أن غادرت (ليمريدج) ؟

ــ عدنا إلى لندن يا سيدى .. وحين قرأت (آن) فى الصحف نبأ زواج (ليدى جلايد) انتابها مرض شديد . وتبين الطبيب فى الحال أنها مصابة بمرض خطير فى القلب ، وقد دام مرضها ستة أشهر ، ثم قررت أن تعود إلى (هامبشاير) وتسعى إلى مقابلة (ليدى جلايد) ، ولا سيما بعد أن باتت تعتقد أن يوم وفاتها ليس بعيدًا ، وأن لابد لها من أن تُفضى إلى (ليدى جلايد) بالسر !

ــ وهل أطلعتك أنت على ذلك السر يا سيدة (كليمنتس) ؟

ــ كلا يا سيدى ! ولست أعتقد أنها كانت تعرف حقًّا أى شىء فلو أنها كانت تعرف سرًا لأنبأتنى به بالتأكيد .. إنما هى سمعت أمها تقول : إنها تعرف عن سير (برسيفال) سرًا يهمه أن تصونه ، هذا كل ما هنالك ، فيما أعتقد .. لكن المسكينة توهمت أنها عرفت الحقيقة بأكملها !

وتابعت السيدة (كليمنتس) سرد قصة رحلتهما إلى (هامبشاير) ، وإقامتهما بقرية (ساندون) ، ومقابلة (آن لليدى جلايد) ، ثم مقابلتها هى للكونت (فوسكو) ، وما ترتب عليها من عودتهما إلى لندن بصحبة الكونت .. إلى أن قالت العجوز : « وكان الكونت قد ذكر لى أننا سنسمع أنباء من (ليدى جلايد) عند وصولها إلى لندن .. وبعد نحو ثلاثة أسابيع ــ فيما أذكر ــ جاءت إلينا سيدة فى عربة وذكرت أنها موفدة من (ليدى جلايد) . وأن هذه تقيم بفندق فى لندن ، وتريد أن ترانى لتدبير لقاء مقبل مع (آن) .. فذهبت معها طبعًا .. وقبل أن نبلغ الفندق أوقفت العربة

أمام متجر ورجتنى أن انتظرها ريثما تبتاع بعض أشياء كانت قد نسيت أمرها .. فانتظرتها طويلاً يا سيدى .. لكنها لم تعد ثانية !.. فتولانى الخوف والقلق وأمرت الحوذى بالعودة بى إلى مسكننا .. لكنى حين وصلت كانت (آن) قد ذهبت » !

وأدرك (هارترايت) الخدعة بوضوح ، فقد كان ظاهرًا أن مدام (فوسكو) هى تلك المرأة التى أقصت السيدة (كليمنتس) عن الطريق ، كى تيسر مهمة الكونت فى اختطاف (آن كاثريك) .. فكيف نفذ ذلك ؟

واستطردت السيدة (كليمنتس) قائلة : « وكل ما استطعت معرفته ، هو أن غلامًا من الشارع حمل خطابًا إلى (آن) ، وبعد خمس دقائق رؤيت تفتح باب المسكن وتخرج منه ، ومن المرجح أنها أخذت الخطاب معها . فانى لم أعثر له على أثر ! وفى اليوم التالى ذهبت إلى المصحة ، فقيل لى إن (آن) لم ترد إليها .. فكتبت إلى السيدة (كاثريك) ، ولكنها أجابت بأنها لم تر ابنتها ولا سمعت أى نبأ عنها .. ولم أعرف ــ بعد ذلك ــ ماذا أفعل يا سيدى ؟! »

فقال لها (هارترايت) : « بودى لو أستطيع مساعدتك ، فلو كانت (آن) ابنتك يا سيدة (كليمنتس) لما أظهرت نحوها عطفًا أصدق من هذا ! »

فأجابت : « لقد كانت المسكينة كابنتى .. ربيتها منذ طفولتها يا سيدى ..



وكنت دائمًا أقول إن الله أرسلها إلىَّ عزاءً عن حرمانى من النسل ! »

ــ أكنت تعرفين السيدة (كاثريك) قبل مولد (آن) ؟

ــ نعم ، ولكن بزمن غير طويل ..

ــ وهل كنتما جارتين ؟

ــ نعم يا سيدى .. كنا جارتين فى ضاحية (ولمنجهام) القديمة .

ــ (ولمنجهام القديمة) ؟.. أهناك إذن ضاحيتان بهذا الاسم فى (هامبشاير) ؟

ــ كان الأمر كذلك فى تلك الأيام ، منذ ثلاث وعشرين سنة .. إذ بنْوا بلدة جديدة على بعد ميلين من النهر ، فلم تلبث (ولمنجهام القديمة) ــ التى لم تكن يومًا أكثر من قرية ــ أن أخذت تقفر على مر الزمن والبلدة الجديدة هى التى يطلقون عليها الآن (ولمنجهام) ، ولكن كنيسة القرية القديمة لا تزال تستعمل . وهى قائمة وحدها بين أطلال المنازل التى تهدمت أو انهارت ..

ــ وهل كنت تعيشين هناك قبل زواجك يا سيدة (كليمنتس) ؟

ــ كلا يا سيدى ، بل أنا من بنات لندن ، وقد ذهبت مع زوجى ــ الذى مات منذ سنين عديدة ــ إلى هناك بعد زواجنا ، ولم يكن أى منا شابًا ، ولكنا عشنا معا فى غاية السعادة .. أسعد مما كان جارنا مستر (كاثريك) يعيش مع زوجته حين جاءا ! إلى (ولمنجهام القديمة) بعدنا بنحو عام أو عامين ..

ــ ولماذا جاء (كاثريك) إلى البلدة ؟

ــ كان قد عين كاتبًا فى كنيسة (ولمنجهام) ، فأحضر عروسه الجديدة معه ، ولست أحب أن أخوض فى سيرة أحد يا سيدى ، ولكنها كانت امرأة بلا قلب ، مشغوفة بالإعجاب الأحمق والثياب الفاخرة ، ولم تكن تظهر لزوجها القدر المناسب من الاحترام ، برغم أنه كان يحسن معاملتها .. وقبل أن يمر على وجودهما فى القرية أربعة أشهر نشب بينهما شجار فظيع ، فانهار كيان أسرتهما .. وكان كلاهما مخطئًا ..

ــ تعنين كلا من الزوج والزوجة ؟

ــ أوه ، كلاَّ يا سيدى .. بل أعنى كلا من السيدة (كاثريك) وسير (برسيفال جلايد) !

ــ وهل كان سير (برسيفال) يعيش قريبًا منكم فى ذلك العهد ؟

ــ كلا يا سيدى .. لقد حل بيننا غريبًا .. وكان ذلك قبل أن تولد (آن) بنحو شهر ، على ما أذكر .. وكان والده قد مات فى الخارج قبل ذلك بوقت غير طويل ، فأقام سير (برسيفال) فى الفندق الصغير المطل على النهر .. وقد هدم فيما بعد .

ــ أكان غريبًا بالنسبة لكم جميعًا ؟.. أعنى بالنسبة للسيدة (كاثريك) أيضًا ؟

ــ هذا ما كنا نحسبه فى البداية يا سيدى ، ولكن حين نشب الشجار لم يعد أحد يعتقد أنهما كانا غريبين ، فقد وجد الزوج ــ (كاثريك) ــ خاتمين ثمينين وساعة ذهبية جديدة وسلسلة ، مخبأة فى درج زوجته ! وأبت أن تذكر له كيف حصلت على هذه الأشياء ، فأدرك أنها هدايا

منحت لها لاسيما وأن الحرفين الأولين من اسمها كانا محفورين داخل الساعة !.. ثم رآها تتحدث إلى سير (برسيفال جلايد) فى خلوة فراقبها حتى فاجأها فى اليوم التالى تتهامس مع سير (برسيفال) بالقرب من مخزن المحفوظات فى الكنيسة ، ففقد صبره وضرب سير (برسيفال) ! ويؤسفنى أن أقول إن سير (برسيفال) كان أقوى منه بكثير ، فأوسعه ضربًا .. ولم تقع على (كاثريك) عين أحد فى القرية بعد ذلك ، فلقد غادرها بعد ظهر ذلك اليوم ، وسمع زوجى فيما بعد أنه استقر فى أمريكا !

فتساءل (هارترايت) : « وماذا حدث لسير (برسيفال) بعد ذلك ؟ هل بقى مقيمًا بالقرية ؟ »

ــ كلا يا سيدى .. لقد رحل فى صباح اليوم التالى .

ــ والسيدة (كاثريك) ؟

ــ بقيت فى القرية ، وتوليت أنا رعاية (آن) منذ ذلك التاريخ ، ولو أن أمها كانت تأخذها أحيانا .. كانت امرأة بلا قلب كما ذكرت لك يا سيدى ، لم تحب ابنتها قط ، وإنما كانت تأخذها منى فى بعض الأحيان نكاية فىّ لأنى كنت متعلقة بالطفلة وكانت تعرف أننى أشقى بفراقها !.. وحين شيدت المدينة الجديدة انتقلت السيدة (كاثريك) إليها ، ولا تزال تعيش هناك حتى اليوم .

ــ ولكن كيف كانت تعيش طيلة هذه السنين ؟

ــ قيل ــ وعن حق فيما أعتقد ــ أن مورد عيشها كان يأتيها سرًا من سير (برسيفال جلايد) !

وكان (هارترايت) قد سمع ما فيه الكفاية .. فكانت الخطوة الثانية أن يقابل السيدة (كاثريك) ، ويحاول أن يستخلص منها سبب مقابلتها السرية لسير (برسيفال جلايد) .. ومن ثم نهض مستأذنًا للانصراف ، وقال : أشكرك يا سيدة (كليمنتس) ، لقد ضايقتك بأسئلة ما كان كثير من الناس ليعنوا بالإجابة عنها !

فأجابته قائلة : « بل إنى لأرحب يا سيدى بأن أقدم لك أية معلومات لدى ، لكنى أود لو حدثتنى قليلاً عن (آن) ، لقد خيل إلى عند دخولك أنى قرأت فى وجهك أنك تعرف شيئًا ! انك لا تستطيع أن تتخيل ما أعانى لعدم معرفتى ما إذا كانت حية أو ميتة !

ــ أخشى ألا يكون ثمة شك فى الحقيقة الأليمة .. إنى على ثقة ــ فى نفسى ــ بأن متاعبها الدنيوية قد انتهت !

فتهالكت المرأة المسكينة فى مقعدها وأخفت وجهها وقالت : أواه يا سيدى ، كيف علمت ذلك ؟ من الذى يمكن أن يكون قد أنبأك ؟ »

ــ لم ينبئنى بذلك أحد يا سيدة (كليمنتس) ، لكن عندى من الأسباب ما يجعلنى أوقن من ذلك .. وهى أسباب أعدك بأنك ستعلمينها بمجرد أن أطمئن إلى أن بوسعى الإفضاء بها ...

فقالت السيدة (كليمنتس) : « ماتت ؟ فى زهرة شبابها ، وبقيت أنا لأسمع نعيها ؟ لقد علمتها المشى ، وعندما قالت لأول مرة أمى ، قالتها لى أنا !.. والآن بقيت أنا ، وذهبت (آن) !

فقال لها (هارترايت) فى رفق : ينبغى أن أنصرف الآن ، ولكن إعطينى أولاً عنوان السيدة (كاثريك) » .

وكتب العنوان فى مفكرته ، ثم أمسك بيد السيدة (كليمنتس) قائلاً : « سوف تسمعين أنباء منى فى القريب .. وسوف تعرفين كل ما وعدتك باطلاعك عليه ! »

* * *

١٩ ــ أم (آن كاثريك)

فى عصر اليوم التالى وصل (هارترايت) إلى (ولمنجهام) ، فنزل فى فندق صغير مجاور للمحطة . وبعد الغداء مضى إلى منزل السيدة (كاثريك) ، مستفسرًا عن طريقه من عدة أشخاص .

وطرق الباب ، ففتحته له خادم فى أوسط العمر .. فأعطاها بطاقته قائلاً : إنه يود أن يرى السيدة (كاثريك) لأمر خاص بابنتها .. فذهبت الخادم ثم عادت ترجوه أن يتبعها ..

ودخل حجرة صغيرة ، مكسوة الجدران بورق زاهى الألوان .. وكانت مزدحمة بالأثاث .. وإلى جوار المنضدة القريبة من النافذة كانت تجلس امرأة مسنة ، تنسج أشغالاً بالإبرة .. وقد تدلى شعرها الأشيب على وجهها ، وحدقت عيناها القاتمتان إلى الأمام بنظرات صارمة ..

وابتدرت (هارترايت) قائلة قبل أن ينبس بكلمة : لقد جئت لتحدثنى بشأن ابنتى .. فتفضل بذكر ما عندك .

فسألها (هارترايت) : هل تعلمين أن ابنتك قد فقدت ؟

ــ نعم ، أعلم ذلك !

ــ ألم يراودك الخوف من أن تتلو مأساة اختفائها مأساة موتها ؟

ــ بلى !.. فهل جئت لتخبرنى بأنها قد ماتت ؟

ــ نعم .



— ولماذا ؟

ألقت إليه بهذا السؤال الغريب دون أن يطرأ على صوتها أو وجهها أو مسلكها أدنى تغير !.. فأجابها (هارترايت) متعجبًا : « لماذا ؟ تسألينني لماذا جئت إلى هنا لأخبرك بوفاة ابنتك ؟ »

— نعم ، ماذا يهمك من أمرى أو أمرها ؟ وكيف توصلت إلى معرفة شىء عن ابنتى ؟

— لقد التقيت بها ليلة فرارها من المصحة ، وساعدتها على أن تبلغ مكانًا آمنًا !

— لقد اخطأت خطأ جسيمًا !

— آسف إذ أسمع هذا من أمها !

— إن أمها تقول ذلك !.. وكيف عرفت أنها ماتت ؟

— لست فى حِلٍّ من أن أوضح لك كيف عرفته ، لكنى عرفته ..

— وكيف عرفت عنوانى ؟

— حصلت عليه من السيدة (كليمنتس) .

— إن السيدة (كليمنتس) امرأة حمقاء ! وهل أوصتك بأن تحضر إلى هنا ؟

— لا .. لم توصنى بذلك .

— إذن فأنا أسألك مرة أخرى : لماذا جئت ؟

— جئت لأننى حسبت أن أم (آن كاثريك) قد يهمها بطبيعة الحال أن تعرف هل ابنتها حية أم ميتة ؟!

— جئت لذلك فقط ؟ ألم يكن لديك سبب آخر ؟

وتردد (هارترايت) .. لم يكن من اليسير عليه أن يجيب على هذا السؤال جوابًا صادقًا !.. فاستطردت المرأة : « إذا لم يكن لديك سبب آخر فليس لدى سوى أن أشكرك على زيارتك ، وأن أقول إننى لن أستبقيك طويلاً .. طاب مساؤك ! »

فقال (هارترايت) : « بل لدى سبب آخر للحضور ! »

— آه ، لقد حدست ذلك !

— إن موت إبنتك قد استخدم لإلحاق أبلغ الضرر بشخص عزيز علىَّ جدًا . وقد اشترك فى إلحاق ذلك الضرر شخصان : أحدهما هو سير (برسيفال جلايد) !

— حقًا ؟!

أنعم (هارترايت) النظر إلى المرأة ، ليرى هل تأثرت بذكر هذا الاسم فجأة .. ولكن عضلة واحدة من وجهها لم تختلج ، والحدة الصارمة فى نظراتها لم تتغير !.. فاستطرد : قد تتساءلين : كيف أضرت وفاة ابنتك بشخص آخر ..؟

فقالت السيدة (كاثريك) : « كلا على الإطلاق .. فهذا شأنك ! إنك تهتم بأمورى .. أما أنا فلست مهتمة بأمورك ! »

ـــ إذن فلعلك تتساءلين : لماذا أذكر هذه المسألة أمامك ؟

ـــ نعم ، إنى لأتساءل عن ذلك !

ـــ إنما أذكرها لأنى أعتزم معاقبة سير (برسيفال جلايد) !

ـــ وما دخلى أنا فيما تعتزم ؟

ـــ سوف تعرفين .. هناك أحداث معينة فى حياة سير (برسيفال) الماضية ستعيننى معرفتها ، وأنت تعرفينها .. ولهذا جئت إليك !

ـــ أية أمور تقصد ؟

ـــ أمور حدثت فى (ولمنجهام القديمة) ، حين كان زوجك كاتبًا فى كنيسة القرية .

وبدا له أنه نال من المرأة أخيرًا ، ونفذ خلال سياج هدوئها .. إذ رأى الغضب يتقد فى عينيها ، ولم تعد يداها تستقران على وضع .. ثم قالت : « آه ، لقد بدأت أفهم الآن .. أنت عدو لسير (برسيفال جلايد) ، وتريدنى أن أساعدك .. أن أنبئك بهذا وذاك وسواهما عن سير برسيفال) وعن نفسى .. أترى ذلك ؟.. كلا .. فلتحطمه وحدك ! »

ـــ ألا تثقين بى ؟

ـــ كلا !

ـــ أأنت خائفة من سير (برسيفال) ؟

ـــ حقًا ؟

ـــ إن لسير (برسيفال جلايد) مكانة سامية فى العالم ، فلا عجب

إذا كنت خائفة منه .. وهو رجل قوى ، من ذوى الألقاب ، ويملك ضياعًا واسعة ، وسليل أسرة عريقة ..

وأدهش (هارترايت) أن انفجرت المرأة فجأة ضاحكة .. ثم قالت فى ازدراء : « نعم إنه من ذوى الألقاب ، ويملك ضياعًا واسعة ، وسليل أسرة عريقة .. نعم .. أسرة عريقة حقًّا ، ولا سيما من جهة أمه ! »

ـــ إذن فأنت ترفضين أن تفضى إلىَّ بما كان بينك وبين سير (برسيفال جلايد) حين كنتما تلتقيان سرًّا ، وحين فاجأكما زوجك تتهامسان معًا « بقرب مخزن المحفوظات بالكنيسة ! »

وهُنا طرأ على المرأة تبدل غريب ، فقد زايل الغضب وجهها ورأى (هارترايت) المرأة الصارمة ، التى لا تخاف ، تضعف فجأة أمام رعب لم تقو صلابتها وقوة ذهنها على الصمود له .. وكانت كلماته الأربع الأخيرة هى التى أحدثت هذا التطور : « بقرب مخزن المحفوظات بالكنيسة .

وكرر الشاب سؤاله : « أما زلت ترفضين أن تولينى ثقتك ؟ »

وهنا لم تستطع المرأة أن ترد إلى وجهها لونه السابق الذى فر .. لكنها استطاعت أن ترد إلى صوتها ثباته ، وإلى مظهرها هدوءه وهى تجيبه :

ـــ نعم ، أرفض .. فاذهب ولا تعد مرة ثانية !

* * *

غادر (هارترايت) المنزل وهو يشعر بأن السيدة (كاثريك) قد أعانته

على الرغم منها خطوة إلى الأمام .. فمضى فى الشارع متباطئًا .. وإذا به ينتبه فجأة إلى صوت باب يغلق وراءه ، فنظر حوله .. فرأى رجلاً يغادر المنزل المجاور لمنزل السيدة (كاثريك) .. وكان نفس الرجل الذى ظل يراقبه قبل مبارحته إنجلترا ، والذى رآه وهو يغادر مكتب مستر (جيلمور) منذ أيام !

وانتظر (هارترايت) فى مكانه ليرى ما إذا كان الرجل سيتكلم فى هذه المرة ، فإذا الرجل لدهشته يتجاوزه مسرعًا دون أن ينطق بكلمة ، بل دون أن يلقى نظرة إلى وجه (هارترايت) حين حاذاه . وكان (هارترايت) يتوقع تصرفًا آخر ، فقرر أن يرضى فضوله بأن يتبعه .. فمضى فى أثره ، دون أن يعبأ بماذا كان قد رآه أو لم ينتبه إليه .

ولم ينظر الرجل خلفه .. بل تقدم (هارترايت) ماضيًا فى الشوارع حتى محطة السكة الحديدية ، وكان القطار قد أوشك أن يتحرك ، وقد اجتمع عند شباك التذاكر اثنان أو ثلاثة من المسافرين الذين وصلوا متأخرين .. فانضم (هارترايت) إليهم ، واستطاع أن يسمع الرجل بوضوح يطلب تذكرة إلى (بلاكووتر) .

واطمأن إلى أن الرجل قد سافر فعلاً فى القطار ، قبل أن يغادر المحطة !.. ولم يكن أمام (هارترايت) سوى تفسير واحد لما سمعه ورآه .. لقد لاحظ أن الرجل غادر البيت المجاور لبيت السيدة (كاثريك) ، ما فى هذا شك .. فلعله يقيم هناك كمستأجر من قبل سير (برسيفال) ، الذى توقع

إن تحريات (هارترايت) ستقوده إلى السيدة (كاثريك) ، إن عاجلاً أو آجلاً !.. ولا شك إن الرجل رأى (هارترايت) يدخل البيت ، ثم يغادره ، فهرع إلى (بلاكووتر بارك) بأول قطار كى يقدم إلى (برسيفال) تقريره !.. ومن الطبيعى أن يكون الأخير مقيمًا هناك كى يكون متأهبًا فيما لو ذهب (هارترايت) إلى (هامبشاير) ! — واستنتج الشاب أن من المحتمل جدًا أن يلتقى وسير (برسيفال جلايد) عما قريب !

وحين غادر (هارترايت) المحطة كان المساء يؤذن بالظلام . وكان ثمة أمل ضئيل فى أن يستطيع الإفادة من مواصلة تحرياته بعد هبوط الظلام ، فى بلدة هو غريب عنها تمامًا ..! ومن ثم عاد أدراجه إلى الفندق فتناول عشاءه ، ثم كتب إلى (ماريان) خطابًا يطمئنها فيه على سلامته ، ويخبرها بأن لديه أملاً معقولاً فى النجاح !

ثم جلس ليفكر فى حديثه مع السيدة (كاثريك) !.. « بقرب مخزن المحفوظات بالكنيسة » !.. إن السيدة (كاثريك) لم تغضب أو تستاء حين قال هذه الكلمات ، وإنما تملكها خوف هائل !.. وكان كثيرًا ما خطر له أن سر السير (برسيفال) قد يكون جريمة خفية تعرفها السيدة (كاثريك) .. وقد أظهر له ذعر المرأة أمرين : إن للجريمة صلة بمخزن المحفوظات بالكنيسة .. وإن السيدة (كاثريك) كانت أكثر من شاهد لارتكاب تلك الجريمة .. كانت شريكة لسير (برسيفال) فيها !

ولكن لماذا تحدثت السيدة (كاثريك) عن سير (برسيفال) فى

ازدراء ؟.. لقد أشارت فى تهكم إلى الأسرة « العريقة » التى انحدر منها « ولا سيما من جهة أمه ! » فما معنى ذلك ؟.. هل كانت أمه من طبقة وضيعة ؟

إن الجواب على هذه الأسئلة لن يتسنى إلا بالبحث فى السجل الذى أثبت فيه زواج سير (فليكس جلايد) .. ودفاتر تسجيل الزواج تحفظ عادة فى غرف المحفوظات بالكنائس !.. وهكذا كان كل شيء يرشد (هارترايت) إلى الخطوة التالية : فقرر أن يزور فى الغد كنيسة (ولمنجهام القديمة) .

* * *

٢٠ ــ السر !

كان الجو فى صباح اليوم التالى ملبدًا بالغيوم ، ولكن المطر لم ينهمر .. وبعد أن استفسر (هارترايت) عن الطريق انطلق سائرًا على قدميه إلى كنيسة (ولمنجهام القديمة) . وكانت المسافة تزيد عن الميلين ، ترتفع الأرض فيهما تدريجًا طيلة الطريق .. وكانت الكنيسة تقوم على أعلى بقعة ، وكانت مبنى عتيقًا ، عدت عليه عوادى الجو .. وكانت غرفة المحفوظات فى المؤخرة ــ إذ بنيت خارج مبنى الكنيسة ، وبدا أنها تناهزها فى القدم ــ وحول المبنى ظهرت أطلال القرية التى عاشت فيها السيدة (كليمنتس) والسيدة (كاثريك) منذ أكثر من عشرين عامًا ، والتى هجرها السكان الأصليون إلى بلدة (ولمنجهام) الجديدة .. وهكذا لم تبق فى القرية غير الجدران الخارجية لبعض المنازل وبضعة أكواخ ظل يسكنها قوم من أفقر طبقة ..

وإذ جاوز (هارترايت) بعض الأكواخ المهدمة ، باحثًا عن شخص يقوده إلى كاتب الكنيسة ، برز من وراء أحد الجدران شخصان مضيا فى أثره !.. وكان أطول الاثنين رجلاً ضخمًا بارز العضلات ، لم يره من قبل .. أما الثانى فكان الرجل الذى تبعه فى اليوم السابق إلى المحطة !

ولم يحاول أحدهما أن يخاطب (هارترايت) ، بل حرص كلاهما على أن يظلا على مسافة منه .. لكن سبب وجودهما فى المكان كان واضحًا ،

ومطابقًا لما توقعه (هارترايت) من أن (برسيفال) كان متأهبًا للقائه .. فلقد نمى إليه نبأ زيارته للسيدة (كاثريك) فى الليلة الماضية فأرسل هذين الرجلين ليتربصا له بالقرب من الكنيسة !

وقرر (هارترايت) أن يواصل مهمته ، فما كان فى استطاعته أن يمنع الرجلين من مراقبته ، إذ كان لهما عين ما له من حق فى الوجود فى المكان .. وهكذا مضى مبتعدًا عن الكنيسة حتى بلغ أحد المنازل المأهولة ، رأى فى حديقته عاملاً يشتغل بفلاحة الأرض ..

وقاد العامل (هارترايت) إلى كوخ أمين الكنيسة ، فإذا الأمين فى الداخل ، يهم بارتداء سترته . فقال حين أوضح له (هارترايت) الغرض من زيارته : « من الخير أن جئت مبكرًا يا سيدى ، فقد كنت أهم بالخروج » .. وتناول مفاتيحه ـــ وهو يتكلم ـــ من مسمار وراء المدفأة ، وأغلق باب الكوخ خلفهما إذ خرجا ، قائلاً فى مرح :

ـــ لا يوجد أحد فى البيت يدبر شئونه ، فإن زوجتى ترقد هناك فى مقبرة الكنيسة ، وأولادى جميعًا قد تزوجوا ، إنه مكان كئيب ، أليس كذلك يا سيدى ؟.. أظنك من لندن ؟.. كنت أعيش فى لندن منذ خمسة وعشرين عامًا ، ما أنباؤها الآن من فضلك يا سيدى ؟

ومضى يقود (هارترايت) وهو يثرثر حتى مخزن المحفوظات ، ولم يكن يبدو للجاسوسين أى أثر ـــ ولعلهما اختبئا فى مكان يستطيعان منه أن يراقبا تصرفات (هارترايت) التالية بحرية تامة !

كان باب غرفة المحفوظات مصنوعًا من خشب البلوط القوى ، تدعمه مسامير حديدية .. فوضع الأمين مفتاحه الضخم الثقيل فى القفل ، بهيئة من يعلم سلفًا أن أمامه صعوبة ويرتاب فى استطاعته التغلب عليها .. ثم قال :

ـــ لقد اضطررت إلى أحضارك من هذا الطريق يا سيدى لأن الباب المفضى من الكنيسة موصد بالمزلاج من داخل الغرفة .. ولولا ذلك لجئنا عن طريق الكنيسة وهذا القفل ردىء ، ومن الكبر بحيث يصلح لباب سجن ، وقد أصلح مرارًا وتكرارًا وينبغى تغييره بآخر جديد .. قلت ذلك للقسيس خمسين مرة ، وهو دائمًا يقول : « سأنظر فى الأمر » .. لكنه لا ينظر قط !.. آه ، إن المكان ركن ضائع .. إنها ليست مثل لندن يا سيدى ، أليس كذلك .. نحن هنا نيام ، لا نتطور مع الزمن !

وبعد عدة محاولات .. أذعن القفل الثقيل ، فانفتح الباب !

كانت الحجرة عتيقة معتمة ، منخفضة السقف ، أقيمت لصق جدارين منها خزانتان خشبيتان ثقيلتان ، أكل الدهر عليهما وشرب ، ونخرهما السوس .. وكانت على أرض الحجرة ثلاث حقائب ، وفى ركن منها كومة من الأوراق تراكم عليها الغبار .. وكان النور ينساب إلى الحجرة من كوة صغيرة فى السقف .. وكان الباب الذى يصلها بالكنيسة مصنوعًا بدوره من الخشب البلوط المتين ، وقد أوصد من الجانب الذى فى الغرفة بمزلاجين ثبتا فى قمته واسفله ..

وقال أمين الكنيسة فى لهجة الاعتذار : « ينبغى أن تكون أكثر عناية

بالنظافة ، أليس كذلك يا سيدى ؟.. ولكن ما خيلتك حين تكون فى ركن ضائع كهذا المكان ؟ أى عام فى سجل الزواج تود الاطلاع على بياناته يا سيدى ؟ » .

وكانت (ماريان) قد ذكرت لـ (هارترايت) سن سير (برسيفال) ، عندما تحدثا عن خطوبته لـ (لورا) ، فقالت يومئذ إنه فى الخامسة والأربعين .. وحسب (هارترايت) المدة على هذا الأساس ، مضيفًا إليها العام الذى انقضى ، فوجد أنه ولد ولابد فى عام ١٨٠٤ ، لذلك رأى من الأسلم أن يبدأ بحثه من هذا التاريخ ، فقال يجيب محدثه : « أريد أن ابدأ بعام ١٨٠٤ »

فتاول الأمين حزمة مفاتيح من جيبه وفتح إحدى الخزانتين .. وبهت (هارترايت) لعدم سلامة المكان الذى تحفظ به هذه السجلات ، إذ كان باب الخزانة متآكلاً من القدم . والقفل من أصغر الأنواع وأكثرها شيوعًا ، بحيث كان فى مقدور (هارترايت) أن يفتحه بسهولة إذا دفعه بعصاه !

وقال : « كان لابد لدفتر بهذه الأهمية أن يحفظ فى خزانة حديدية آمنة ، ذات قفل أحسن من هذا » .

فقال الأمين وهو يتناول من الخزانة سجلاً مجلدًا بغلاف بنى اللون : « هذا عجيب .. هذه عين الكلمات التى كان مستر (وانسبورو) يقولها دائمًا .. كان محاميًا شديد الاهتمام بشئون الكنيسة .. وقد ظل طيلة حياته يحتفظ بنسخة من هذا السجل فى مكتبه بجهة (نوليسبورى) : وكان يحضر

إلى هنا مرة كل شهر لينسخ التسجيلات الجديدة قائلاً : « من أدرانى أن السجل المحفوظ هنا لا يسرق يومًا أو يتلف ؟ ولماذا لا يحفظ فى خزانة حديدية ؟.. سيقع يومًا حادث .. فإذا ما ضاع السجل ، فستدركون قيمة سجلى الخاص ! » .. آه ، إنك لا تجد الآن رجالاً فى مثل حرصه ! » .

ووضع الأمين نظارته على عينيه وأخذ يقلب صفحات السجل ، وهو يبلل أصبعه بحرص كل ثلاث صفحات مرة .. ثم قال :

ـــ إليك يا سيدى .. سنة ١٨٠٤ .. ها هى ذى السنة التى تريدها .

فبدأ (هارترايت) بحثه من بداية السنة ، وكان السجل من الطراز العتيق ، الذى تضاف إليه التسجيلات الجديدة فى صفحات جديدة بيضاء ، وبعد كل إضافة يرسم خطًا بالحبر عبر الصفحة مشيرًا إلى مكان الإضافة !

ولم يجد (هارترايت) الزواج المنشود فى بداية سنة ١٨٠٤ .. فعاد يبحث فى ديسمبر سنة ١٨٠٣ ،فنوفمبر ، فأكتوبر .. وفى شهر سبتمبر ، وجد الزواج ، فأنعم النظر فيه .. كان فى آخر الصفحة ، وقد وضع فى فراغ أقل مما خصص للزيجات التى سبقته ، لضيق المجال ..

كان اسم زوجة سير (فليكس جلايد) قد سجل هكذا : « جين الستر » من بارك ـــ فيوهاوس بجهة نوليسبورى .. الابنة الوحيدة للمرحوم السيد (باتريك) الستر من أهالى (بات) سابقًا .

ولم يكن هناك شيء غريب يكتنف التسجيل ، غير ضيق المساحة التي كتب فيها .. فنقل (هارترايت) البيانات في مفكرته الخاصة ، وهو يحس بمزيج من الارتياب وخيبة الأمل ، إذ بدا أنه لم يقف على شيء ذي أهمية .. والسر الذي حسبه قد بات في متناوله ، بدا أبعد ما يكون عن يديه !.. فأغلق السجل وأعاده إلى الأمين ، وهو يقول :

ـــ أحسب أن القسيس الذي كان هنا سنة ١٨٠٣ لم يعد على قيد الحياة ؟

ـــ لا ، لا يا سيدي .. لقد مات قبل حضوري إلى هنا ـــ سنة ١٨٢٧ ـــ بنحو ثلاثة أو أربعة أعوام ، وقد حصلت على عملي هنا عندما تركه الأمين الذي سبقني يا سيدي .. ويقولون إنه قد طرد من داره ومقامه بسبب زوجته ، التي ما تزال تعيش في المدينة الجديدة هناك .. وقد كان ابن مستر (وانسبورو) الشيخ هو الذي حصل لي على هذا العمل !

ورأى (هارترايت) أن من الخير أن يتوجه إلى (نوليسبوري) ويقوم ببعض التحريات هناك عن « الآنسة الستر ، المنحدرة من نوليسبوري » .

وسأل أمين الكنيسة : « ألم تذكر لي بأن مستر (وانسبورو) كان يعيش في (نوليسبوري ؟) »

فأجابه الرجل : « نعم يا سيدي ، بالتأكيد : إن مستر (وانسبورو) كان يعيش في جهة (نوليسبوري) ، وكذلك يعيش ابنه مستر (وانسبورو) الشاب هناك الآن .. وهو محام ، مثل ما كان والده ..! »

ـــ وكم تبعد (نوليسبوري) عن هنا ؟

ـــ مسافة طويلة يا سيدي ، أكثر من خمسة أميال !

وكان الوقت ظهرًا ، ولا تزال هناك فسحة من الوقت للسير إلى (نوليسبوري) والعودة إلى (ولمنجهام) .. ولعل أحدًا في البلدة كلها لم يكن أصلح لمعاونة (هارترايت) في تحرياته بصدد والدة سير (برسيفال) من محام من أهل بلدتها !.. وهكذا ما إن قرر الذهاب إلى (نوليسبوري) فورًا حتى سعى إلى باب غرفة المحفوظات ودس بعض النقود في يد أمين الكنيسة فقال هذا :

ـــ أشكرك يا سيدي .. ولكن هل تعتزم حقًّا الذهاب إلى (نوليسبوري) والعودة منها سيرًا على قدميك ؟ إن ساقيك قويتان ، وهذه نعمة كبرى .. هذا هو الطريق ، وأنت لن تخطئه .. أتمنى لك يومًا طيبًا يا سيدي .. وشكرًا جزيلاً ، مرة أخرى !

وافترق الرجلان .. وإذ خلف (هارترايت) بناء الكنيسة وراءه التفت خلفه ، فرأى الجاسوسين مرة أخرى وقد انضم إليهما ثالث ، ووقفوا يتحدثون معا فترة من الوقت .. ثم تركهما الثالث ومضى في اتجاه (ولمنجهام) ، بينما بقي الآخران في موقفهما بقرب الكنيسة !

كان الطريق إلى (نوليسبوري) مستقيمًا مستويًا في الجزء الأكبر منه .. وبعد مسيرة ساعتين دخل (هارترايت) المدينة ، ولحسن حظه وجد مستر (وانسبورو) في مكتبه ، وبدا الاهتمام على المحامي حين عرف

الهدف من زيارة (هارترايت) ، فقال « إن النسخة لم تمس منذ وفاة أبى ومن المحزن أنه لم يعش ليسمع رجاء بطلب سجله الخاص .. فقد كان ذلك خليقًا بأن يسره !»

وأحضر أحد الكتبة السجل ، فتناوله منه (هارترايت) بيدين مرتجفتين ورأس متقد ــ فضولاً وإشفاقًا ــ وبحث فيه عن تسجيلات شهر سبتمبر سنة ١٨٠٣ .. فوجد الصفحة الخاصة به وفيها نفس الزيجات التى قرأها فى سجل الكنيسة .. وفى ذيل الصفحة .. عجبًا .. لم يجد فى ذيل الصفحة شيئًا ــ لا ولا كلمة واحدة ــ مما أثبت به زواج سير (فليكس جلايد) وجين الستر فى سجل الكنيسة !

وقفز قلب (هارترايت) فى صدره قفزة هائلة ، وأخذ يخفق حتى أحس أنه يكاد يقفز من حلقه !.. ونظر مرة أخرى ، وهو يخشى أن يصدق عينيه ! لا .. لا .. لم يكن ثمة شك .. أن الزواج لم يكن مسجلاً فيه ، بل كان مكانًا شاغرًا ، مما أوحى له بالقصة كلها : فإن سير (فليكس جلايد) لم يتزوج قط ولا كان سير (برسيفال) ولده الشرعى !.. وقد كان سجل الزواج بالكنيسة خاليًا من الزواج المزعوم حتى حل سير (برسيفال) بالقرية فى سنة ١٨٢٧ فزور الإثبات ، بمعونة السيدة (كاثريك) .. ولعلها قد سرقت يومئذ مفاتيح غرفة المحفوظات من زوجها الذى كان أمين الكنيسة إذ ذاك .

وتشبث (هارترايت) بحافة المكتب ليجنب نفسه السقوط .. فما كان

أى شك مما ساوره يقرب من الحقيقة فى شىء .. بل إن فكرة أن سير (برسيفال جلايد) لم يكن له ــ أكثر مما لأفقر عامل يفلح أرضه ــ من حق فى اللقب الذى يحمله ، وفى ضيعة (بلاكووتر بارك) ، لم تخطر بباله البتة !.. أى عجب الآن فى القلق الذى كان يضنى حياة التعس ، وفى عدم الاطمئنان الذى جعله يحبس (آن كاثريك) فى المصحة ، ويساعد فى التآمر على زوجته ، ظنًا منه أن كلا منهما كانت تعرف سره الرهيب .. لو أن هذا السر عرف فى السنين الماضية لشنق ، بل إنه ليحتمل أن ينفى إلى الأبد لو عرف الآن !؟

واتضح للشاب إذ ذاك أيضًا سر فزع السيدة (كاثريك) ، فلو عرف نصيبها فى التزوير لحق عليها نفس العقاب .. وحتى لو لم يعاقب القانون سير (برسيفال) على جريمته ، فإن معرفة سره ستنتزع منه بضربة واحدة : اسمه .. ومركزه .. وأملاكه .. وكل الحياة التى اغتصبها بغير وجه حق !

ذلك إذن هو السر ، وقد بات الآن فى حوزة (هارترايت) !.. كلمة منه كفيلة بحرمان سير (برسيفال) من قصره وأراضيه ولقبه إلى الأبد !.. كلمة واحدة من (هارترايت) تقذف به إلى الدنيا ، نكرة خالى الوفاض ، عديم الأصدقاء ..

كان مستقبل الرجل كله معلقًا بشفتى (هارترايت) .. وهو لابد قد عرف ذلك كما عرفه (هارترايت) !

* * *

٢١ ــ نهاية رهيبة

كان من المؤكد أن سير (برسيفال) قد علم بوقوف (هارترايت) على سره ، إذ لابد أن جواسيسه قد أخبروه بزيارة (هارترايت) لغرفة المحفوظات بكنيسة (ولمنجهام القديمة) .. وقد جعلت هذه الفكرة مدرس الرسم يتشد ويلزم الحذر ، فإن مصالح (لورا) ــ التى تفوق فى الأهمية مصالحه الشخصية ــ تعتمد وتتوقف على تصرفاته المقبلة .. وما كان سير (برسيفال) ليحجم عن ارتكاب أية جريمة ممكنة ضده .. ما كان السيد الزائف ليقف عند حد لإنقاذ نفسه من الخطر الذى كان يتهدد مركزه ووجوده كله !

وفكر (هارترايت) لحظة .. كان واجبه الأول الآن أن يحصل على دليل كتابى يثبت السر الذى اكتشفه .. ولا شك أن نسخة السجل كانت بمأمن فى مكتب مستر (وانسبورو) ، أما السجل الأصلى المحفوظ فى مخزن الكنيسة ، فأبعد ما يكون عن الأمان ، كما رأى بعينيه !

ومن ثم اعتزم الشاب أن يعود أدراجه إلى الكنيسة ، وأن ينقل نسخة من التزوير قبل أن يأوى إلى فراشه فى تلك الليلة .. ولم يكن يعلم إذ ذاك أن لابد من صورة رسمية معتمدة ، وأن أية وثيقة بخطه وحده لا يمكن أن تؤخذ دليلاً .. وبحكم جهله بهذه الحقيقة كان هدفه الأوحد الآن أن يعود إلى (ولمنجهام القديمة) !

وإذ غادر مكتب المحامى خطر له احتمال أن يتعرض لاعتداء فى الطريق ، وكانت عصاه خفيفة عقيمة الجدوى فى الدفاع .. فألقاها من يده وابتاع قبل مغادرته (نوليسبورى) عصا ثقيلة قصيرة صلبة الرأس !.. وبهذا السلاح قدر أنه سيكون كفؤا لأى إنسان يحاول أن يتصدى له !.. أما لو تصدى له أكثر من واحد ، ففى وسعه عندئذ أن يعتمد على ساقيه ، وقد كان فى زمن الدراسة بطلاً فى العدو ، ولم يعوزه التدرب بعد ذلك ، لا سيما فى أمريكا الوسطى !

* * *

كانت السماء تمطر حين غادر (هارترايت) البلدة بخطى سريعة . وحان ختام النهار الشتوى القصير وهو ما زال على مسيرة ميل من الكنيسة ، وفيما هو يدور حول أحد المنعطفات وثب ثلاثة رجال إلى عرض الطريق من أكمة إلى يمينه !..

ووقف (هارترايت) جامدًا وهم ينقضون عليه .. وهوى أول الرجال بعصاه نحوه ، فتنحى (هارترايت) جانبًا ، وإذا بالضربة تقع على كتفه .. ورد (هارترايت) بأن ضرب المعتدى بعنف على رأسه ، هابطًا عليه بالعصا التى كان قد اشتراها ، بكل قوته .. وإذا الرجل يسقط على ظهره نحو زميليه فى اللحظة التى كادا يطبقان فيها على (هارترايت) ، فتوقفا لحظة ، كانت فرصة كافية لـ (هارترايت) ، فمرق منهم فى لحظة ، وانطلق يجرى فى الطريق بأقصى سرعة ..

وتبعه الرجلان اللذان لم يصابا بضر .. وكانا عداءين سريعين ، فظل (هارترايت) فى الدقائق الخمس الأولى لا يسبقهما بكثير .. وكان من الخطر أن يجرى طويلاً فى الظلام ، فقد كان لا يكاد يرى الخط الأسود الممثل لأسوار الحقول على كل من الجانبين .. وكانت أى عقبة فى الطريق كفيلة بأن تلقى به إلى هلاك محقق !

.. ولم يمض كثيرًا حتى أحس بالأرض تتغير تحت قدميه ، فانحدرت عن المستوى مرة ، ثم ارتفعت ثانية .. وكان الرجلان فى الانحدار قد اقتربا منه قليلاً ولكنهما فى الارتفاع بدءا يتخلفان عنه .. وأخذ وقع أقدامهما يتضاءل فى أذنيه .. وقدر على هدى الصوت ، أنه تقدمهما بمسافة تسمح بأن ينحرف عن الطريق وينطلق فى الحقول ، فتسنح الفرصة كى يتجاوزه الرجلان فى الظلام !.. وبلغ بابا فى السور فقفز فوقه ، ووجد نفسه فى حقل .. وسمع الرجلين يمران بالباب ، ثم سمع أحدهما بعد دقيقة ينادى صاحبه لكى يعود .. ولم يكن لـ (هارترايت) بعد ذلك أن يعبأ بهما ، إذ كان بعيدًا عن بصرهما وسمعهما .. فظل ماضيًا عبر الحقل حتى إذا بلغ طرفه القصى ، وقف لحظة ليسترد أنفاسه ..

وكان مستحيلاً عليه أن يعود إلى الطريق الرئيسى ، ولكنه كان مصرًا مع ذلك أن يبلغ (ولمنجهام القديمة) فى تلك الليلة .. ولم يبزغ القمر أو النجوم لتهديه .. كل ما كان يعرفه أن الرياح والأمطار كانت فى ظهره حين غادر (نوليسبورى) ، فإذا حرص على أن يجعلها فى ظهره دائمًا ضمن على الأقل إلا يسير فى اتجاه خاطئ إطلاقًا ..

وجريًا على هذه « الخطة » انطلق عبر الحقول ، غير مصطدم بعقبات أسوأ من الأسوار والحفر ، حتى وجد نفسه على سفح تل ، والأرض منحدرة تحت قدميه ، فهبط إلى أسفل التل وعبر سياجًا وجد نفسه بعده فى طريق ضيق ، فتحول إلى اليسار .. وبعد عشر دقائق أو أكثر لمح كوخًا ينبعث الضوء من إحدى نوافذه .. وكان باب الحديقة مفتوحًا ، فدخل ليستفسر عن الطريق وقبل أن يطرق الباب فوجئ به يفتح ، ثم اندفع رجل منه خارجًا وفى يده مصباح مضاء ، ثم توقف ورفع المصباح إلى أعلا ليتبين شكل (هارترايت) .. فذهل الاثنان إذ رأى كلاهما الآخر !.. كان جرى (هارترايت) قد أفضى به إلى أقصى القرية .. ولم يكن حامل المصباح سوى صاحبه الذى تعرف إليه فى ذلك الصباح : أمين الكنيسة !

وسأله الشيخ بصوت منزعج : « أين المفاتيح ؟ هل أخذتها ؟»

فأجابه (هارترايت) : « أية مفاتيح ؟.. لقد جئت فى هذه اللحظة من (نوليسبورى) .. أية مفاتيح تعنى ؟»

— مفاتيح غرفة المحفوظات !.. فلينجنى الله ويساعدنى ! ماذا أفعل ؟!.. لقد ضاعت المفاتيح !

— كيف ؟.. متى ؟ من يمكن أن يكون أخذها ؟

— لست أدرى .. لقد عدت الآن فقط ، وكنت قد أحكمت غلق الباب والنافذة قبل خروجى .. وإذا أنا أجدهما الآن مفتوحتين !.. انظر !.. لقد اقتحم بعضهم البيت وسرق المفاتيح !

وعاد إلى النافذة ليرى (هارترايت) كيف أنها مفتوحة على مصراعيها .. فقال هذا : هيا بنا نسرع معا إلى غرفة المحفوظات .. أسرع ، أسرع ! »

كانت لهفته على الوصول إلى الكنيسة كبيرة بحيث هرع مبتعدًا عن الكوخ متقدمًا رفيقه الشيخ .. ولكن قبل أن يقطع عشر خطوات اقترب منه رجل قادم من اتجاه الكنيسة ، وقال له فى لهجة احترام : « أرجو المعذرة يا سير (برسيفال) ! »

ولم يكن (هارترايت) قادرًا على رؤية وجه محدثه ، ولكنه حكم من صوته بأنه غريب محض .. فقاطعه قبل أن يكمل عبارته : « لقد خدعك الظلام .. فلست سير (برسيفال) » .

قال الرجل : « حسبتك سيدى !

ـــ هل كنت تتوقع أن تلقى سيدك هنا ؟

ـــ لقد قيل لى أن انتظر فى الطريق !

وهنا كان أمين الكنيسة قد بلغ مكانهما ، فهمس :

ـــ من هذا ؟ هل يعرف شيئًا عن المفاتيح ؟

فأجابه (هارترايت) : « لن ننتظر لنسأله عنها .. لنسرع أولاً إلى غرفة المحفوظات » .

وأخذ ذراع الشيخ ليعينه على الإسراع . وكانت الكنيسة لا تبدو للعين ـــ حتى فى ضوء النهار ـــ إلا بعد بلوغ نهاية الطريق .. فلما اقتربا من تلك

البقعة أقبل نحوهما غلام من القرية يجذبه الضوء الذى يحملانه ، وقال لأمين الكنيسة حين عرفه : « إسمع يا سيدى .. هناك شخص قد دخل الكنيسة .. سمعته يغلق الباب على نفسه ويشعل الثقاب ! »

وارتجف العجوز هلعًا .. فقال (هارترايت) يشجعه : « هيا !.. هيا !.. إننا لم نتأخر .. سوف ندرك الرجل ، أيا كان ! »

وبلغا نهاية الطريق وصعدا التل المؤدى إلى الكنيسة .. وكان برج الكنيسة القائم أول شيء استطاع (هارترايت) أن يميزه فى عتمة الليل ، بغير وضوح .. فلما استدار لينعطف حول بناء الكنيسة متجها نحو غرفة المخزن سمع خطوات ثقيلة خلفه !.. كان ذلك الخادم الغريب قد تبعهما إلى الكنيسة .. فلما ارتد (هارترايت) إليه قال معتذرًا : « لست أقصد شرًا .. إنى أبحث فقط عن سيدى ! »

لم يبال (هارترايت) به ، ومضى فى طريقه .. وفى اللحظة التى دار هو والأمين فيها حول بناء الكنيسة وصارا فى مواجهة غرفة المحفوظات ، لاح لهما سقف الغرفة مضاءً من الداخل بضوء قوى يشع ببريق شديد فى الليل الخالى من النجوم .. فاندفع (هارترايت) من جوار الأمين نحو الباب !

وتسربت من الحجرة إلى هواء الليل الرطب رائحة غريبة .. وسمع (هارترايت) ضجيجًا فى الداخل ، ثم رأى الضوء يزداد توهجًا وارتفاعًا ، والزجاج يئز ويتحطم .. فوضع يده على الباب : إن غرفة المحفوظات تحترق !

وقبل أن يتحرك .. بل قبل أن يسترد أنفاسه ، أفزعه أن يسمع طرقًا عنيفًا على الباب من الداخل .. وسمع المفتاح يدور فى القفل ، وصوت رجل يصرخ مستغيثًا !

وخر الخادم ، الذى كان قد تبع (هارترايت) ، راكعًا على ركبتيه وصاح فى هلع : « رباه !.. إنه سير (برسيفال) ! »

و لم تكد العبارة تبرح شفتيه حتى كان الكاتب قد لحق بهما .. وفى تلك اللحظة سمع صوت المفتاح يدور فى القفل مرة أخرى ، أخيرة .. فهتف العجوز :

— فليرحمه الله !.. إنى أعرف هذا القفل .. إنه فى حكم الميت .. ولن يستطيع فتحه !

وإذا الهدف الأوحد الذى كان قد شغل أفكار (هارترايت) وسيطر على كل تصرفاته طيلة الأسابيع الأخيرة .. يتبخر من رأسه فى لحظة !.. وتلاشت من رأسه — كأنها الحلم — كل ذكرى للأسى القاسى الذى ترتب على جرائم الرجل .. وللوعد الذى قطعه بأن يعاقبه بما يستحق !.. و لم يعد الشاب يذكر غير بشاعة موقف سير (برسيفال) .. و لم يعد يخالجه سوى الشعور الإنسانى الطبيعى بالرغبة فى إنقاذه من ميتة رهيبة .. فصرخ :

— حاول الخروج من الباب الآخر !.. جرب الباب الآخر المؤدى إلى الكنيسة .. هذا القفل لن ينفتح . إنك لا محالة ميت إذا أضعت لحظة واحدة أخرى فى معالجته !

و لم يسمع القوم صرخة استغاثة أخرى حين أُدير المفتاح فى القفل لآخر مرة .. لم يعد ثمة صوت يوحى بأن (السجين) لا يزال على قيد الحياة !.. لم يعد يسمع (هارترايت) الآن غير صوت اللهب السارى بسرعة !.. فصاح بالأمين : مفتاح الكنيسة ! يجب أن نحاول الدخول من الجهة الأخرى .. قد نستطيع إنقاذه إذا تمكنا من اقتحام الباب الداخلى »

فصاح العجوز : « كلا ، كلا ! لا أمل !.. إن مفتاح الكنيسة ومفتاح غرفة المحفوظات فى حلقة واحدة .. كلاهما فى الداخل .. أواه يا سيدى لقد فات أوان إنقاذه !.. إنه لابد قد صار الآن رمادًا وحطامًا ! »

وكانت ألسنة النيران وسحب الدخان تتدافع فى تلك الأثناء من كوة الغرفة .. وكان سكان القرية القلائل قد تجمعوا حول الكنيسة ، وبدت وجوههم المذعورة على وهج اللهب ، ثم اختفت فى سواد الدخان .. ووقف خادم سير (برسيفال) جامدًا يحدق نحو غرفة المحفوظات .. وجلس الأمين العجوز على أحد القبور يرتجف ويئن .. وأدرك (هارترايت) ألا سبيل إلى إنقاذ الموقف !.. ثم هتف صوت من بين القرويين : سوف يرون النار من البلدة .. إن ثمة مضخة حريق فى البلدة .. وسيخفون لإنقاذ الكنيسة ! »

وكان لابد من انقضاء ربع ساعة قبل أن تصل المضخة من البلدة .. وما كان (هارترايت) ليستطيع أن يبقى بلا حراك طيلة الوقت ، فقد يكون التعس الذى فى المخزن حيًا ولكنه فاقد الوعى !.. ومن هنا صاح الشاب بأهل القرية :

ــ فلنبحث عن قطعة من الخشب نستعين بها على تحطيم الباب .. خمسة شلنات لكل رجل يساعدنى !

وتناول المصباح وراح يعدو فى اتجاه القرية ، فهلل له القرويون وتبعوه .. وفى أول كوخ مهجور عثروا على كتلة خشبية ثقيلة .. فعادوا بها إلى الكنيسة ! وحملها (هارترايت) وأربعة من القرويين وهرعوا نحو باب المخزن ، وراحوا يدفعونه .. ثم يتراجعون إلى الخلف ويعودون جريًا بالكتلة يدفعونه بها .. وبدأت مفصلات الباب تتداعى .. ثم سقط محدثًا دويًا هائلاً !.. ولفحت الحرارة وجوههم فأرغمتهم على التراجع .. ولم يستطيعوا أن يروا غير أتون من النار المضطرمة !

وهمس الخادم : « أين هو ؟ »

فأجاب أمين الكنيسة : « أصبح رمادًا وهشيمًا .. كما ستصير الكنيسة رمادًا وهشيمًا » .

وسمعت ضجة مقبلة من بعيد ، ووقع حوافر جياد مقبلة بأقصى سرعتها .. أخيرًا وصلت مضخة إطفاء الحريق !

وفى عشر دقائق كانت قد أعدت للعمل ، وتم توصيلها بالبئر الواقعة خلف الكنيسة ، ثم حمل الخرطوم نحو باب غرفة المحفوظات .. وبدأ رجال الإطفاء مهمتهم ..

ولو استدعى الموقف مساعدة ، لما استطاع (هارترايت) أن يمد يدًا .. فقد نشاطه ونضبت قواه .. لقد أيقن الآن من أن سير (برسيفال) قد

مات !.. فوقف جامدًا عاجزًا يحدق فى الحجرة المحترقة التى باتت طعمًا للنيران !

ورأى النار تنهزم وئيدًا .. وخبا وهجها .. وتصاعد البخار فى سحب بيضاء .. واستحالت حمرة الرماد إلى سواد ..

وترك اثنان من رجال الإطفاء زملاءهما واتجها نحو القرية .. ثم عادا بباب انتزعاه من أحد المنازل المتهدمة .. وحملاه إلى داخل الحجرة .. وعندما خرجا ثانية ، كانت على الباب جثة ، ألقى عليها أحد رجال الإطفاء قطعة من القماش ..

تقدم (هارترايت) على مهل من حلقة الرجال المحيطين بالباب ، الذى وضع على الأرض .. وكان ثلاثة منهم يحملون مصابيح ، فغض (هارترايت) بصره متهيبًا .. لم ير فى البداية شيئًا سوى قطعة القماش .. وكان وقع المطر عليها مسموعًا فى غمرة الصمت الرهيب .. فمد بصره إلى نهاية القماش .. وهناك ، كان وجه سير (برسيفال جلايد) الميت .. أسود ، بشعًا .. فى ضوء المصابيح !

وهكذا رآه (هارترايت) لأول ، ولآخر مرة .. وهكذا أراد الله لهما أن يلتقيا !

* * *



٢٢ ــ تعارف فى الأوبرا

عاد (هارترايت) فى الصباح إلى لندن ، وحين أوت (لورا) إلى مخدعها روى الشاب لـ (ماريان) ما عنده من أنباء .. ثم قال : « ينبغى أن نجنب (لورا) صدمة العلم بالحقيقة بغتة .. فلا تدعى أية صحيفة من الصحف تقع تحت بصرها ! »

ولاذت (ماريان) بالصمت لبضع دقائق ، تفكر فى نهاية سير (برسيفال) الرهيبة .. ثم قالت : « هل تعتقد انه أشعل النار فى الحجرة عامدًا ، كى يجعل إحراق السجل يبدو كما لو كان نتيجة حادث ؟ »

فأجاب (هارترايت) : « كلا ، بل أعتقد أنه كان ينوى إحراق الصفحة التى جرى فيها التزوير فقط ، فأنى إذا عجزت عن أبراز الأصل للمحكمة كى يقارن بالنسخة التى فى (نوليسبورى) ، لم يتوفر لى الدليل المادى الجاسم ضده !.. ولما كانت الحجرة مزدحمة بالأوراق والخشب الجاف فلعل النار امتدت عفوًا من ثقابه .. ولقد حاول الفرار من الباب فاستعصى عليه القفل .. ولعله حاول النجاة من الباب الداخلى حين ناديته ، ولكن من المحتمل أن اللهب والدخان كان أكثر من أن ينفذ خلالها ..

فقالت (ماريان) : « ليغفر الله له !.. ولكن ما الذى دعاه منذ البداية إلى التزوير فى سجل الزواج ؟ »

قال (هارترايت) : « أعتقد أنى أفهم السبب .. إننا لن نعرف أبدًا متى علم بأن أبويه لم يعقدا زواجًا .. ولقد عاد بعد وفاتهما إلى إنجلترا .. وكان لابد من شيئين قبل أن يستطيع تسلم الثروة : شهادة ميلاده ، وشهادة زواج أبويه !.. وكانت الأولى ميسورة سهلة ، فقد ولد فى الخارج وكانت له شهادة ميلاد .. أما الشهادة الثانية فقد حملته على الحضور إلى (ولمنجهام) القديمة حيث ارتكب جريمة التزوير بمساعدة السيدة (كاثريك) .. »

فسألته (ماريان) : « وماذا تنوى أن تفعل الآن ؟ هل ستبلغ البوليس ما اكتشفت ؟ »

فقال : « لن أفعل شيئًا من هذا القبيل ، إذ ما الفائدة ؟.. لقد حضر محامى سير (برسيفال) إلى (ولمنجهام) هذا الصباح قبل رحيلى عنها ، وقد سمع يقول : إن الوارث الشرعى لوالد (برسيفال) هو ابن لابن عمه يعمل ضابطًا فى البحرية ، وقد سرق سير (برسيفال) لقب هذا الرجل وأملاكه ودخله لمدة ثلاث وعشرين سنة !.. ولن يجديه أن يعلم ذلك الآن .. فضلاً عن أن سير (برسيفال) قد نال عقابه .. كلا يا (ماريان) ، سوف ألوذ بالصمت إزاء ما اكتشفت .. وليكتم الماضى أسراره ..! »

فقالت (ماريان) : « ولكن لابد من أن تعلم (لورا) بموت زوجها » .

ــ بلا شك ، ولكن .. يجب أن تمضى فترة من الزمن قبل أن ننبئها به !

ــ كلا يا (وولتر) ، الأفضل أن تعرف الأمر الآن ، سأجنبها التفصيلات وأسوق النبأ إليها فى لطف .. ولكن واجبى نحوها ، ونحوك ، يقتضينى أن أخبرها بموت زوجها .

ثم غادرت (ماريان) الغرفة .. وفى اليوم التالى علمت (لورا) بأن موته قد حررها !.. ثم لم يعد اسم سير (برسيفال) يذكر فيما بينهم قط !

* * *

وانقضت خمسة أشهر .. وأقبل شهر أبريل ، شهر الربيع ، شهر التغيرات !.. وكانت (لورا) قد تحسنت كثيرًا وأخذت النظرة المكدودة المهمومة ــ التى جعلتها تبدو أكبر من سنها ــ تزايلها سريعًا .. لكن (هارترايت) لاحظ أن المؤامرة خلفت نتيجة خطيرة واحدة : تلك هى أن ذاكرتها فيما يتعلق بالأحداث التى وقعت فيما بين وقت مغادرتها (بلاكووتر بارك) ووقت لقائهما فى مقبرة كنيسة (ليمريدج) ، كانت بعيدة عن أى أمل فى استردادها ! ــ وإن ظلت المسكينة تتجهم وترتجف لأتفه ذكر لهذه الفترة ــ وفيما عدا ذلك ، كانت قد قطعت مرحلة كبيرة فى طريق الشفاء ، حتى إنها كانت فى خير أيامها واصفاها تبدو وتتكلم كما كانت فيما مضى !.. واستيقظت ذكريات حياتها الماضية فى (كمبرلاند) ــ عندما كان (هارترايت) هناك ــ من سباتها الطويل .. وفى أثناء تلك الشهور لم يستطع (هارترايت) أن ينسى هدف حياته

الأول . لم ينس كلماته إلى مستر (جيلمور) : « إن بيت عمها سيفتح ثانية لاستقبالها ،وتلك الأكذوبة (الخاصة بموتها) ستمحى عن قبرها أمام الملأ .. وهذان المجرمان الآثمان سوف يقدمان لى حسابًا عن جريمتهما ! » .. ولقد مات أحدهما .. وبقى الآخر .. وكذلك بقى عزم (هارترايت) !

واستطاع أن يعثر على السمسار الذى أجر منزل « غابة سان جون » إلى الكونت (فوسكو) .. فقيل له إن الكونت جدد العقد لستة أشهر أخرى ، وسيبقى المنزل فى حوزته حتى آخر شهر يونية .. فكان أمام (هارترايت) وقت كاف لإعداد عدته ..

وفى صباح يوم مشرق من أيام أبريل قال لـ (ماريان) : « لقد اعتزمت أن أنتزع من الكونت (فوسكو) الاعتراف الذى فشلت فى الحصول عليه من سير (برسيفال) .. لكنى فى موقفنا الحاضر لا أملك حقًا على (لورا) يجيزه القانون ، ويقوينى فى كفاحى ضد الكونت وحمايتى لها .. وإذا كنت سأخوض قضيتنا ضد الكونت فلابد من أن أخوضها باسم « زوجتى » !.. فهل توافقيننى على ذلك يا (ماريان) ؟»

ــ أوافق على كل كلمة منه .

فواصل (هارترايت) كلامه قائلاً : « إننى أتكلم بصراحة .. وأنا أعتقد اعتقادًا خالصًا أن آمال (لورا) فى المستقبل محدودة متواضعة ، فإن ديون سير (برسيفال) قد التهمت ثروتها . وآخر فرصة لإعادتها إلى مكانها

فى المجتمع باقية تحت رحمة ألد أعدائها !.. أما وقد زال عنها كل امتياز ، فقد حق لمدرس الرسم الفقير أن يفتح قلبه لها آخر الأمر !.. لقد كنت أيام ثرائها المعلم الذى يأخذ بيدها فحسب .. أما الآن فإنى أطلب هذه اليد ، فى ضيقها وفقرها ، لتكون صاحبتها زوجة لى ! »

فقالت (ماريان) والدموع تطوف بمقلتيها : « وولتر !.. لقد فرقت بينكما يومًا ، لخيرك وخيرها ، فابق هنا يا أعز وأخلص صديق ، حتى تأتى (لورا) وتحدثك عما فعلت الآن ! »

وغادرت الغرفة .. فجلس (هارترايت) وحده إلى جوار النافذة ، ينتظر أصعب لحظة فى حياته !.. وفتح الباب .. ودخلت (لورا) وحدها . ولمح سعادتها ، وسعادته فى عينيها !

وبعد عشرة أيام تزوجا ..!

* * *

كانت تمر بـ (هارترايت) ــ فى سعادته الجديدة ــ لحظات يهن فيها عزمه .. لحظات يشعر خلالها بإغراء يلح عليه فى أن يقنع بحاضره الآمن ، بعد أن تحققت له أعز رغبات حياته !.. كان عمله وفنه يستطيعان أن يكفلا العيش له وزوجته ، و (ماريان) .. ولأول مرة ، فكر فى خطورة العمل ضد الكونت (فوسكو) !.. وكما كانت (لورا) تحوله ــ دون أن تدرى ــ عن طريق الواجب الوعر ، فإنها ــ دون أن تدرى أيضًا ــ ردته إليه !

كانت تمر عليها فترات تعاودها فيها ــ فى نومها ــ أحلام الماضى الرهيب ، فتذكرها بالأحداث التى غابت عن ذاكرتها فى يقظتها .. وفى ذات ليلة ــ بعد أسبوعين من زواجهما ــ رأى (هارترايت) الدموع تنحدر فى بطء من بين أجفانها المغمضة ، وسمعها تتمتم بكلمات خافتة أدرك منها أنها قد ارتدت ــ فى نعاسها ــ إلى ذكرى الرحلة القاتلة التى غادرت فيها (بلاكووتر بارك) إلى منزل الكونت (فوسكو) فى ضواحى لندن !

.. وفى اليوم التالى ارتد إلى (هارترايت) عزمه القديم وقد ازداد قوة وتصميمًا عشرة اضعاف !.. لقد فكر فى كل ما حدثته به (ماريان) عن الكونت (فوسكو) : كيف إنه لم يعبر الحدود إلى وطنه الأصلى منذ سنوات عديدة ، وكيف أسمته (لورا) يومًا بالجاسوس ، فخطر ببال (هارترايت) أن هذا قد يكون صحيحًا !.. فلو كان الكونت جاسوسًا ، لفسر هذا سر إطالته البقاء فى إنجلترا على هذا النحو الغريب ، بعد أن أصاب أهداف مؤامرته !.. ومن المحتمل أن تكون مسز (روبل) ــ الممرضة التى أحضرها لـ (ماريان) فى مرضها ــ جاسوسة هى الأخرى تعمل تحت إمرته !

ولكن كيف يتأتى لـ (هارترايت) أن يعرف حقيقة هذه الأفكار ؟.. كان خير عون يستطيع أن يركن إلى مساعدته هو شخص من مواطنى الكونت .. ففكر (هارترايت) لفوره فى الإيطالى الوحيد الذى كان على معرفة وثيقة به .. وهو صديقه القديم : (البروفيسور بيسكا) !.. لقد

غاب البروفيسور عن هذه الصفحات طويلاً ، حتى غدًا معرضًا لأن يكون قد بات فى زوايا النسيان .. وكان (هارترايت) — كما يمكن أن نتذكر — قد التقى به فى الدور اللندنية حيث كان يعلم الرسم ، وكان الإيطالى يعلم لغته .. وبفضل توصية (بيسكا) ذهب (هارترايت) إلى قصر (ليمريدج) ..

وكان (هارترايت) قد التقى بالبروفيسور منذ عودته إلى إنجلترا ، لكنه لرغبته فى أن يخصص كل وقته لكشف المؤامرة التى دبرت ضد (لورا) لم يلب الدعوة الحارة التى وجهها إليه البروفيسور كى يزوره .

وقبل أن يطلب (هارترايت) معونة (بيسكا) كان لزامًا عليه أن يرى الكونت ! — إذ لم يكن بصره قد وقع عليه قط حتى تلك اللحظة — فمضى ذات صباح إلى غابة (سان جون) وراح يسير على مهل جيئة وذهابًا فى الشارع ، ملتزمًا الجانب المقابل لبيت الكونت ، وبصره عالق بالبيت .. وبعد برهة قصيرة فتح باب البيت .. وخرج منه الكونت !

وكانت (ماريان) قد وصفت لـ (هارترايت) طول قامة الكونت وبدانته المخيفة ، لكنها لم تصور للشاب نشاط الرجل ومرحه .. كان يحمل سنى عمره الستين وكأنها أقل من أربعين !.. وكان يسير بخطوات خفيفة ، وقد ارتدى قبعته بميل خفيف ، وراح يطوح عصاه الكبيرة وهو يغنى بصوت خافت .. وتبعه (هارترايت) فى حذر ، وكانت ثمة ميزة لصالحه .. فإن الكونت لم يكن قد رآه قط ، ولن يعرف من يكون ، حتى إذا التفت خلفه ..

وبلغا شارع أكسفورد .. فدخل الكونت حانوتًا صغيرًا لبيع النظارات .. ثم خرج يحمل فى يده منظارًا مقربًا مما يستخدم متابعه روايات الأوبرا .

وسار الكونت ، ثم توقف ليتأمل إعلانًا عن برامج الأوبرا ملصقًا على حائط .. وما لبث أن نادى إحدى عربات الأجرة فاستقلها وهتف بالحوذى : « إلى شباك تذاكر الأوبرا » .. ثم ابتعدت به العربة .

وكان المنظار الذى فى يد الكونت ، ومطالعته الإعلان ، والعنوان الذى أملاه على الحوذى ، كل هذه أوحت إلى (هارترايت) بأن (فوسكو) سيكون من شهود الأوبرا فى تلك الليلة .. فسار إلى دار الأوبرا ، وابتاع تذكرتين .. ثم ترك رسالة للبروفيسور (بيسكا) فى مسكنه .. وعاد إليه فى الساعة الثامنة إلا ربع الساعة ليصحبه إلى المسرح .. وكان صديقه بادى الابتهاج ، وقد وضع فى عروة سترته زهرة جميلة ، وتأبط أضخم منظار مقرب وقعت عليه عيناه يومًا ما !

* * *

أسدل الستار عقب الفصل الأول ، وأضيئت الأنوار ، فنهض النظارة يتأملون ما حولهم .. وكان الكونت (فوسكو) يجلس فى صف يتقدم عن مكان (هارترايت) وصديقه بعشرة صفوف .. فنهض بدوره وأدار ظهره للمسرح ، ثم رفع منظاره وراح يتأمل الجالسين فى المقاصير

وسأل (هارترايت) صديقه : « هل تعرف هذا الرجل ؟ »

ـــ أى رجل يا صديقى ؟

ـــ الرجل الطويل البدين الواقف هناك ، ووجهه إلى ناحيتنا ؟

وكان (بيسكا) قصير القامة إلى حد كبير ، فتطاول على أطراف أصابعه ونظر إلى الكونت .. ثم أجاب :

ـــ كلا !.. إنه غريب عنى .. أهو شخصية مشهورة ؟.. ولماذا تلفت نظرى إليه ؟

ـــ إننى أريد أن أعرف عنه شيئًا ، فهو من مواطنيك ، ويدعى الكونت (فوسكو) .. هل تعرف هذا الاسم ؟

ـــ كلا يا (وولتر) ! لا الاسم ولا صاحبه معروفان لدى !

ـــ أواثق أنت من أنك لا تعرفه ؟ تأمله ثانية وأنعم النظر إليه .. قف فوق المقعد لتراه بوضوح أكثر !

وكان إلى جوارهما رجل نحيل الجسم فى خده الأيسر ندبة .. فنظر بانتباه إلى (بيسكا) و (هارترايت) يعينه على اعتلاء المقعد ، وتبع اتجاه بصر (بيسكا) ، وزاد من انتباهه وهو ينظر للكونت .

وعاد البروفيسور الضئيل القامة يقول مكررًا : « كلا ! إن بصرى لم يقع قط من قبل فى حياتى على هذا الرجل الضخم البدين ! »

وفيما هو يتكلم هبط نظر الكونت ، فالتقت أعين الرجلين الإيطاليين !.. وكان (هارترايت) قد اقتنع تمامًا ـــ فى اللحظة السابقة ـــ

بأن (بيسكا) لا يعرف الكونت .. ولكنه فى اللحظة التالية أيقن تمامًا من أن الكونت يعرف (بيسكا) .

يعرفه بل ويخافه أيضًا الأمر الذى يدعو إلى المزيد من الدهشة !.. فما كان أحد ليخطئ التغير الذى طرأ على وجه (فوسكو) .. إذ شحب لونه فصار فى بياض الموتى ، وفغر فاه ، ووقف جامدًا بلا حراك ، وقد سيطر رعب قوى على جسمه ونفسه .. وكان تعرفه على (بيسكا) هو السبب .. بينما كان ذو الندبة ـــ والذى بدا أجنبيًا ـــ لا يزال واقفًا على مقربة منهما حين هبط (بيسكا) من فوق المقعد وهتف مستغربًا :

ـــ ما أغرب نظرات الرجل البدين ؟ أكانت موجهة لى ؟.. أأنا من الشخصيات المعروفة ؟ كيف يعرفنى إذا كنت لا أعرفه ؟

وما إن تحرك (بيسكا) حتى تحول الكونت وهرع خارجًا من المسرح .. فأمسك (هارترايت) بذراع (بيسكا) وقاده إلى الخارج أيضًا .. ولاحظ فى دهشته أن الرجل النحيل هرع أيضًا وسبقهما .. وعاقت جماعة من النظارة (هارترايت) وصديقه فى الممر ، فلما وصلا إلى بهو المسرح كان الكونت (فوسكو) قد اختفى .. وكذلك الأجنبى ذو الندبة !

وهنا قال (هارترايت) لصديقه : « تعال معى ، تعال معى يا (بيسكا) ، إلى مسكنك .. إذ يجب أن أحدثك فورًا على انفراد » .

فصاح البروفيسور وهو فى أقصى العجب : « رحماك اللهم .. ماذا جرى فى الدنيا ؟ »

* * *

٢٣ ـ « أخوة » النـدوة

ما كاد (هارترايت) و (بيسكا) ينفردان فى غرفة الأخير ، حتى ضاعف (هارترايت) من دهشة صديقه بأن سرد عليه قصة الجريمة بحذافيرها ، وقصة زواجه من (لورا) ، والغرض الذى يسعى له ضد الكونت ..

فلما فرغ (هارترايت) من قصته صاح البروفيسور : « وماذا أستطيع أن أفعل يا صديقى ؟ كيف أساعدك يا (وولتر) إذا كنت لا أعرف الرجل ؟ »

ــ لكنه يعرفك ، بل يخافك !.. لقد ترك المسرح فرارًا منك !.. لابد من سبب لذلك يا (بيسكا) ، عد إلى حياتك قبل أن تأتى إلى إنجلترا فتأملها .. لقد غادرت إيطاليا ــ كما ذكرت لى ــ لأسباب سياسية .. فحاول أن تتذكر ما إذا كان هناك أى سبب فى الماضى للخوف الذى أدخلته على الرجل أو نظرة ألقاها عليك !

ولدهشة (هارترايت) أحدثت هذه العبارات ــ برغم براءتها الظاهرة ــ فى نفس (بيسكا) عين الأثر الذى أحدثته فى نفس الكونت عند رؤيته لـ (بيسكا) .. فقد ابيض وجه الإيطالى بغتة وتراجع مبتعدًا عن صديقه فى بطء وهو يرتجف من رأسه إلى قدمه !..

ثم همس فيما يشبه الحشرجة : « وولتر » ، إنك لا تعرف ماذا تطلب ! »

فأجابه (هارترايت) : « اغفرلى إذا كنت قد آلمتك .. واذكر الإساءة البشعة التى قاستها زوجتى على يدى الكونت (فوسكو) ! تذكر أن ذلك الذئب لا يمكن قط إصلاحه ، ما لم تتح لى الوسائل التى تضطره إلى إنصافها ، إنى أناشدك باسمها هى يا (بيسكا) ! »

فقال البروفيسور : « لقد هززتنى من رأسى إلى قدمى .. إنك لا تدرى كيف غادرت بلادى ، ولا لماذا غادرتها ! »

وراح يذرع الحجرة ذهابًا وجيئة ، وهو يغمغم محدثًا نفسه بلغته .. وبعد جولات عدة اقترب فجأة من (هارترايت) وواجهه ثم ألقى يديه الصغيرتين على كتفيه وقال : « وحقك ، ألا توجد وسيلة أخرى لتنال من هذا الرجل إلا عن طريقى أنا ؟ »

فأجابه (هارترايت) « ما من وسيلة أخرى ؟ ؟ »

فاتجه (بيسكا) نحو باب الغرفة ، وفتحه وتأمل الممر فى حذر .. ثم أغلقه ثانية وعاد إلى (هارترايت) يقول : « سأصارحك بكل شىء .. وأقسم أن كلماتى التالية صادقة .. وسوف تضع حياتى بين يديك ! »

نطق (بيسكا) بهذه الكلمات فى لهجة جادة أقنعت (هارترايت) بأنه يقول الصدق . ثم استطرد قائلاً : « اصغ إلى .. ليس فى ذهنى خيط يربط بين ذلك الرجل (فوسكو) وبين ماضى .. فإذا اهتديت أنت إلى هذا الخيط فاحتفظ به لنفسك ، ولا تقل لى شيئًا عنه .. دعنى أظل على جهلى به وعلى عماى عن المستقبل كله ، مثلما أنا الآن ! »

وصمت بضع لحظات .. قبل أن يستطرد : « إنك لا تعرف شيئًا عن

سبب مغادرتى إيطاليا ، عدا أنه سبب سياسى . ولعلك سمعت يا (وولتر) عن الجمعيات السياسية الخفية التى توجد فى كل مدينة كبيرة فى أوروبا .. لقد كنت أنتمى فى إيطاليا إلى إحدى هذه الجمعيات السرية ، ولا أزال أنتمى إليها وأنا فى إنجلترا .. فعندما جئت إلى هذه البلاد ، جئت بتوجيه من رئيسى .. كنت فى شبابى الباكر شديد التحمس ، وكان حماسى خليقًا بأن يعرضنى ويعرض سواى للخطر . ولهذه الأسباب أمرت بالمهاجرة إلى إنجلترا ، والبقاء بها فى انتظار صدور أوامر أخرى !

« وقد هاجرت .. وانتظرت .. ومازلت أنتظر !.. وقد أتلقى غدًا أمرًا بالعودة .. وقد لا ادعى قبل عشر سنوات أخرى !.. إن الأمر سواء عندى ، فإنى هنا أتعيش من التدريس ، وأنتظر .. والآن سأحدثك يا (وولتر) عن الجمعية ، وبذلك أضع حياتى فى يديك ، فلئن عرف الآخرون أن ما أقوله لك قد بارح شفتى ، فثق — ثقتك من جلوسنا الآن هنا — أننى ميت لا محالة ! »

ثم انحنى على (هارترايت) وهمس فى أذنه بالكلمات التالية : « الجمعية التى أحدثك عنها تدعى (أخوة الندوة) .. وهدفها هو القضاء على الطغيان ، ومنح الشعب حقوقه .. ومبادئ الأخوة اثنان : ما دامت حياة الإنسان نافعة ، أو حتى غير ضارة فحسب ، فإن من حقه أن يستمتع بها !.. أما أن تضر حياته بزملائه من البشر فإنه يفقد ذلك الحق ، ولا يكون قتله جريمة بل فضلاً !

« وقوانين الأخوة لا مثيل لها لدى أية جمعية سياسية أخرى على وجه الأرض .. فأعضاؤها لا يعرف أحدهم الآخر .. وهناك رئيس فى إيطاليا ، ورؤساء فى الخارج ، ولكل من هؤلاء سكرتيره ، والرؤساء والسكرتيرون يعرفون الأعضاء ، ولكن الأعضاء لا يعرفون بعضهم فيما بينهم .. ونحن جميعًا نحمل علامة سرية تبقى ما بقينا على قيد الحياة .. وقد أمرنا بأن نمضى فى أعمالنا العادية وأن نتقدم إلى الرئيس ، أو السكرتير ، أربع مرات كل عام ، لاحتمال أن تكون ثمة دواع لخدمتنا .. فإذا وشينا بالأخوة أو أسأنا إليها بخدمة مصالح أخرى ، فإننا نموت بحكم مبادئ الأخوة .. نموت بيد غريب قد يكون موفدًا من أقصى أطراف المعمورة كى يضرب الضربة القاضية .. أو ربما بيد أخلص أصدقائنا .. وقد يؤجل الموت أحيانًا .. وأحيانًا ينفذ فورًا عقب الخيانة .. وواجبنا الأول أن نتعلم كيف ننتظر .. وواجبنا الثانى أن نتعلم كيف نطيع إذا صدر الأمر لنا . وقد ينتظر بعضنا العمر كله دون أن تمس حاجة إليه .. وقد يدعى بمهمة فى يوم الانضمام بالذات !.. وقد وقع الاختبار علىَّ لمنصب السكرتير ، أثناء وجودى فى إيطاليا . وجميع الأعضاء الذين التقوا بالرئيس وجهًا لوجه — فى ذلك الوقت — التقوا بى أنا أيضا » .

وهنا بدأ (هارترايت) يفهم .. ورأى النهاية التى تؤدى إليها هذه القصة الغريبة .. وتريث (بيسكا) لحظة ، وهو يرقب صديقه بإمعان ، حتى حدس ما كان يدور فى رأسه .. ثم قال : « لقد استنبطت نتائجك »

الخاصة .. إننى أقرأ ذلك فى وجهك ، فلا تقل لى شيئًا ، أقصنى عن سر أفكارك .. ولكن دعنى أفعل شيئًا واحدًا آخر ، ثم أفرغ من هذا الموضوع إلى غير رجعة أبدا ! »

وخلع سترته ، وأزاح كم قميصه عن ذراعه اليسرى .. وقال :

« ذكرت لك إن الأخوة تضع لكل عضو علامة تلازمه مدى حياته ، وفى استطاعتك أن ترى العلامة ومكانها بنفسك ! »

ثم رفع ذراعه العارية ، وأرى لـ (هارترايت) فى الجزء العلوى منها وعلى الجانب الداخلى ، دائرة صغيرة طبعت بكى عميق فى اللحم ، وبلون الدم الأحمر القانى !.. ثم استطرد وهو يغطى ذراعه مرة أخرى :

ــ أى رجل به هذه العلامة ، فى هذا المكان ، يكون عضوًا فى « الأخوة » .. وكل من يتنكب مبادئ الجمعية لابد إن يفتضح أمره ، إن عاجلاً أو آجلا ، بوساطة الكبار الذين يعرفونه ــ إن رؤساء أو سكرتيرين ــ وكل من يكتشف أمره فهو ميت !.. ما من قانون بشرى يستطيع أن يحميه .. فلتذكر هذا الذى رأيت وسمعت ، وكون ما شئت من استنتاجات ، وتصرف كما يحلو لك .. ولكن بالله لا تخبرنى بشىء .. اعفنى من المسئولية . وللمرة الأخيرة ، أقسم بشرفى كرجل مهذب ، أنه إن كان الرجل الذى أشرت إليه فى الأوبرا يعرفنى فلابد أنه تغير لدرجة تجعلنى لا أعرفه .. وإنى لأجهل أفعاله وأغراضه فى إنجلترا .. فأنا لم أره أبداً ، ولم أسمع قط ــ قبل الليلة ، فيما أعلم ــ بالاسم الذى يتخذه

لنفسه .. ولا أقول أكثر من هذا ، فدعنى الآن برهة يا (وولتر) .. فقد هز ما قلت أعصابى ..!

فقال (هارترايت) : « سوف أحتفظ بذكرى هذه الليلة فى سويداء قلبى .. ولن تأسف أبدا على الثقة التى أوليتنيها .. طاب مساؤك يا (بيسكا) » .

ــ طاب مساؤك يا صديقى ..

* * *

وما كاد (هارترايت) يجد نفسه خارج البيت ، حتى اعتزم أن يتصرف فورًا على ضوء المعلومات التى تلقاها .. فنظر إلى ساعته ، وكانت تشير إلى العاشرة .. ولم يدر بخاطره أى ظل للشك فى الغرض الذى غادر الكونت المسرح من أجله .. كان « فراره » فى تلك الليلة خليقًا بأن يعقبه فراره من لندن كلها .. وكان (هارترايت) على ثقة من أن علامة الأخوة على ذراعه ، وأنه خان الجمعية !

وقد كان من السهل إدراك سبب قصور (بيسكا) عن معرفته .. فلعل الوجه الحليق الذى أشار إليه (هارترايت) فى الأوبرا ، كان مكسوا بلحية أيام كان (بيسكا) سكرتيرًا .. وربما كان الشعر البنى القاتم مستعارًا .. ومن الجلى أن الاسم زائف ..

ولعل عارض الزمن ساعده كذلك ، فجاءت هذه البداية الهائلة مع تقدمه فى السن .. الخ .

ولم يكد (هارترايت) يبلغ مسكنه حتى دلف فى هدوء إلى غرفة عمله دون أن يزعج (لورا) أو (ماريان) .. كان لابد من مقابلة الكونت (فوسكو) فى تلك الليلة بيد أنه كان من الضرورى ـــ من أجل (لورا) ـــ أن يقى نفسه من غريمه .. ومن ثمّ كتب إلى (بيسكا) الرسالة التالية :

« الرجل الذى أشرت لك نحوه فى الأوبرا عضو فى « الأخوة » ، وقد حاد عن مبادئها .. وأنت تعرف الاسم الذى يتخذه لنفسه فى إنجلترا ، وعنوانه : « رقم ٥ فوريست رود ، غابة (سان جون) » .. فاستخدم سلطتك دون رحمة ودون إبطاء ضد هذا الرجل ، فلقد خسرت معركتى ضده ، ودفعت حياتى ثمنًا لهذا الفشل ! »

ثم وقّع على الرسالة وكتب التاريخ ، ووضعها فى ظرف أغلقه ، وكتب على ظاهره : « لا تفض هذا الخطاب حتى الساعة التاسعة من صباح غد .. فإذا لم تسمع أنباء منى أو ترانى قبل هذا الوقت ففض الرسالة حين تدق الساعة التاسعة واقرأ محتوياتها ! » .. ثم أضاف الحرفين الأولين من اسمه ووضع الظرف فى ظرف ثانٍ أحكم إغلاقه ، وكتب عليه عنوان (بيسكا) فى مسكنه .. وهبط السلم فأعطى الرسالة ابن صاحب البيت وكلفه بأن يستقل عربة وأن يسلم الرسالة إلى البروفيسور (بيسكا) يدًا بيد ، ويحضر إيصالاً بتسلمها ، ثم يعود فى العربة فيستبقيها لدى الباب كى يستخدمها (هارترايت) بعد ذلك ..!

وأحس الشاب أنه قد فعل كل ما فى وسعه .. وعليه أن يتوجه الآن

إلى بيت الكونت .. فإذا حدث له شيء هناك فقد اتخذ ما يكفل للكونت أن يموت هو الآخر ..

ودخل إلى حجرة الجلوس ، فلم يجد فيها سوى (ماريان) ، أما (لورا) فكانت قد أوت إلى فراشها مبكرة .. فغادر الغرفة ثانية ليراها ، ووقف يتأملها وهى نائمة فى اطمئنان .. ثم همس يناجيها : « ليباركك الله ، ويحفظك ! »

وعاد إلى حجرة الجلوس .. ولم تمض عشرون دقيقة ، حتى أقبل ابن صاحب البيت بالعربة ، حاملاً رد (بيسكا) ، وكان يتضمن عبارتين : « تلقيت خطابك .. فإذا لم أرك قبل الوقت الذى حددته فسوف أفض الرسالة مع دقات الساعة التاسعة ! »

وضع (هارترايت) الورقة فى مفكرته ثم اتجه نحو الباب ، قائلاً : « إنى خارج مرة ثانية يا (ماريان) » .. فحدقت فى وجهه ، وأمسكت بيديه ، وهمست :

ـــ لقد فهمت أنك تبذل محاولتك الأخيرة الليلة !

فهمس مجيبًا : « نعم ، إنها آخر الفرص ، وأفضلها ..! »

ـــ لا تذهب وحدك !.. أواه يا (وولتر) ، بربك لا تذهب وحدك !.. دعنى أذهب معك .. لا ترفضنى لمجرد أننى امرأة !..

فقال (هارترايت) : « إذا أردت مساعدتى فأبقى هنا ، ونامى فى مخدع زوجتى الليلة .. دعينى أذهب وأنا مطمئن على (لورا) !.. هيا

يا (ماريان) ، أظهرى لى أن عندك الشجاعة الكافية كي تنتظرى حتى أعود ! »

وخلص يديه من قبضتها وهرع خارجًا من الغرفة ، ولم تمض لحظة حتى كانت العربة قد انطلقت به فى الطريق إلى « غابة سان جون » ... وكانت الساعة الحادية عشرة حين استوقف الحوذى ، فنقده أجره وصرفه .. ثم اتجه نحو باب دار الكونت (فوسكو) !!

وكان ثمة شخص آخر يتقدم نحو باب الحديقة ، من الاتجاه المضاد .. فعرفه (هارترايت) ، على ضوء مصباح الشارع .. كان ذلك الأجنبى النحيل ذو الندبة !.. وبدلاً من أن يقف أمام البيت كما فعل (هارترايت) واصل سيره ..

ترى هل كان فى طريق (فوريست رود) بمحض المصادفة ..؟

أم أنه تبع (فوسكو) فى عودته من الأوبرا ؟

لم يحاول (هارترايت) أن يجيب عن هذه الأسئلة ، وإنما دق جرس الباب ، وأعطى بطاقته للخادم التى فتحت له ، فمضت إلى داخل البيت ، ثم عادت تدعوه إلى الدخول ..!

* * *

٢٤ ــ اعترافات الكونت فوسكو

قادت الخادم (هارترايت) إلى إحدى الحجرات ، وإذا به يجد نفسه وجهًا لوجه أمام الكونت (فوسكو) ؟!

كان الكونت لا يزال فى ثياب السهرة ، فيما عدا سترته التى ألقاها على أحد المقاعد .. وكان كمَّا قميصه مطويين عند رسغيه ، دون أن يتجاوزاهما .. وفى أنحاء الحجرة انتثرت الكتب والأوراق وقطع الثياب المختلفة .. وعلى منضدة صغيرة كان القفص الذى يضم فيرانه البيض !

وكان الكونت جالسًا أمام صندوق انهمك فى حزمه .. فنهض واقفًا حين دخل (هارترايت) ، وكان وجهه مايزال يحمل بوضوح آثار الصدمة التى تلقاها فى دار الأوبرا ، إذ تهدل خداه ، وبدت فى عينيه الرماديتين الباردتين نظرة حذر وتيقظ .. ثم قال : « هل أتيت لعمل يا سيدى ؟ »

فأجابه (هارترايت) : « إننى حسن الحظ إذ وجدتك هنا الليلة .. إذ يبدو أنك على وشك القيام برحلة ما ..؟ »

ــ وهل مهمتك تتصل برحلتى ؟

ــ إلى حد ما ..

ــ إلى حد ما ؟ هل تعرف إلى أين أنا ذاهب ؟

ــ كلا .. وإنما أعرف فقط سبب رحيلك عن لندن !

وإذ ذاك مرق الكونت إلى جوار (هارترايت) فى سرعة خاطر ، فأغلق باب الحجرة بالمفتاح .. ووضع المفتاح فى جيبه وقال :

ــ أنت وأنا ، يا مستر (هارترايت) .. يعرف كلانا الآخر حق المعرفة بما سمعه عنه .. فهل تدرك أننى لست بالرجل الذى تستطيع أن تلعب معه ؟

فقال (هارترايت) : « لم آت إلى هنا كى ألعب معك ، وإنما أنا هنا لمسألة تتعلق بحياة أو موت .. ولو كان هذا الباب مفتوحًا فى هذه اللحظة لما استطاع أى شىء تقوله أو تفعله أن يجعلنى أغادر الغرفة ! »

وجلس الكونت إلى مكتب ، فوقف (هارترايت) أمامه ، والمكتب بينهما .. بينما قال الكونت :

ــ أمر حياة أو موت ؟ ماذا تعنى ؟

ــ أعنى ما أقول !

تفصد العرق من جبين (فوسكو) غزيرًا ، بينما سعت يده اليسرى إلى درج بالمكتب .. ثم أردف قائلاً : « إذن فأنت تعرف لماذا أغادر لندن ؟.. حدثنى عن السبب إذا سمحت ! »

فأجاب (هارترايت) : « أستطيع أن أفعل خيرًا من ذلك .. أستطيع أن أريك السبب .. إذا شئت ! »

ــ كيف ترينى إياه ؟

قال (هارترايت) : « لقد خلعت سترتك ، فاطو كم قميصك إلى أعلى ذراعك اليسرى .. تر السبب هناك ! »

وهنا طرأ على وجه الكونت عين التغير الذى خالجه فى دار الأوبرا .. وشع بريق عينيه المخيف مسددًا نحو عينى (هارترايت) مباشرة !.. ولم يقل شيئًا .. لكن يده اليسرى فتحت درج المنضدة على مهل ، وتسللت إلى داخله فى حذر ، ثم أمسكت بمسدس !

وسمع (هارترايت) صوت المعدن ، فعرف ما فى الدرج عن يقين كما لو كان رآه رأى العين .. وقال : « انتظر قليلاً .. لقد أغلقت باب الحجرة ، وهأنتذا ترى أنى لا أتحرك وأن يدى خاويتين .. فانتظر قليلاً .. ما زال عندى شىء أقوله لك ! »

فأجابه الكونت ، فى هدوء غير طبيعى : « لقد قلت ما فيه الكفاية .. أتعلم فيم أفكر ؟ »

ــ ربما ..!

فاستطرد الكونت فى هدوء : « إننى أفكر فيما إذا كنت أضيف إلى الفوضى التى تسود هذه الغرفة ، بقايا ما يتناثر من مخك على الأرض ؟»

قال (هارترايت) : « أنصح لك بأن تقرأ سطرين قبل أن يستقر رأيك على هذا الأمر ! »

وأخرج من مفكرته رسالة (بيسكا) وناولها للكونت ، فتلاها بصوت مسموع : « تلقيت خطابك ، فإذا لم أرك قبل الوقت الذى حددته فسوف أفض الرسالة مع دقات الساعة التاسعة »

ولو كان القارئ غير الكونت ، لاحتاج إلى إيضاح هذه العبارة ..

أما الكونت فقد أدرك من تلاوتها مرة أن غريمه قد عرف كيف يحمى نفسه .. فخرجت يده من الدرج .. فارغة !

وقال لزائره : لن أغلق درجى يا مستر (هارترايت) ، ولا أقول : إننى قد لا أنثر مخك على الأرض .. لكننى رجل عادل ، حتى مع عدوى ، وسوف أشهد لك فورًا أنك أبرع مما توهمت .. والآن اطرق الموضوع مباشرة يا سيدى .. هل تريد منى شيئًا ؟ »

ــ نعم يا سيدى ، وأنا مصمم على الحصول عليه !

ــ بأى شرط ؟

ــ بلا قيد ولا شرط !

وإذ ذاك امتدت يد الكونت إلى داخل الدرج مرة أخرى ، وقال :

ــ لا تكن أحمق يا مستر (هارترايت) ، إن خطر إطلاق الرصاص عليك أهون لدى من خطر تركك تخرج من هذا البيت ، إلا إذا قبلت شروطى .. إنك لا تتعامل الآن مع صديقى المسكين سير (برسيفال) ، وإنما أنت تواجه الآن (فوسكو) !.. وإذا كانت حياة عشرين مستر (هارترايت) هى الدرجات التى أرقى عليها إلى سلامتى ، فإنى أطؤها وأنطلق .. فاحترمنى إن كنت تحب حياتك .. لقد جئت مزودًا بمعلومات .. فمن أين حصلت عليها ؟

ــ إنى أرفض أن أخبرك !

ــ لا بأس ، فسوف أصل إلى ذلك بنفسى .. هذه السطور التى دعوتنى إلى تلاوتها لا تحمل توقيعًا .. فمن كاتبها ؟

ــ رجل تقتضينى الظروف أن أعتمد عليه ، ويقتضيك كل عقل أن تخافه !

ــ كم من الزمن تمهلنى ، قبل أن تدق الساعة وتفض الرسالة ؟

ــ حتى الساعة التاسعة من صباح غد !

ــ وأخيرًا ، ما هى شروطك ؟

ــ ستسمعها : إنك مذنب فى مؤامرة دنيئة حصلت بها بغير حق على عشرة آلاف جنيه !

ولم يعلق الكونت بكلمة ، لكن سحابة من القلق خيمت على وجهه .. بينما استطردها (هارترايت) :

ــ احتفظ بما كسبت .. (وهنا أشرق وجه الكونت فورًا واتسعت حدقتاه دهشة واستغرابًا) فأنا لم آت لأساومك على مال ، وإنما أريد شيئين ، أريد أولاً اعترافًا كاملاً بالمؤامرة .. وأريد ثانيًا دليلاً ماديًا يثبت تاريخ مغادرة (لورا) لقصر (بلاكووتر بارك) وسفرها إلى لندن !

فأجاب الكونت فى هدوء : « إذن فقد استطعت أن تضع إصبعك على نقطة الضعف .. إنه لم يكن خطئى .. ففى يوم ٢٥ يولية كتبت إلى (برسيفال) أطلب إليه أن يرسل زوجته إلى العاصمة فى يوم ٢٦ يولية .. ثم ارسلت زوجتى فى يوم ٢٥ لتزيح السيدة (كليمنتس) عن الطريق .. وتبعتها فى عربة أخرى ، حاملاً خطابًا إلى (آن كاثريك) بأن ترحل لتقابل (ليدى جلايد) والسيدة (كليمنتس) فى رعايتى .. وقد أرسلت هذا

الخطاب إلى (آن) مع أحد غلمان الشارع ، فلم تمض خمس دقائق حتى خرجت (آن) وركبت عربتى !

« وكنت أعتزم أن أحتفظ بها فى منزلى حتى يوم ٢٦ ، حين أعين الطبيعة على أن تحررها من حياتها المضطربة !.. لكنها عندما لم تجد (ليدى جلايد) أو السيدة (كليمنتس) ـــ وإنما وجدت زوجتى وحدها فى البيت ـــ ذعرت وأصيبت بنوبة قلبية قضت عليها فى الليلة نفسها !.. ماتت فى يوم ٢٥ بينما كان مقدرًا ألا تصل (ليدى جلايد) إلى لندن إلا يوم ٢٦ يوليو !.. وكانت هذه نقطة ضعف فى المؤامرة ، لكن أوان تعديل خطتى كان قد فات ! »

فقاطعه (هارترايت) قائلاً : « إننى أريد دليلاً ماديًا على هذا ، لا يتوقف على كلمتك ! »

فأجابه الكونت : « سوف تحصل على هذا الدليل ، بالشروط التى أفرضها أنا .. سأكتب الإقرار الذى تطلبه ، وسأعطيك خطابًا من سير (برسيفال) يخطرنى فيه بيوم وساعة وصول زوجته إلى لندن .. ولعلك تقر بأنه دليل مادى !؟.. كل هذا أستطيع أن أفعله ، وسأفعله ولكن بشرطين : أولهما أن تغادر ـــ مدام (فوسكو) وأنا ـــ هذا المنزل فى الوقت الذى نشاء دون تدخل من جانبك . والثانى أن تبقى هنا لتقابل وكيلى الذى سيحضر فى الساعة السابعة صباحًا ، فتعطيه أمرًا مكتوبًا إلى الشخص الحائز لرسالتك المغلقة لينزل عنها .. ثم تنتظر هنا حتى يعود وكيلى

فيسلمنى تلك الرسالة مغلقة .. وعندئذ تمهلنى نصف ساعة كى أغادر أنا وزوجتى هذا البيت !.. هذه هى شروطى فأخبرنى إن كنت تقبلها أم ترفضها .. نعم أم لا ؟ »

وفكر (هارترايت) بضع لحظات .. كان غرضه أن يرد إلى (لورا) مكانتها فى الدنيا .. ولم يكن راغبًا فى أن ينجو الكونت (فوسكو) ، لكنه تذكر ميتة سير (برسيفال) !.. أن العقاب قد انتزع فى تلك الحالة من يديه الضعيفتين ، وخليق به أن يترك الكونت أيضًا لقوة علوية تعاقبه !

وإذ انتهى إلى هذا القرار أجاب محدثه قائلاً : « أقبل شروطك .. ولكن الرسالة المغلقة يجب أن تعدم فى وجودى ، دون أن تفض ، بمجرد وصولها إلى يدك ! »

وكان غرض (هارترايت) أن يحول بين الكونت وبين أن يأخذ معه قرينة قد يستخدمها ضد (بيسكا) فيما بعد ..!

وأجاب (فوسكو) : « أوافق ، فالأمر لايستحق جدلاً .. سوف تعدم الرسالة ! » .. ثم أغلق ادرج المنضدة ونهض من المقعد الذى كان يجلس فيه مواجهًا (هارترايت) .. وبدا أنه بمجهود بسيط قد أراح ذهنه من المناقشة كلها !.. وصاح وهو يمد ذراعيه : « أف !.. كانت المعركة حامية أثناء حدوثها !.. خذ مقعدًا يا مستر (هارترايت) » .

ثم مضى ففتح باب الحجرة بالمفتاح وصاح مناديًا بصوته العميق : « إليانور ! » .. وجاءت زوجته ، فقال يقدمها إلى زائره : « مدام (فوسكو) .. مستر (هارترايت) .. »

ثم استطرد محدثا امرأته : « يا ملاكى » ، هل يسمح لك انشغالك بحزم الحقائب بوقت تعدين فيه لى قدحًا لطيفًا ممتعًا من القهوة القوية ؟ »

فأحنت مدام (فوسكو) رأسها مرتين ، مرة إلى (هارترايت) — فى برود الإقرار ومرة إلى زوجها ، فى خضوع ، ثم غادرت الغرفة .. وإذ ذاك عاد الكونت إلى المكتب فأعد الورق والريشة ، وقال : — سأجعل من هذا الإقرار وثيقة ممتازة ، فإنى ألفت الإنشاء الأدبى .. وإن من أندر المواهب العقلية التى يوهبها الإنسان موهبة تنسيق آرائه ، وأنا أملك هذه الموهبة !

وأحضرت مدام (فوسكو) القهوة ، فقبل زوجها يديها شاكرًا ، وقادها إلى الباب .. ثم عاد وحده ، فصب قدحًا من القهوة لنفسه وحمله إلى المكتب .. وقال قبل أن يجلس : « هل أقدم لك بعضًا من القهوة ؟ »

فرفض (هارترايت) .. وضحك الكونت قائلاً : « ماذا ؟.. أتحسب أنى سادس لك السم ؟.. إن العقل الإنجليزى لا بأس به ، لكن فيه نقطة ضعف خطيرة : هى إنه دائمًا يحترس فى غير مواضع السوء » .

ثم غمس ريشته فى الحبر وبدأ يكتب بسرعة خارقة ، وبخط كبير ، تاركًا مسافة عريضة بين السطور ، بحيث كان يفرغ من كل ورقة فيما لا يزيد عن دقيقتين من بدايته للصفحة .. وانقضت ساعة بعد ساعة ، و (هارترايت) جالس يرقبه بانتباه ، والكونت جالس يكتب !.. ودقت الساعة الأولى .. فالثانية .. فالثالثة .. وفى الساعة الرابعة ، وضع الكونت توقيعه فى ذيل الإقرار ، ثم هب واقفًا على قدميه وهو يهتف جذلاً وعلى فمه ابتسامة الفوز :

— مرحى مرحى !.. لقد تمت مهمتى يا مستر (هارترايت) .. وأنا راض عن عملى أعمق الرضا .. وراح يرتب أوراقه ويراجعها ، ثم تلا الاعتراف على (هارترايت) .. وبعد ذلك قدم إليه خطاب سير (برسيفال) . وكان مؤرخًا فى (هامبشاير) يوم ٢٥ يوليو ، وفيه ذكر رحلة (ليدى جلايد) إلى لندن فى يوم ٢٦ يوليو !.. أو بمعنى آخر كان ذلك الخطاب يثبت أنه فى اليوم الذى أعلنت فيه شهادة الطبيب وفاة (الليدى) ، كانت هى على قيد الحياة فى (بلاكووتر) ، وفى اليوم التالى قامت برحلتها !

وبهذا الخطاب ، وإقرار (فوسكو) ، اكتملت لـ (هارترايت) الأدلة التى أرادها !

ونظر الكونت إلى ساعته ثم قال : « الساعة الخامسة ، وقد آن لى أن انعم بقسط من النوم . إننى أشبه نابليون فى قدرتى على السيطرة على النوم وفقًا لإرادتى » .. ثم نادى زوجته ليطمئن إلى أن (هارترايت) لن يبرح البيت أثناء نومه .. وقال لها : « تولى تسلية مستر (هارترايت) يا ملاكى ! »

.. ثم قدم لها مقعدًا وتمدد هو على أريكة .. ولم تمض دقائق ثلاث حتى كان مستغرقًا فى النعاس ، كأتقى الناس وأخلصهم ضميرًا !

أما مدام (فوسكو) فتناولت كتابًا من فوق المنضدة ، ثم جلست ونظرت إلى (هارترايت) بحقد المرأة التى لا تنسى ولا تصفح قط عن إساءة !.. ثم قالت : « لقد أصغيت إلى حديثك مع زوجى .. ولو كنت مكانه لألقيت بك على الأرض صريعًا ! »

ثم فتحت كتابها بعد هذه الكلمات ، ولم تنظر إلى (هارترايت) أو تخاطبه ثانية .. حتى استيقظ زوجها فى الساعة السابعة ، ففتح عينيه ونهض عن الأريكة قائلاً : « أحس بمنتهى الانتعاش والنشاط .. (أليانور) ، يا زوجتى الطيبة ، هل أنت على استعداد ؟ حسنًا .. إن حزم متاعى القليل ينتهى فى عشر دقائق ، فخذى الفيران البيضاء إلى الطابق العلوى يا ملاكى وضعيها فى قفصها المعد للسفر .. »

وبعد دقائق من مغادرة مدام (فوسكو) للحجرة ، دق جرس الباب وأقبل الوكيل .. وكان أجنبيًا ذا لحية قاتمة .. فقال الكونت يقدم كليهما إلى الآخر : « مستر (هارترايت) .. مسيو (روبل) ! »

وبينما راح الكونت يهمس لوكيله ببعض التعليمات ، كتب (هارترايت) إلى (بيسكا) يرجو منه تسليم رسالته المغلقة دون فضها إلى الرسول .. ثم سلم الخطاب لمسيو (روبل) ، الذى انصرف على الفور .

وفرغ الكونت من حزم متاعه ، ثم جلس يتأمل خريطة للسفر ، وينظر بين حين وآخر إلى ساعته فى نفاد صبر .. دون أن يوجه كلمة أخرى إلى (هارترايت) .

وقبيل الساعة الثامنة بقليل عاد مسيو (روبل) يحمل رسالة (هارترايت)المغلقة فى يده ، ففحص الكونت الظرف بدقة ثم أشعل شمعة وأحرق الرسالة ، وهو يقول : « إنى أفى بوعدى » .

وكان الوكيل قد ترك العربة التى عاد بها لدى الباب .. فانهمك مع الخدم فى نقل الأمتعة إليها .. وهبطت مدام (فوسكو) فى السلم تحمل فى يدها قفص الفيران البيض .. وإذ ذاك قادها زوجها إلى العربة ، وتبعهما (هارترايت) إلى باب البيت .. ولم يلبث الكونت أن عاد وحده من العربة وقال : « ستبقى هنا يا مستر (هارترايت) مع وكيلى لنصف الساعة .. بقيت كلمة أخرى : عندما رأيت الآنسة (هالكومب) لآخر مرة كانت بادية الهزال والمرض .. فأعن بهذه المرأة الرائعة يا سيدى ! »

وكانت هذه آخر الكلمات التى نطق بها قبل أن يحشر جسمه الهائل فى العربة فتنطلق به !.. بينما وقف (هارترايت) والوكيل أمام البيت يتبعانه ببصريهما .. فإذا بعربة أخرى تظهر وتتبع عربة الكونت !.. وإذ مرت بباب الدار أطل الشخص الذى فى داخلها من نافذتها .. وكان ذلك الغريب الذى رآه (هارترايت) فى دار الأوبرا .. الأجنبى النحيل ذا الندبة !

وحدث (هارترايت) نفسه :« ترى هل هو الآخر عضو فى « الأخوة » ؟.. وهل عرف أن الكونت قد خان مبادئ الجمعية ..؟.. إذا كان الأمر كذلك ، فخير للكونت أن يطلق آماله فى الفرار ! »

بعد ثلاثة أيام ، انتشلت من نهر السين — فى باريس — جثة رجل مسن بدين كان يرتدى ثياب عامل فرنسى .. ولم يعثر على ما يرشد إلى اسمه أو شخصيته !.. وكان الجرح الذى قتله ناجمًا عن سكين اخترقت القلب !.. وعلى ذراعه اليسرى وجد جرحان عميقان على شكل حرف « T » طمسا تمامًا الوشم الذى كان يرمز إلى عضويته فى جمعية « الأخوة » السرية .. وحرف « T » هو الحرف الأول من كلمة TRAITOR الإنجليزية — ومعناها « خائن ! »

أما اليد التى قتلته ، فلم يكتشف أمرها !

* * *

٢٥ — الخاتمة

نحن الآن فى قاعة الطعام الكبرى بقصر (ليمريلج) — بعد بضعة أيام — كانت المائدة قد رفعت وصفت مكانها صفوف من المقاعد ، جلس عليها أهل القرية وفلاحو المناطق المجاورة ، الذين شيعوا جنازة (ليدى جلايد) منذ عام تقريبًا .. وكانت النوافذ قد فتحت على مصاريعها ، وأطل منها — من الخارج — العمال وصبية المدرسة .. وفى أقصى القاعة جلس مستر (فيرلى) ، وإلى جانبه مستر (جيلمور) . ووقف خلف مقعد مستر (فيرلى) خادم يحمل فى يده زجاجة « نوشادر » معدة للاستعمال ، وفى يده الأخرى منديلاً أبيض مبللاً بماء الكولونيا !

ونهض كل المجتمعين واقفين حين دخلت (لورا) القاعة يقودها (هارترايت) و (ماريان) .. وأبدوا دهشة واهتمامًا لمرأى وجهها ، إذ زال عنه التغير الذى أحدثته الأحزان والآلام ، وعاد ثانية وجه (لورا فيرلى) التى عرفوها ..

وشرع (هارترايت) يتكلم بصوت عال ، سمعه حتى أولئك الذين كانوا فى الحديقة .. قال : « أود أولاً أن أسأل مستر (فيرلى) أن يحدثكم عما إذا كنت هنا الآن ، بإذنه وموافقته ؟ »

وهنا أعطى مستر (فيرلى) إحدى ذراعيه إلى محاميه ، وذراعه الأخرى إلى خادمه .. فساعداه على الوقوف على قدميه ، وقال : « اسمحوا لى أن

أقدم لكم مستر (هارترايت) .. إننى كما تعرفون عاجز مقعد كعادتى ، وإنه لمتفضل إذ يتكلم نيابة عنى .. فكيف كان لى أن أعرف أن ابنة أخى ما تزال على قيد الحياة ، وقد قيل لى إنها ماتت ؟.. لسوف يروى لكم مستر (هارترايت) القصة .. فرجائى إليكم أن تصغوا إليه ، وألا تحدثوا ضجيجًا ! »

ثم غاص وئيدًا فى مقعده ثانية ، ورفع المنديل المعطر إلى أنفه .. وبدأ (هارترايت) يقول :

ـــ لقد دعيتم إلى هنا فى هذا الصباح كى تسمعونى أعلن أولاً إن زوجتى ـــ الجالسة الآن إلى جوارى ـــ هى ابنة المرحوم مستر (فيليب فيرلى) .. وثانيًا ، كى أثبت لكم أن الجنازة التى اشتركتم فى تشييعها إلى مقبرة (ليمريدج) كانت جنازة امرأة أخرى .. وثالثًا ، لأروى لكم باختصار كيف حدث ذلك كله !

ثم تلا عليهم وصفًا واضحًا للمؤامرة كان قد كتبه فى اليوم السابق ، وتحدث فيه عن الدافع المالى وحده ، وبذلك لم تكن ثمة ضرورة لأن يذكر سر سير (برسيفال جلايد) .. فلما انتقل من هذا الجزء ذكّر سامعيه بتاريخ الوفاة المكتوب على رخام المقبرة ، وهو يوم ٢٥ يوليو ، وأثبت صحته بإبراز شهادة الوفاة .. ثم تلا خطاب سير (برسيفال جلايد) المؤرخ فى ٢٥ يوليو ، معلنًا اعتزام زوجته السفر من (هامبشاير) فى السادس والعشرين !.. وأضافت (ماريان) روايتها عن لقائها (لورا)

فى المصحة ، وعن فرار أختها .. ثم اختتم (هارترايت) القصة قائلاً : « لقد مات سير (برسيفال) فى شهر نوفمبر ، وتزوجت (لورا) فى شهر أبريل »

وأخيرًا نهض مستر (جيلمور) فقال : « بوصفى محامى الأسرة ، أحب إن أقول أن قضية مستر (هارترايت) قد ثبتت بأوضح أدلة سمعتها فى حياتى ! »

ثم أحاط (هارترايت) (لورا) بذراعه ورفعها بحيث يراها كل شخص فى القاعة .. وصاح بالحاضرين وهو يخطو نحوهم بضع خطوات ويشير إلى زوجته : « هل ترون جميعًا نفس هذا الرأى ؟ »

وكان للسؤال مفعول التيار الكهربائى .. فنهض فى أقصى القاعة فلاح مسن ذو وجه صريح أسمر وشعر أغبر ، واعتلى مقعده صائحًا وهو يلوح بسوطه الثقيل فوق رأسه : « ها هى ذى .. ها هى ذى على قيد الحياة وبخير .. فليباركها الله .. أفصحوا عن شعوركم أيها الإخوان .. أفصحوا عن شعوركم ! »

وكان الهتاف الذى رددوه على الأثر ، وكرروه المرة بعد المرة ، أعذب موسيقا سمعها (هارترايت) فى حياته ! لكن مستر (فيرلى) لم يشاركه هذا الرأى ، فقد أزعجه الضجيج بدرجة دعت إلى حمله وإخراجه من القاعة ! ـــ واستمر فلاحو القرية وصبية المدرسة المجتمعون فى الحديقة يرددون الهتافات الصاخبة .. وتكأكأت زوجات الفلاحين حول (لورا)

ورحن يتنافسن على السبق إلى مصافحتها .. ورحن والدموع تنحدر على وجناتهن ، يسألنها أن تكون شجاعة فلا تبكى .. وغلب عليها التأثر تمامًا بحيث اضطر (هارترايت) إلى أن ينتزعها من وسطهن ويحملها إلى الباب .. وهناك تركها فى رعاية (ماريان) ، التى لم تتخل عنهما قط !..
ثم دعى إلى الصمت وقال : « أشكركم جميعًا ، باسم زوجتى وباسمى .. والآن أريدكم أن تتبعونى إلى المقبرة ، وتروا العبارات الزائفة المنقوشة وهى تمحى عن رخامها .. »

وغادروا الدار ، وانضموا إلى جموع القرويين التى كانت قد احتشدت فعلاً حول القبر ، وكان فى انتظاره ناقش الأحجار الذى كان (هارترايت) قد كلفه بالحضور .. وفى غمرة السكون الذى لم يكن يسمع فيه تردد الأنفاس ، رنت على الرخام أول طرقة على الإزميل ولم يسمع صوت ما ، ولم يتحرك فرد ما ، حتى محيت تلك الكلمات الثلاث : « لورا ، ليدى جلايد » ..! إذ ذاك سرت فى الجمع زفرة ارتياح ، وكأنما قد شعروا أن آخر أغلال المؤامرة قد حطمت من حول (لورا) نفسها .. وبدأ الناس ينصرفون فى بطء .. وحان العصر قبل أن تمحى جميع الكلمات المنقوشة ، وينقش فى مكانها سطر واحد : « آن كاثريك ، ٢٥ يوليو سنة ١٨٥٠ »

وتذكر (هارترايت) اليوم الذى قابل فيه (آن كاثريك) عند قبر السيدة (فيرلى) .. وتذكر يديها الكليلتين الهزيلتين وهما تربتان الحجر ، وكلماتها المهمومة لرفات صديقتها : « آه ، لو دفنت إلى جوارك » ..

لقد انقضى أكثر من عام مذ نبست بهذه الرغبة ، فما كان أروع تحققها !.. والكلمات التى قالتها لـ (لورا) على ضفاف البحيرة .. لقد غدت الكلمات بحذافيرها حقيقة .. « أواه ، ليتنى أدفن إلى جوار أمك ! » .. خلال أية مسالك إجرامية قاتلة ، هامت المخلوقة الضائعة فى طريقها إلى مقرها الأخير الذى لم تكن تأمل فى حياتها أن تبلغه !

وتحول (هارترايت) عن القبر .. لقد صار بوسعه الآن أن يروى لمسز (كليمنتس) القصة ، فلسوف يسعدها أن تعرف — على الأقل — أن (آن) قد استراحت ..

وفى صباح اليوم التالى أخذ (هارترايت) زوجته و (ماريان) عائدين إلى لندن .. وإذ اختفت عن نواظرهم تلال (كمبرلاند) عاد الشاب بذاكرته إلى الصراع الرهيب الطويل الذى انتهى !.. كان غريبًا أن يستعرض الماضى ، فيرى أن فقرهم كان السبيل غير المباشر لنجاحهم ، إذ أجبر (هارترايت) على أن يعمل بنفسه .. ترى ماذا كان يمكن أن تكون النتيجة ، لو كانوا على ثراء مكنهم من الحصول على معونة قانونية ؟.. إن القانون ما كان ليتيح لـ (هارترايت) مقابلة السيدة (كاثريك) .. لا وما كان فى وسع القانون أن يجعل (بيسكا) وسيلة لانتزاع اعتراف من الكونت بجرائمه وآثامه !

* * *

انقضى الصيف ، والخريف .. وكان (هارترايت) قد اتخذ بيتًا فى لندن ، عاش فيه الزوجان معيشة بساطة وهدوء ، بحيث أن الدخل الذى أخذ يكسبه بانتظام ، كان كافيًا لسد جميع حاجاتهما ..

وكانت (ماريان) قد قبلت أن تشارك الزوجين حياتهما فى بيت واحد ، قائلة لهما : « بعد كل ما قاسيناه — ثلاثتنا معًا — لن يكون هناك فراق بيننا ، حتى يحين الفراق الأخير .. إن قلبى وسعادتى مع (لورا) ومعك يا (وولتر) .. فانتظر قليلاً حتى ترزقا أطفالاً ترن أصواتهم الحلوة بجوار المدفأة ، فأتولى تعليمهم أن يتكلموا بلسانى ، ولسوف يكون الدرس الأول الذى يرددونه على أمهم وأبيهم : « لن نستطيع الاستغناء عن خالتنا ! »

وفى فبراير من العام التالى رزق الزوجان ابنهما الأول وكان ذكرًا ! وحين بلغ (وولتر) الصغير شهره السادس أوفد (هارترايت) إلى إيرلندا ، كى ينقل بعض المناظر لإحدى الصحف .. وغاب زهاء أسبوعين ، فلما عاد ، أدهشه ألا يجد أحدًا يستقبله فى البيت ، إذ كانت (لورا) و (ماريان) والطفل قد غادروا البيت فى اليوم السابق !

وزادت من دهشته رسالة من زوجته سلمها إليه الخادم ، أنبأته فيها بأنهم رحلوا إلى (ليمريدج) — دون إيضاح الأسباب ! — وتضمنت رجاء بأن يلحق بهم بمجرد وصوله ، وألا يقلق أو ينزعج !

واستقل (هارترايت) أول قطار ، فبلغ (ليمريدج) فى عصر اليوم

نفسه .. وكانت زوجته و (ماريان) فى الطابق العلوى ، فى مخدع (لورا) ، وكانت (ماريان) جالسة فى أحد المقاعد ، والطفل فى حجرها .. بينما وقفت (لورا) بجوار المنضدة .. فتساءل (هارترايت) :

— ماذا جاء بكم إلى هنا بحق السماء ؟.. هل يعلم مستر (فيرلى) أن ...

فقطعت (ماريان) السؤال على شفتيه قائلة إن مستر (فيرلى) قد مات .. وإن مستر (جيلمور) محامى الأسرة قد أخطرهما بوفاته وأشار عليهما بالحضور فورًا إلى (ليمريدج) .

واستطاع (هارترايت) أن يرى — فى إبهام — التغيير الكبير الذى قد يطرأ على حياتهم .. وقبل أن يتكلم نهضت (ماريان) وحملت الطفل ، وهو يضرب ذراعيها بقدميه ، وقالت وقد ترقرقت فى عينيها دموع السعادة :

— أتعرف من هذا ، يا (وولتر) ؟

فأجابها الشاب :

— إن لحيرتى حدودًا ، فما زلت أستطيع أن أعرف طفلى !

فهتفت فى مرح :

— طفل ؟!.. أهكذا تتكلم عن أحد سادة إنجلترا ، ذوى الضياع ؟.. ألا تعرف فى حضرة من تقف ؟ وبالطبع لا .. دعنى إذن أقدم كلا منكما للآخر : « هذا مستر (وولتر هارترايت) .. وهذا .. (وارث ليمريدج) وسيدها ! »

[تمت بحمد الله]



عزيزى القارئ :

القصة التى أقدمها إليك فيما يلى من أروع وأخلد القصص الإنسانية التى تصور الصراع الرهيب - فى سبيل المال - بين عواطف الحب والبغض ، والطمع والندم ، والخير والشر .. الصراع إلى حد الجريمة ، التى تقود بدورها إلى جرائم ! وجرائم ضد من ؟ ضد أقرب امرأة إلى المجرم وأحوجها إلى حبه ورعايته .. ضد المرأة الآمنة البريئة التى شاء لها طالعها أن يكون وراء اختفائها من مسرح الحياة نفع للباغى وأى نفع .

ولكن كيف تختفى من الحياة ويمحى اسمها من سفر الأحياء ، دون أن تخضب بالدم يد الجانى التى مافتئت تحوم حولها ؟ كيف تموت دون أن تقتل .. وتدفن وهى لاتزال على قيد الحياة !

هنا تتفتق قريحة «ويلكى كولنز» عن الحل الرهيب ، الذى تتسلسل منه حوادث القصة في حبكة رائعة ، تأخذ بمجامع القلوب حقا ، وتجمع بين تشويق القصة البوليسية المثيرة .. وقوة القصة الإنسانية الممتازة التى تحلل اصطراع العواطف العنيفة أصدق وأبلغ تحليل !

حلمى مراد